



تاريخ الإمارة العيونية في شرق الجزيرة العربية

عبدالرحمن بن عثمان آل ملا



تاريخ الإمارة العيونية
في شرق الجزيرة العربية

تأليف

عبدالرحمن بن عثمان بن محمد آل ملا



أشرف على طباعة هذا الكتاب وراجعه الباحثان
بمؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري

عبدالعزيز جمعة

و

ماجد الحكواتي

الصف والإخراج والتنفيذ:

محمد العلي

أحمد متولي **أحمد جاسم**

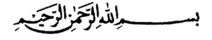


مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري

تلفون: 2430514 **فاكس:** 2455039 (00965)

E-mail < babtainprize@hotmail.com >

2002



تصـديـر..

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله العربي الأمين، خاتم النبيين، ومؤسس الدولة الإسلامية القائمة على أفضل نهج ودين، وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين، وبعد.

فلم يكن من ضمن منهاج مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري خلال دوراتها السابقة، أن تصدر كتاباً عن تاريخ الدولة التي ينتمي إليها شاعر الدورة، وكان أقصى ما يمكن في هذا الاتجاه إصدار كتاب عن «عصر الشاعر» والعناية بالجانب الثقافي منه، كما حصل مع شاعري الدورة السابعة الأميرين: أبي فراس الحمداني وعبدالقادر الجزائري، حين أصدرت المؤسسة كتابين هما: عصر أبي فراس الحمداني وعصر الأمير عبدالقادر الجزائري.

أما في هذه الدورة: دورة علي بن المقرب العيوني، فإن اللجنة العليا المنظمة للدورة رأت أن من الأهمية بمكان إصدار كتاب عن تاريخ الدولة أو الإمارة العيونية من عدة منطلقات أساسية منها:

١ - ندرة ما كتب عن الدولة العيونية حتى تكاد تكون نسياً منسياً بالرغم من أنها حكمت منطقة شاسعة من شبه الجزيرة العربية، ودام حكمها (١٦٨) عاماً (من ٤٦٩ - ٦٣٦هـ).

٢ - قيام هذه الدولة وزوالها في منطقة بارزة من وطننا العربي، مع بقاء تاريخها شبه مجهول، حيث لم يلتفت المؤرخون إلا إلى العواصم والحواضر المهمة في العالم الإسلامي آنذاك، تاركين تاريخ مناطق الأطراف - ومنه تاريخ هذه المنطقة - يرزح تحت ظلام الإهمال.

٣ - ولكن الله عز وجل قيّض شاعراً هو علي بن المقرب العيوني، سجل كثيراً من الأحداث والوقائع التاريخية للمنطقة في قصائده، ووثّق خلالها ما تعرض له من الظلم والعسف والجور والسجن ومصادرة الأملاك على يد العديد من الأمراء العيونيين، حيث تعد هذه القصائد مصدراً مهماً وفريداً لتاريخ الدولة العيونية، باعتبار ابن المقرب احد افراد الأسرة العيونية الحاكمة.

وكان مولد ابن المقرب عام ٥٧٢هـ ووفاته عام ٦٢٩هـ. مما أتاح له مشاهدة أمجاد الدولة العيونية في ذورتها كما شاهد بدء انحدارها إلى أن تلاشت تماماً بعد وفاته بسبع سنوات فقط.

وقد خلد ابن المقرب في شعره تفاصيل هذه المحن وأبعادها، سواء أكانت محناً شخصية أم عامة، ورصد من خلال قصائده العديدة تاريخ أسرته وبلاده في الذورة والحضيض على حد سواء، وامتاز شعره بالمطولات والحماسة بشكل عام، وبخاصة مطولته التي مطلعها:

قم فاشدد العيس للترحال معتزما

وارْمِ الفجاج بها فالخطب قد فقما

وتقع هذه المطولة في (١٥٠) بيتاً أرّخ فيها الشاعر لوقائع أسرته وأمرائها وكبرائها وأجوادها وفرسانها وجهادها ضد القرامطة وعرض لخلافاتها وتدهورها، مما يعيد إلى الأذهان مطولة «العامرية» لأبي فراس الحمداني التي تعد مصدراً مهماً من مصادر تاريخ الأسرة الحمدانية.

ولعل في هاتين القصيدتين ما يبين بأجلى الصور مصداقية مقولة «الشعر ديوان العرب»، فلقد حفظ الشعر كثيراً من أيام العرب ووقائعهم في مختلف العصور، ولولاه لاندثرت حقائق تاريخية كثيرة.

ويسعدني أن أقدم بالغ الشكر والتقدير للشيخ عبدالرحمن بن عثمان الملا الذي نهض بإعداد هذا الكتاب، برغم كل الصعوبات التي أشار إليها في المقدمة، وللباحثين في الأمانة العامة الأخوين ماجد الحكواتي وعبدالعزيز جمعة على ما بذلاه من جهد في مراجعة هذا الكتاب.

ولله المنة والحمد وهو ولي التوفيق..

عبدالعزيز سعود البابطين

الكويت ١١ ربيع الآخر ١٤٢٣هـ
٢٢ يونيو ٢٠٠٢م

المقدمة

يدرك الباحثون والكتاب في تاريخ الجزيرة العربية جيداً مدى المصاعب والعقبات التي تعترض سبيلهم في لمّ شتات الإشارات المتفرقة في تضاعيف الكتب وما توحي به الآثار من تاريخ الجزء الشرقي من شبه الجزيرة العربية «البحرين قديماً»، فعلى الرغم من تسليم المؤرخين بأهمية الدور الذي لعبه أهل هذه البلاد في صياغة الحضارة الإنسانية منذ سطعت أشعتها على ربوع المعمورة، إلا أن رسم ملامح صورة ذلك الدور بدقة ووضوح خارجة عن الطاقة في الوقت الحاضر على الأقل، ذلك لأن تدوين التاريخ ورصد حقائقه وتوثيقها يعتمد على مصدرين رئيسيين هامين هما : الآثار والمعالم المادية، وأدبيات التراث المدون، وليس أمام الباحث في تاريخ هذه البلاد منهما سوى ومضات وشذرات تجعل مهمة جمعها وتنسيقها كمهمة الغوص على اللؤلؤ واستخراجه من أعماق الخليج، كما أن السرور برؤيتها في سفر واحد كرؤية تلك اللآلئ في عقد جميل على صدر حسناء، ولكن لماذا هذه الندرة في المعلومات والمصادر مع ما نزعمه من وجود دور رائد لأهل هذه البلاد في صنع التاريخ البشري وصياغة الحضارة الإنسانية ؟ للإجابة عن هذا السؤال سنلقي شيئاً من الضوء على أهم الأسباب التي أفضت إلى تواري المعالم الأثرية البارزة وغياب الكتابات والمؤلفات في تاريخ هذه البلاد.

فأما الآثار والمعالم فقد تضافرت على زوالها عدة عوامل من أهمها:

(١) زحف الرمال المتحركة بفعل الرياح العاتية التي كثيراً ما تسببت في دفن عدد من القرى والمدن حيث يضطر أهلها إلى التحول عنها بما خف حمله وغلا ثمنه من أموالهم.

(٢) ربما كانت المواد التي دون عليها سكان هذه البلاد معارفهم ونتاج حضارتهم سريعة التلف، وإن حرارة الجو وتشبّع بعض الأراضي بالمياه قد أتلفت تلك المواد.

(٣) افضى تكرر البناء والعمران في الموضع الواحد إلى نهب محتوياته من الآثار، وقد اثبت المسح الأثري ان عدداً كبيراً من المقابر والرجم قد تعرضت للنهب والسرقة.

(٤) ادّى عمل هواة جمع الآثار إلى إتلاف وضياع الكثير من المواد الأثرية القديمة، لأن ممارستهم لتلك الهواية كانت تتم بصورة عشوائية وغير منظمة تنظيماً علمياً.

(٥) إن تعرض هذه البلاد في مختلف الأزمنة السابقة لهجمات العديد من الحكومات المجاورة قد أدى إلى إتلاف وتدمير الكثير من المعالم الأثرية، ولا يزال التنقيب الجاد عن الآثار يمثل احد خيوط الأمل المرجو لإزاحة الستار عن كثير من الصفحات المطوية من تاريخ هذه البلاد.

وفي ما يتصل بالمؤلفات والكتابات ذات الصلة بالبحث في تاريخها، فيمكن القول إن أهل هذه البلاد لم يدونوا تاريخهم أصلاً، أو إنهم دونوه فتعرض للتلف والضياع، سوى تلك النتف المندسة في ثنايا كتب التراث، والسبب في الحالتين واحد، هو في ما أرى التمايز والتضاد في أنماط الحكم التي خضعت لها بلاد البحرين عبر مسيرتها التاريخية. فمن خصائص حياتها السياسية أنها تعرضت لانقلابات ذات طبيعة عقدية، فكان الانقلاب إذا حدث لا يعني استبدال حاكم بحاكم أو أسرة مالكة بأخرى، بل يأتي وهو يحمل معه عقائد وقيماً يعمل على فرضها على الناس وإشاعتها فيهم، واستئصال ومحو كل ما للعهد السابق من آثار وتراث، وهكذا دواليك.

أما لماذا لا نجد في أسفار التاريخ العام معلومات كافية عن تاريخ البلاد فإن حظها من ذلك لا يقل عن حظوظ نظيراتها من الأقطار العربية باستثناء الحواضر الكبرى للخلافة الإسلامية كدمشق وبغداد والقاهرة.

ومن المعلوم أن أساطين المؤرخين قد قصروا اهتمامهم على هذه العواصم أو قل على قصور الخلفاء فيها، فسجلوا كل ما يعنيها من شؤون أو يجري عليها من أحداث، أما شؤون وأحداث الأقطار الأخرى فقد ظلت حبيسة عزلة تلك الأقطار، ولم يكن لها

نصيب في أسفارهم إلا ما جاء من أخبارها على لسان بعض القادمين منها إلى تلك الحواضر من التجار وعابري السبيل، وأخبار من هذا النوع لا بد وأن يشوبها كثير من القصور والاضطراب والتشويه.

وفي تصوري أن قلة عناية المؤرخين بتسجيل تاريخ تلك الأقطار والتقصير في عرض أحوالها وتدوين أحداثها، يعد أمراً سلبياً في تاريخ المسلمين، وهو يعكس بوضوح إهمال الخلفاء لتلك الأقطار وعدم اكتراثهم بمعرفة أحوالها وإصلاح شؤونها، وليس أدل على ذلك من حال هذه البلاد وما جرى فيها من أحداث خطيرة أفضت في النهاية إلى استقلالها عن الخلافة العباسية رغم قربها من حاضرتهم، دون أن تشغل أخبار تلك الأحداث من صفحات أسفار التاريخ العام ما يتناسب مع جسامتها، وفي ذلك مؤشر واضح الدلالة على مدى العزلة التي كان يحياها المؤرخون في صوامعهم وأبراجهم العاجية في العواصم الكبرى من ناحية، والعزلة التي كانت تعيشها الشعوب خارج تلك العواصم من ناحية أخرى.

ولكن يمكن القول إن أسوار تلك العزلة آخذة في التداعي وربما الزوال، بفضل النهضة العلمية التي تتفيأ البلاد ظلالها وانتشار الوعي بأهمية نفض الغبار عن تاريخها، فقد استطاعت بعض الأقلام أن تحدث فيها ثقوباً نفذت من خلالها إلى معرفة الكثير من أحوال هذه الشعوب المعزولة، وعرضها في أسفار أسهمت في ردم هوة طالما شكت من وجودها المكتبة التاريخية العربية، ففي ما يخص الجزء الشرقي من الجزيرة العربية، فقد صدر في تاريخه عدد من الكتب والدراسات المهمة تناول بعضها عرض تاريخه بصورة شاملة، وانصب بعضها على دراسة مرحلة زمنية محددة من ذلك التاريخ، أو جانب من جوانبه أو منطقة بذاتها من مناطق البلاد.

وقد بدأت حركة التأليف في تاريخ هذا الجزء من الجزيرة في النصف الثاني من القرن الرابع عشر الهجري، على يد عدد من الرواد مهدت محاولتهم الطريق لظهور مؤلفات مهمة ودراسات أكاديمية، تقدم بها بعض الدارسين لنيل إجازة الماجستير والدكتوراه من مختلف الجامعات.

هذا إلى جانب عدد من البحوث التي صدرت عن المؤتمرات التاريخية وما تم نشره في الدوريات والمجلات المحكمة، أما ما نحن بصدده من البحث في تاريخ الدولة العيونية في بلاد البحرين، فإن من يُمن طالع هذه الدولة أن قيض الله لها من أبنائها من يخلد ذكرها ويبرز دورها في تاريخ هذه البلاد، ذلك هو الأمير الشاعر جمال الدين علي ابن المقرب العيوني (٥٧٢ - ٦٣١هـ/ ١١٨١ - ١٢٣٧م)، الذي شاء الله أن يبتليه بمحنة كان فيها الخير له ولقومه وللتاريخ، فقد سخط عليه الأمراء من أبناء عمه فاضطهدوه ونكلوا به وبأهله، فصاغ معاناته وآلامه شعراً حفل بذكر الكثير من أمجاد الدولة العيونية وأخبارها وبيان أحوالها في مراحل حياتها المختلفة، وقد أجبرته تلك المحنة على الخروج من بلده ميمماً شطر العراق، حيث الأضواء وذيوع الصيت، فكان ذلك من أسباب معرفة شعره وبقائه على قيد الحياة، والذي لولاه لأصبح تاريخ الدولة العيونية رغم عمرها المديد نسياً منسياً شأنها في ذلك شأن من تقدمها ولحق بها من الدول التي حكمت هذه المنطقة.

ويكفي شاهداً على ما نزعم أننا لا نجد إشارة واحدة عنها حتى في كتب المؤرخين الذين عاصروا قيامها أو جاءوا بعدها، وأن مؤرخاً كـ«ابن خلدون» لم يعلم أي شيء عن هذه الدولة، يؤكد ذلك زعمه أن حكم الأحساء آل من بني ثعلب إلى عصفور وبنيه من بني عامر، وبين هؤلاء وأولئك فترة زمنية تقترب من مائة وسبعين عاماً هي عمر الدولة العيونية، فهو يقول : «فقد نجح الأصغر (الأصفر) زعيم بني ثعلب في جعل الحكم وراثياً في بنيه من بعده في بلاد البحرين، فظلوا يتولون الأمور فيها حتى ضعف أمرهم وانقرضوا، وخلفهم في حكم هذه البلاد «بنو عقيل» الذين عادوا إلى ديارهم بعد أن تغلب عليهم السلاجقة في الجزيرة العربية»، وقد ذكر «أبو سعيد» صاحب كتاب «المغرب في حلى المغرب» أنه سأل أهل البحرين الذين قابلهم في المدينة المنورة سنة ٦٥١هـ عن بلادهم فقالوا : «الملك فيها لبني عامر بن عوف بن عامر بن عقيل»[1] أما بنو ثعلب فأصبحوا في جملة رعاياهم.

---

(١) ابن خلدون : التاريخ، ج ٤، ص٩٢.

من هنا تتضح أهمية ديوان هذا الشاعر وشروحه في حفظ هذه الصفحات من تاريخ البلاد، باعتباره المصدر الوحيد الذي يمكن التعويل عليه في كتابة تاريخ الدولة العيونية في بلاد البحرين.

وقد حظي هذا الديوان بشيء من الشهرة والانتشار، يؤكد ذلك وجود مخطوطاته في مكتبات عدد كبير من العواصم العربية والعالمية، وقد بلغ عدد ما تم حصره منها حتى الآن أربعاً وخمسين مخطوطة، كما طُبع أربع مرات كانت الأولى في مكة المكرمة سنة ١٣٠٧هـ وقد قام بطبعها على نفقته الشيخ «عبدالله بن سعيد باخطبة» من أهل مكة، وكانت الطبعة الثانية بمدينة «بومباي» بالهند وقد تم الطبع بوساطة الحجر وكانت على نفقة نخبة من محبي الأدب من أهل الأحساء تصدرهم الشيخ «عبدالعزيز بن أحمد العويصي الخالدي»، وكان الذي قام بجمع قصائدها الشيخ «حمد العيوني»، أما الذي أشرف على طبعها وراجعها فهو الشيخ «محمد بن إبراهيم الجغيمان»، وطبع مرة ثالثة على حساب الشيخ «علي بن عبدالله آل ثاني» حاكم قطر الأسبق، ونهضت مكتبة التعاون الثقافي بالأحساء لصاحبها الشيخ «عبدالله بن عبدالرحمن الملا» بطباعة الديوان ونشره محققاً، وكان الذي حققه بتكليف منها الأستاذ عبدالفتاح الحلو، كما أجريت حوله بعض الدراسات منها :

١- دراسة رائدة بعنوان «ابن المقرب حياته وشعره»، قام بها الأستاذ عمران العمران.

٢- دراسة بعنوان «علي بن المقرب حياته وشعره» قام بها الدكتور علي عبدالعزيز الخضيري لنيل شهادة الدكتوراه، استهلها بمقدمة تاريخية عن الدولة العيونية تقدم بها في سنة ١٤٠١هـ.

٣- دراسة بعنوان «إقليم البحرين في العصر العباسي»، رسالة ماجستير من إعداد الدكتور عبدالرحمن المديرس تتضمن تاريخ الدولة العيونية تقدم بها في سنة ١٤٠٤هـ.

٤- دراسة تاريخية جيدة بعنوان «ابن مقرب وتاريخ الإمارة العيونية في البحرين» أعدها الدكتور فضل بن عمار العماري، إلا أن المؤلف حاول بتكلف شديد إثبات انتماء

عقيدة الشاعر للمذهب الزيدي وهذا أمر بالغ الغرابة جداً حيث لا يذكر للزيدية في هذه البلاد وجود، ولأن المقام لا يتسع هنا لمناقشة هذا الزعم وتفنيده فإنني أكتفي بالإشارة إلى القول إن رائحة التشيع التي اشتمها المؤلف المذكور من قصيدتين في شعر ابن المقرب ربما تسللتا إلى بعض نسخ الديوان من شعر شاعر آخر من أهل الأحساء يدعى «علي بن المقرب» جاء بعد الشاعر المذكور بنحو خمسة قرون[٢].

ومما تجدر الإشارة إليه أن بعض مخطوطات الديوان ومطبوعاته تشتمل على شروح زاخرة بالمعلومات عن الدولة العيونية وتمثل أهم المصادر لمادة هذا الكتاب الذي أضعه بين يدي القارئ العزيز. وينبغي ألا يغيب عن البال أن شُرّاح الديوان حين أوردوا ما أوردوا من أخبار الدولة العيونية لم يضعوا في اعتبارهم أنهم يكتبون تاريخ الدولة فيراعون ما ينبغي على المؤرخ مراعاته من تسلسل الحوادث ودقة تواريخها، وصحة أسماء من ينسب إليهم حدوثها، لذلك لم يسلم بعض تلك الروايات من بعض الشوائب كوجود تاريخين مختلفين لحادثة واحدة، وإسناد واقعة معينة في رواية لشخص وإسنادها في رواية أخرى لشخص آخر، وبخاصة عندما يكون الشخصان مشتركين في الاسم واسم الأب وربما في الكنى والألقاب، وهذه إشكالية تُوقع من يتصدى لكتابة التاريخ العيوني في شيء من الحيرة إزاء ترتيب الأحداث وتنسيقها وتحديد أبطالها، ويظل الحس التاريخي والقرائن السبيل الوحيد لدى الباحث في الأخذ برواية دون أخرى حين يعرض له شيء من الإشكال واللبس، وهذا ما اقتضاه منهج البحث في هذا الكتاب الذي جاء استجابة لدعوة كريمة تلقيتها من مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، ليكون ضمن أعمال دورتها الثامنة في المهرجان الخاص بتكريم علي بن المقرب .

---

(٢) عاش في أواخر القرن الحادي عشر وأوائل القرن الثاني عشر الهجريين وكانت وفاته في منطقة الحويزة حيث كان يشغل مناصب هامة لدى «شبّر المشعشعي» من أسرة المشعشعيين الذين حكموا الحويزة والجزائر والمحمّرة ونواحي من البصرة، وقد ورد ذكر ابن المقرب هذا في عدة مصادر منها كتاب «معارف الرجال» لابن حرز الدين النجفي وكان قد أخذ المعلومات الخاصة به عن رجل من أهل الأحساء يقيم في منطقة الدورق «الفلاحية» ذكر أن علي بن المقرب المتأخر، هو جده من قبل الأم، كما ورد لابن المقرب هذا ذكر في كتاب تاريخ المشعشعيين «لجاسم المشعشعي» فقد ترجم له وأورد شيئاً من شعره اعتماداً على إفادة شفوية من الحاج «جواد الرمضان» عضو مجلس إدارة نادي المنطقة الشرقية الأدبي.

كما اقتضى منهج البحث أيضاً جعله في قسمين اشتمل كل منهما على عدة فصول، وقد تضمن القسم الأول بيان موقع وحدود الدولة العيونية، وألقى شيئاً من الضوء على المسيرة التاريخية لهذه البلاد منذ العصر الجاهلي إلى قيام الدولة العيونية، بالقدر الذي يقتضيه بيان البعد الزمني لموضوع هذا الكتاب، وذلك بذكر لُمَع مما تناولته بتفصيل أكثر في عدة إصدارات سابقة ككتاب «تاريخ هجر» وكتاب «الحركة الفكرية واتجاهاتها في شرق الجزيرة العربية وعُمان».

أما القسم الثاني من هذا الكتاب فقد عالجت فيه الانتفاضات التي مهدت لقيام الدولة العيونية على يد مؤسسها عبدالله بن علي العيوني ونجاحه في توحيد أجزائها، والأحوال السياسية في عهده وفي عهد من جاء بعده، كما ركزت على عرض أوضاع البلاد وما اعتراها من أحوال المد والجزر منذ عام ٥٣٨هـ إلى أن أفل نجم الدولة العيونية في عام ٦٣٦هـ.

وقد عُني الكتاب بالكشف عن مكانة الدولة العيونية ودورها في القضاء على القرامطة ومحو آثارهم، ورصد أهم الأحداث السياسية خلال حكم العيونيين وصراعاتهم، وما مرت به دولتهم من أطوار القوة والضعف.

وقد استلهمت المادة التاريخية لهذه الدولة من عدة أبحاث ودراسات إلى جانب ديوان ابن المقرب وشروحه، وأخص منها بالذكر ديوان ابن المقرب الصادر في الطبعة الثانية بتاريخ ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م عن مكتبة التعاون الثقافي، ومصورة نسخة مخطوطة من ديوان الشاعر الأمير علي بن المقرب العيوني خاصة بمؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، وهي مخطوطة نادرة لشرح ديوان الشاعر المذكور مودعة أصولها في المكتبة الرضوية بمدينة مشهد في إيران تحت الرقم ٤٨٢٣، واسم ناسخها «محمد بن علي بن محمد النجار الحساوي»، تاريخ النسخ ٣ من ربيع الأول سنة ٩٦٣هـ، وقد ورد في هذه المخطوطة من المعلومات المفيدة ما لم يرد في ما اطّلعنا عليه من النسخ الأخرى للديوان، كما أنها الأكثر ضبطاً ودقة للأسماء والأحداث وإن لم تسلم تماماً من الخلط والتضارب والزيادة والنقص والتصحيف الذي يعود أكثره في ما أرى لأخطاء النُسّاخ.

من هذا المنطلق اعتبرت هذه النسخة المصدر الأهم للمعلومات الخاصة بالعيونيين وإليها أشير في هوامش الكتاب بمخطوطة الديوان، وقد ذيلت كل فصل بما يخصه من الهوامش، ولا أدّعي أنني بهذا الجهد قد وضعت دراسة وافية عن تاريخ هذه الدولة، لأن المتاح من المصادر والأدوات لا يساعد على إخراج مثل تلك الدراسة، وأقصى ما أرجوه أن يقترب هذا الكتاب من الغرض الذي أُعَد من أجله، فإن حظي بذلك فإن الفضل بعد الله يعود لصاحب هذه الجائزة الذي أبت يده الحانية إلاّ أن تمتد إلى شاعر الحماسة والطموح «علي بن المقرب»، فتنصفه من أهله ومن الدنيا ومن الزمان.

فالله نسأل أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه وأن يجعله زيادة في ميزان حسنات من دعا إلى تأليفه، وأن يثيبه على ما يبذل في وجوه الخير المتنوعة خير الثواب.

والحمد لله رب العالمين،،،

عبدالرحمن بن عثمان الملا

في تاريخ ١٤٢٢/٩/١٥هـ

الموافق ٢٠٠١/١١/٢٠م

****

القســـم الأول

ملامـح الحياة الحضارية ومقوماتها

الفصل الأول
الأحوال الطبيعية والتشكيل السكاني

أ ـ الموقــع:

تشغل الدولة العيونية الجزء الشرقي من شبه الجزيرة العربية وهو ما كان يعرف تاريخياً «بهجر» أو «البحرين» ثم «الأحساء»، وقد أطلقت هذه الأسماء على الأراضي الواقعة شرقي الجزيرة العربية على الشاطئ الغربي للخليج والجزر المقابلة له من «البصرة» شمالاً إلى «عُمان» جنوباً، ومن «الدهناء» غرباً إلى الخليج شرقاً .

ولم يكن البلدانيون والجغرافيون على اتفاق في تحديد مدلول الاسم الواحد، ففي حين يتسع مدلول «هجر» و«البحرين» ليشمل الإقليم كله عند باحث كما هو الحال عند «ياقوت»[1]و«أبي الفداء»[2] و«الدمشقي»[3] نجد الاسم نفسه يضيق فيختص بجزء من الإقليم أو مدينة منه، كما هو الحال عند «ابن رستة»[4] وأمثاله، حيث يجعلون كلاً من هجر والبحرين مدينة قائمة بذاتها، ولعل الأصل في كل من هذين الاسمين كان كذلك، وأن ازدهار إحدى المدينتين وتعاظم أهميتها سياسياً أو اقتصادياً، جعل اسمها في وقت ازدهارها يطلق على الإقليم كله ويصبح علماً عليه .

ومن هنا أطلقت المصادر على الإقليم اسم «هجر» باعتبار مدينة «هجر» حاضرة الإقليم وأهم مدينة فيه، وكذلك الحال بالنسبة إلى «البحرين» .

ويبدو أن التنافس على هذه الأسماء ظل جارياً بين مناطق هذه البلاد حتى تقاسمت هذه الأسماء في ما بينها، فاختصت المدن الداخلية منها باسم «هجر» ثم «الأحساء»، واقتصر الخط على «القطيف» والمدن الساحلية، كما استأثرت جزيرة «أوال» باسم البحرين .

وهذا الإقليم بحدوده المذكورة يمثل الحدود الجغرافية والبشرية والاقتصادية للدولة العيونية، ولو أن مجال نفوذها قد تعدى هذه الحدود كثيراً أثناء حكم الأقوياء من أمرائها من أمثال «محمد بن أبي الحسين أحمد»، الذي وصل نفوذه من «نزواء» إلى «حلب»، يقول ابن المقرب بهذا الصدد:

واحـــــمـــــدُ ابنُه الملكُ الذي منعتْ

مـــــا بين نزوى ســـــراياه إلى حلبِ[٥]

وإذا كان هذا النفوذ لم يصل إلى حد الحكم المباشر فإن في شعر ابن المقرب ما يشير إلى وجود شيء منه، حيث كان يُجبى له الخراج من هذه الجهات يقول ابن المقرب:

واتتْ إليـــه بالخــــراج مطيـــــعـةً

خـــوفـــاً من الغـــارات أهلُ عُـــمـانِ

ويبدو أن هذا الخراج قد جاء بعد تسوية صلح واسترضاء لكثرة ما كان يشن عليهم من حروب، يقول ابن المقرب:

وإن سلمتْ نفسُ الأمـــيـــرِ مـــحـــمـــدٍ

شكتْ من ســـراياه عُـــمـــانُ وعَـــمَّـــانُ

وســـارت إلى أرض الشـــامِ جـــيـــوشُـــهُ

ولم يمتنع منهـــا زَبيـــدُ ونَجـــران[٦]

ويقول:

حـــمى البـــرَّ من حـــدِّ العـــراقِ فـــحـــازهُ

إلى الشـــام واســـتـولى على حـــدِّ ناعبِ[٧]

فهذه الأبيات توضح بجلاء أن هذه المناطق تمثل للدولة العيونية في أيام الأمير «محمد بن أحمد» مجال نفوذ اقتصادي وعسكري، وربما تمتعت الدولة العيونية في مناطق أخرى ببعض النفوذ السياسي كما هو الحال في عهد «الفضل بن محمد»، الذي منحه الخليفة شيئاً من الوجاهة السياسية في الأطراف المحاذية لبلاده من فارس والعراق، يقول ابن المقرب بهذا الصدد[٨]:

وقـــــضى إليــــــه أن حكمـكَ نـافـذٌ
مـــــاضٍ بأكناف العـــراقِ وتُسْـتَـــرِ

(انظر خريطة بلاد البحرين في عهد الدولة العيونية الملحقة بآخر الكتاب).

ب. الأحوال الطبيعية

السطح والتضاريس:[9]

يتشكل سطح هذا الإقليم من سهول ساحلية على طول الشاطئ الذي تشكل السبخات المالحة أكثر أجزائه، وهو سهل منخفض لا يزيد ارتفاعه عن سطح البحر أكثر من مائتي متر في الغالب، وسهول وسطى أكثر اتساعاً وهي تنحدر من الغرب إلى الشرق.

الصحارى:[10]

وتشمل الكثبان الرملية الصفراء التي يبلغ ارتفاعها أحياناً عشرات الأمتار، وتتخذ أشكالها غالباً شكل حذوة الفرس[11]، وهي غير مستقرة فيسبب تحركها بفعل الرياح والعواصف للسكان كثيراً من المتاعب، حين يضطرهم زحف الرمال إلى التحول عن مواضعهم إلى مواضع أخرى[12] .

ومن أهم تلك الصحارى صحراء هضبة «الصمان» وقد سُمّيت بهذا الاسم لصلابة أرضها وتمتد من خط عرض ٢٧ شمالاً حتى واحة «يبرين» في الجنوب بطول ٣٨٠ كم، وعرض من الشرق إلى الغرب يتراوح بين ٨٠ و٢٢٥ كم .

و«الصمان» أرض واسعة بها حزوم مرتفعة وسهول وأودية، وبها مراعٍ جيدة وخبارٍ تجتمع فيها مياه الأمطار .

و«الصمان» بصفة عامة منطقة جافة خالية من الماء سوى ما يتجمع في الخباري من المطر في مواسمه .

الجبال:

في «الأحساء» جبال كثيرة منبثة في طول البلاد وعرضها وتتخذ شكل تلال منعزلة .

السواحل والجزر[١٣]:

تبلغ سواحل هذه البلاد في امتدادها من «البصرة» شمالاً إلى «عُمان» جنوباً مئات الكيلات، ويتكون معظمها من شواطئ رملية متعرجة تكثر فيها الشعاب المرجانية، ويتخللها عدة أغوار وخلجان يصلح أكثرها لاستقبال السفن منها خليج «جراء»، وهو خليج واسع تقع في مدخله جزر البحرين وبه مرفأ «العُقير»[١٤] وهو قليل العمق تكثر فيه الصخور والشعاب المرجانية، ثم يليه خليج «كيبوس» المحاذي لمدينة القطيف وفيه تقع جزيرتا «تاروت» و«دارين» وهو غير صالح لرسو السفن الكبيرة، ثم بعده من الشمال يقع خليج «المسلمية» قرب «الجبيل» وهو مسدود من ناحية البحر بجزيرة «أبوعلي»، وفي وسطه تقع جزيرة «جنة» وعلى مقربة منه تقع جزيرة «المسلمية»، وفي الشمال أيضاً يقع خليج صغير بين «منيفة» و«رأس التناقيب». ويشذ عن امتداد الساحل رؤوس من أهمها:

١ - شبه جزيرة قطر: وهي عبارة عن لسان كبير من اليابسة يتوغل داخل الخليج العربي بطول ١٣٥ كم تقريباً وبعرض ٦٥ كم .

٢ - رأس تنورة: ويقع في الطرف الشمالي من خليج «كيبوس»، ويتوغل داخل البحر إلى مسافة تمكن السفن التجارية الكبيرة من الرسو على مقربة منه .

٣ - رأس السفّانية .

٤ - رأس مشعاب .

٥ - رأس الزور عند حدود الكويت .

وهناك رؤوس تقع في الكويت نفسها وهي: «رأس عجوزة» وتقوم عليه مدينة الكويت، ورأس الأرض، ورأس القليعة في الجنوب، وتتناثر أمام هذه السواحل عدة جزر من أهمها مجموعة الجزر التي تتكون منها مملكة البحرين، وتقع في الخليج الكائن بين شبه جزيرة قطر وسواحل الأحساء، وأكبرها جزيرة البحرين ويبلغ طولها ٥٠ كم ويتراوح

عرضها بين ١٣و١٦ كم، وفي الشمال الشرقي منها تقع جزيرة «المحرّق» وبالقرب منها جزيرة «سترة» وجزيرة «النبي صالح» وجزيرة «أم النعسان» الواقعة إلى الغرب من جزيرة البحرين، وهناك أرخبيل جزر «حوّار» التي يبلغ عددها إحدى عشرة جزيرة[١٥] .

المناخ:

تقع هذه البلاد ضمن النطاق الصحراوي القاري ورغم امتدادها الطويل على سواحل الخليج فإن أثره على مناخها ضئيل جداً، ويتميز مناخها شبه المداري بعدة خصائص منها:

ارتفاع درجة الحرارة بصورة عامة وبخاصة في المناطق الساحلية، فيكون معدل متوسط درجة الحرارة العظمى في فصل الصيف ٤٢ درجة، أما الدنيا فلا تنخفض إلى أقل من ٢٩ درجة، أما في فصل الشتاء فتبلغ درجة الحرارة العظمى ٢١,٥ درجة والصغرى ٩,٥ درجات، ويلاحظ في بعض الأحيان أن درجة الحرارة تتذبذب بين هبوط وارتفاع بمقدار خمس درجات في بضع ساعات خلال اليوم الواحد .

أما الرطوبة[١٦]فإنها تكون مرتفعة في فصل الصيف، وتكون نسبة الرطوبة في المناطق الداخلية أقل منها في المناطق الساحلية وذلك بتأثير قربها من الخليج، والأمطار قليلة بصورة عامة حيث يبلغ معدلها في المتوسط أقل من ٢٥٠ ملميتراً، ويهطل أكثرها في فصل الشتاء.

المياه[١٧]:

نظراً لقلة الأمطار وندرة سقوطها على هذه الأراضي، فإن العيون والآبار الجوفية تمثل المصدر الوحيد للمياه، ورغم وجود هذه المياه في معظم أراضي الإقليم إلا أن القدر الأعظم منها يتركز في واحتي «الأحساء والقطيف» وجزر البحرين، ففي هذه المناطق توجد المياه العذبة بين الصخور الرسوبية الكلسية، ولأن هذه الرواسب آخذة في الميل نحو الشرق فإن المياه الجوفية تتحرك في هذا الاتجاه من خلال الشقوق الموجودة بين الصخور فتتخذ شكل أنهار مغمورة تحت سطح الأرض، وحين تسمح لها

الظروف الطبيعية أو الحفريات بالظهور على وجه اليابسة، فإنها تندفع بفعل الضغط الشديد وتجري على وجه الأرض في صورة أنهار نسبية تختلف مقادير كميات مياهها من مكان إلى آخر .

ومن هذه العيون ما هو جارٍ على سطح الأرض ومنها ما يستخرج ماؤه بالدلاء أو الآلات، وتنتشر بكثرة في واحات البلاد كواحة الأحساء وواحة القطيف وواحة الجوف وواحة وادي المياه وواحة الخن وواحة عقلة وواحة يبرين وجزر البحرين، ومن أشهرها في الأحساء وفي القطيف عين الجوهرية، والخدود، والحقل، وأم سبعة، وفي البحرين «عين عذاري» وفي القطيف «عين داورش»[١٨] .

ج ـ السكان والهجرات:

تشير نتائج الأبحاث الأثرية إلى أن شرقي الجزيرة العربية والأراضي الأخرى المطلة على الخليج، كانت من أقدم الأراضي التي عرفتها حياة الاستيطان البشري منذ أقدم العصور، وأنها كانت مأهولة بالسكان منذ خمسين ألف سنة .

حركة الاستيطان والبناء السكاني:

يبدأ التاريخ المدون لهذه المنطقة على حد قول السير «ويلسون»[١٩] منذ نحو سبعة آلاف سنة، عندما زحف على إيران وشواطئ الخليج جنس طويل الرأس يرجح أنه من آسيا الوسطى، ويتضح من مخلفات هذا الجنس المتراكمة كالخزف والأسلحة أن ثقافة هؤلاء المادية تعد أقدم ما رسب في هذه الأراضي من الثقافات، ويعتقد الباحثون أن شجرة النخيل، وهي مما اشتهرت بزراعته هذه الأراضي، من أهم العوامل التي ساعدت على استيطانها منذ العصور السحيقة، فقد كانت من شبه المؤكد أعظم عامل فردي في حياة الإنسان الأول في تلك الفترة .

ويرجح العلماء أن شرقي الجزيرة العربية وجنوبها الشرقي كان الموطن الأول للجنس السامي كالآراميين والفينيقيين والكلدانيين والآشوريين، وقد أشار قدماء المؤرخين إلى أن «يبرين» الواقعة جنوبي مدينة الأحساء كانت ضمن مواطن أبناء «سام ابن نوح»[٢٠] وقد سكنتها بعض البطون من عاد، كما أن الكشوف الأثرية قد أيدت

الاستيطان المبكر في ذلك الموضع، علاوة على وجود الآثار والشواهد التاريخية التي تدل على أن أقواماً من عاد وإرم قد استوطنت مواطن في بلاد البحرين، منها على سبيل المثال «ثاج» فقد وجدت هناك ركيّة نسبت إلى « لقمان بن عاد»، وقد أشار أحد الشعراء إلى قصر له بثاج استخدم في بنائه حجارة كانت «إرم» قد استعملتها في بناء لها هناك، فهو يقول:

بنيتُ بثاج[21] مجدلاً من حجارةٍ
لأجعلَه عزّاً على رغم من رَغَمْ
أشمُّ طوالاً يصخب الطيرُ دونَهُ
له جندلٌ ممّا أعدَّتْ له إرَم

كما سكن هذه الأراضي أيضاً من قبائل «طسم» و«جديس» المنتسبة إلى إرم: بنو هف وبنو زريق وبنو مطر على حد ما جاء في كتاب القرون الخالية لابن جرير .

ويذكر الألوسي[22] أن المريخات من قبائل قطر المتنقلة يعودون بأصولهم إلى «طسم وجديس»، ومن آثار هؤلاء حصن المشقّر بهجر، كما ذكرت المصادر من بين سكان البحرين الساميين قوماً عرفوا «بالكنعانيين»، ومنهم العمالقة أولاد «عمليق بن لاود ابن سام بن نوح»، ومن هؤلاء تنحدر قبيلة «جاسم» التي سكنت كلاً من البحرين وعمان، وإلى الكنعانيين هؤلاء ينتسب «الفينيقيون»[23] الذين اتخذوا من جزر الخليج وسواحله الغربية سكناً لهم، وذلك قبل نزوحهم إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط .

وكما كانت هذه الأراضي الموطن الأول «للفينيقيين»، فقد كانت موطناً لشعوب أخرى «كالسومريين» و«الكلدانيين» ومنها هاجروا إلى بلاد الرافدين .

ويذكر الدكتور «جواد علي» أن هناك من يزعم أن السومريين قدموا إلى العراق من البحرين ، وكانت البحرين تعرف في النصوص السومرية باسم «دلمون»، وكانت محطة مهمة ينزل فيها الناس في هجراتهم نحو الشمال. ويسود الاعتقاد اليوم بين علماء التاريخ القديم أن «الكلدانيين» الذين استوطنوا الأقسام الجنوبية من العراق، إنما جاءوا إلى تلك الأراضي من شرق الجزيرة العربية الواقعة على الساحل الغربي من الخليج، وذلك في أواخر الألف الثاني قبل الميلاد ثم زحفوا نحو الشمال حتى وصلوا

إلى «بابل»، وقد ذكر «استرابون» أن «الجرهاء»[٢٤] كانت موضعاً للكلدانيين، وأن البحرين كانت في حوالي سنة ١٧٥٠ ق.م في يد قبيلة اسمها «آجارم»[٢٥] وهم أهل مدينة هجر .

وحين عرف اليونانيون السبيل إلى شواطئ الخليج، أخذت تظهر على شواطئه عدة سلالات من أمم مختلفة يتألف معظم أفرادها من بقايا جيوش الإسكندر ومن جاء بعده من ملوك اليونان والرومان، حيث أنشأت جيوشهم عدداً من المحطات على امتداد شواطئ الخليج وذلك لتزويد أساطيل السفن بما تحتاج إليه من المؤن والمياه، وبمرور الأيام تحولت تلك المحطات إلى مرافق تجارية ومستوطنات لتلك الجماعات، وعندما زال نفوذ الرومان بزوال الدولة السلوقية[٢٦] من الأراضي العراقية، ضعفت تبعاً لذلك تلك المرافق وتضاءل نشاطها، فغادرها بعض سكانها من الروم وانصهر من بقي منهم في بوتقة عموم السكان المحليين[٢٧] .

وقد سجل «استرابون وبطليموس» أسماء عدد من تلك المستوطنات والقبائل التي تقطنها، ونظراً لموقع شرقي الجزيرة في ملتقى طرق التجارة وما تتميز به من نشاط اقتصادي، فقد استقطبت العديد من الجاليات من مختلف الأجناس، فكانت تشكل جزءاً من السكان المستقرين ومنهم تتألف الفئات العاملة في مختلف المجالات الاقتصادية كالقطاع الزراعي والصناعي والتجاري، كما ترجع إلى أكثرهم ملكية معظم الأراضي الزراعية وذلك قبل أن تتغلب عليهم العناصر العربية فتصهرهم في بوتقتها ومن تلك الجاليات:

(١) « النبط »: وهم جيل من العجم، سموا بذلك لكثرة النبيط عندهم وهو الماء، ويرى المسعودي أنهم من سلالة «النبيط بن ماش بن عيلام بن سام بن نوح»[٢٨] ولعل هؤلاء ممن ظلت لهم بقايا في البلاد حتى العصر الحاضر، فقد عرفوا بنشاطهم في مجال الفلاحة والزراعة .

(٢) «السبابجة»: ويقال عنهم «السيابجة» .

(٣) «الزط » : وهم جيل من الهند على ما يروي الأزهري عن الليثي، واختلف فيهم فقيل هم السبابجة. وقال القاضي «عياض» هم جنس من السودان طوال، ويرى «عبدالرحمن عبدالكريم النجم»[٢٩] أن «الزط» سلالة هندية الأصل .

(٤) «الجرامقة»: ويتألف معظم أفرادها من النبط والعجم .

(٥) «الفرس»: ويشكلون أهم هذه الجاليات لما كانوا يتمتعون به من نفوذ سياسي ومكانة اجتماعية متميزة، فقد ربطتهم بالعرب صلات التعاون والتناحر على السواء، ومن أبرز رجالها في البحرين عند ظهور الإسلام «فيروز بن جشيش»[٣٠] الملقب «بالمكعبر» و«المرزبان آسيابخت بن عبدالله»[٣١] وقد دخل الأخير الإسلام. وكان لكل من الجاليات السالفة الذكر عادات وتقاليد ومعتقدات ظلوا يتعصبون لها ويحافظون عليها إلى ما بعد ظهور الإسلام.

وكان بعض هؤلاء يتمتعون بالثراء والجاه والمراتب العالية والنفوذ لذا لم يتقبل أكثرهم الدخول في الإسلام حين دُعوا إليه وآثروا دفع الجزية[٣٢]، على النقيض من عرب البحرين الذين هدتهم سلامة فطرتهم وبساطة حياتهم وثقافتهم إلى سرعة الاستجابة للدعوة الإسلامية والانضواء تحت رايتها . وحين هبت زوبعة الارتداد عن الإسلام سارعت تلك الجاليات غير العربية إلى الانخراط في ركاب المرتدين بقيادة «الحطم بن ضبيعة» زعيم بكر بن وائل، وخاضت معه القتال ضد قبيلة عبدالقيس التي ثبتت على إسلامها بتوجيه من زعيمها «الجارود بن المعلى العبدي»، وحين انهارت آمال المرتدين في إطفاء جذوة الإسلام وخسروا رصيدهم الاجتماعي وامتيازاتهم السياسية، رحل أكثرهم عن هذه البلاد، ومنذ ذلك الحين صارت الغلبة في بلاد البحرين للعناصر العربية المؤلفة من قبيلة عبد القيس وبعض القبائل الأخرى «كبني تميم» و«بكر بن وائل» و«قضاعة وإياد والأزد» وغيرهم، حيث نزحت إلى هذه الجهات عشائر كبيرة منهم بعد أن تركوا «تهامة واليمن» في إثر انهيار «سد مأرب» وبسبب الحروب وسنوات القحط .

وقد تحققت لهذه القبائل عوامل السيطرة على الحياة في هذه البلاد من جوانبها السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية كافة، فانغمست في الحياة المدنية وبذلك اتخذ المجتمع الحضري في مدن بلاد البحرين وقراها شكلاً جديداً، حيث صارت البطون والأفخاذ المنحدرة من القبائل العربية السالفة الذكر تشكل اللبنات الأساسية للبناء السكاني بها .

وقد لعبت هذه القبائل أدواراً مهمة في صنع التاريخ بهذه البلاد، وإن لم تكن على مستوى واحد في التأثير والاستمرار، فقد غابت «بكر بن وائل» عن المسرح بعد حروب الردة، كما اختفى دور «قضاعة» قبل ذلك .

أما «تميم» فقد أخذ ذكرها في التلاشي والانكماش منذ أواخر القرن الثالث الهجري، وظلت «الأزد» تواصل دورها العسكري والسياسي حتى ظهور الدولة العيونية في منتصف القرن الخامس الهجري، حيث شاركت في الحرب مع القرامطة ضد الأمير «عبدالله بن علي العيوني» الذي ألحق بهم الهزائم، فأجلى من تبقى منهم إلى عُمان، ومن بين من تم طرده قبيلتا «حميّ بن عيمان» و«حَدّان» يقول ابن المقرب:

لكنهم اثبتوا أساسها ونفَوْا
عنها حَميّ بن عَيْمانٍ وحَدّانا[٣٣]

من هنا يمكن القول أن قبيلة عبدالقيس كانت الأكثر تأثيراً واستمراراً في صنع التاريخ السياسي لهذه البلاد وتسيير دفة الحياة بها، وقد تمثل أوج قوتها وتأثيرها في تأسيس الدولة العيونية التي حكمت البلاد مائة وثمانية وستين عاماً تقريباً وهي الفترة من ٤٦٨هـ إلى ٦٣٦ هـ، ومن المعلوم أن العيونيين هؤلاء ينحدرون من هذه القبيلة، وهذا ما يدفعنا إلى تسليط شيء من الضوء على «عبدالقيس» منذ قدومها إلى هذه البلاد وحتى قيام الدولة العيونية[٣٤] .

قبيلة عبدالقيس:

تعتبر قبيلة عبدالقيس من أبرز قبائل «ربيعة بن نزار» وقد انتشرت منازل ربيعة في كل من «تهامة ونجد»، وقد ذكر النسّابون أن لعبدالقيس ولدين هما «أفصى واللبؤ»، وسنقتصر على ذكر سلالة «أفصى»، فمن هذه السلالة تفرعت العشائر والبطون التي استوطنت شرقي الجزيرة وإليها ينتمي العيونيون .

نسب عبدالقيس:

ولد «أفصى» لكيزاً، فولد «لكيز» صباحاً ونكرة بطناً، ووديعة بطناً، وولد «وديعة» عمراً وغنماً بطناً، ودهناً بطناً، فولد «عمرو بن وديعة» أنماراً وعجلاً والديل بطناً، والحارث بطناً، ومحارباً بطناً.

بنو أنمار بن عمرو بن وديعة:

ولد «أنمار» مالكاً وثعلبة بطناً، وعائذة بطناً، وسعداً بطناً، وعوفاً والحارث، فولد «الحارث» ثعلبة بطناً، وعمر بن الحارث وعامر بطناً، فولد «عامر» عوفاً ومرة وربيعة وهماماً ونعماناً وعطية ومالكاً، فولد «مالك» ربيعة والوارث، وهو عامر وهداج وعبدالله وسعد وعياذاً وسليمة، وولد «عوف بن أنمار» بكراً، وولد «بكر» عوفاً، وولد «عوف» عمراً وربيعة، ووائلة، ومرة، وجذيمة، فولد «جذيمة بن عوف» ثعلبة، والحارث، وسعداً، وعوفاً، وعامراً، وكعباً، ومعاوية، وصعباً، فولد «الحارث بن جذيمة» عدياً بطناً، ومرة، وعمر، وعامراً، وسعداً ، فولد «عدي» قيساً ومالكاً والمنعم ولوذان، وولد «ثعلبة بن جذيمة» حُبياً وسلاّغاً ومعاوية، فولد «معاوية» حارثة ومعشراً وقريعاً وأسحم وعبد شمس وعمراً وحيياً، وولد«عوف بن جذيمة» مالكاً وجشعماً، وولد «عوف» عمراً، وولد «عمرو بن عوف» عوفاً وجبلاً بطناً وربيعة وربيعاً بطناً، وولد «عوف بن عمرو» عصراً بطناً.

بنو «عجل بن عمرو بن وديعة»:

ولد «عجل بن عمرو بن وديعة» ذهلاً وكاهلاً، فولد «ذهل» ظالماً، فولد «ظالم» حداداً وعمراً وغالباً، فولد «حداد» ليثاً بطناً وثعلبة بطناً، فولد «ليث» عساساً وعامراً بطناً، فولد «عساس» حدرجان وعدياً وأسوى وحيياً وعبد يغوث وحضرمياً.

بنو «محارب بن عمرو بن وديعة»:

ولد «محارب بن عمرو» حطمة وظفراً وامرأ القيس ومالكاً .

بنو «الديل بن عمرو بن وديعة»:

ولد «الديل بن عمرو» ظفراً وعوفاً وعوتقاً .

بنو «غنم بن وديعة بن لكيز»:

ولد «غنم بن وديعة» عوفاً وعمراً، فولد «عوف» الحارث ورفاعة وجابراً، فولد «الحارث» عوفاً وأسعد وثعلبة، فولد «عوف» مازناً وعبّاداً وعوفاً وعمراً وسحيماً، وولد «عمرو بن غنم» الديل ومازناً .

بنو نكرة بن لكيز بن أفصى بن عبدالقيس:

وولد «نكرة بن لكيز» صبرة وشقرة وعجلاً وظفراً وشزناً ومنبهاً .

بنو شن بن أفصى بن عبدالقيس:

وولد «شن بن أفصى» أزيزاً وعدياً والديل، وولد «الديل» سعداً وجذيمة وحبيباً وعمراً وهزيزاً[٣٥]وصبرة، فولد «صبرة» الجعيد فولد «الجعيد» عمراً وقد لقب بالأفكل.

هؤلاء هم أهم فروع عبدالقيس وبطونها كما جاء في كتب الإخباريين من أمثال «ابن الكلبي وابن حزم والعُتبي» .

النسبة إلى قبيلة عبدالقيس:

جاءت النسبة إلى قبيلة عبدالقيس على أربع صيغ هي: عبقسي[٣٦]، وقيسي، وعبدي، وعبد، والأولى هي الأشهر والأكثر دقة وسلامة من اللبس، فإذا قيل عن شخص عبقسي فلا ريب في انتمائه إلى قبيلة عبدالقيس دون غيرها، أما إذا قيل قيسي أو عبدي أو عبد فلا بد من التثبت من القبيلة التي ينتسب إليها، كقبيلة «قيس عيلان» و«عبدالدار» من تميم وغيرهم ممن يحمل هذه الأسماء .

وقد أوقعت الصيغ الثلاثة الأخيرة النسّابين في اللبس والخلط عند نسبة عدة شخصيات من ذلك على سبيل المثال «المنذر بن ساوى» فقد أشكلت هذه النسبة على النسّابين فنسبه بعضهم إلى «تميم» ونسبه آخرون إلى «عبدالقيس».

هجرات قبيلة عبدالقيس من تهامة إلى الجزء الشرقي من شبه الجزيرة العربية:

كانت قبيلة «عبدالقيس» تعيش في تهامة إلى جوار أخواتها من قبائل «ربيعة» إلى أن تكاثروا وضاقت بهم تلك الأراضي، فاضطر الكثير منهم إلى الهجرة عنها إلى جهات شتى، ومما ساعد على تلك الهجرة ما حلّ بتلك البلاد من قحط وجدب إلى جانب الحروب التي اشتعل أوارها بين تلك القبائل، وكانت «عبدالقيس» قد تركت منازلها في تهامة واتجهت إلى بلاد البحرين في إثر صراع مسلح جرى بينها وبين

بعض أبناء عمومتها من بني «النمر بن قاسط»، في إثر قيام جماعة من بني «عامر بن الحارث بن أنمار بن وديعة بن لكيز بن أفصى» بقتل سيد ربيعة «عامر الضحيان بن سعد بن الخزرج بن تيم الله بن النمر بن قاسط»[٣٧]، يقول ابن المقرب في مسير عبدالقيس إلى البحرين:

وسارت إلى البحرين منهم عصابةٌ
مصاليتُ غاراتٍ مغاويرُ غُرّانٌ[٣٨]

ولا توفر المصادر تاريخاً محدداً لهذه الهجرة إلا أن حصولها قبل القرن الرابع الميلادي مؤكد، فقد كانت قبيلة عبدالقيس ضمن القبائل العربية التي هاجمت جنوب فارس من أراضي شرق الجزيرة العربية إبّان طفولة الملك الفارسي «سابور الثاني» الملقب «بذي الأكتاف» (حكم بين سنتي ٣٠٩م و٣٧٩م)[٣٩]والتي ذكرها الطبري.

مواطن عشائر عبدالقيس في شرق الجزيرة العربية:

سارت عبدالقيس من تهامة بقيادة «عمرو بن الجعيد بن صبرة» فاختارت الإقامة ببلاد البحرين، وحين وصلتها قامت بهجوم كاسح على من كان بها من العجم والعرب «كإياد وتنوخ» فأجلتهم عنها إلى العراق، حينذاك ربطوا خيولهم بكرانيف النخل فقال كاهن إياد[٤٠]: «عرف النخل أهله»، وفي ذلك يقول «عمرو بن أسوى الليثي» من عبدالقيس بعد ذلك بزمان:

شحطنا إياداً عن وقاعٍ فقلّصتْ
وبكراً نفينا عن حياض المشقَّرِ

وبعد أن استصفت عبدالقيس أراضي البحرين تقاسمتها في ما بينها، فنزلت «جذيمة بن عوف» الخط[٤١] وأفناءها، ونزلت «شن بن أفصى» طرفها وأدناها إلى العراق، ونزلت «نكرة بنو لكيز بن أفصى بن عبدالقيس» وسط القطيف[٤٢] وما حوله، والشفار[٤٣]والظهران[٤٤]إلى الرمل [٤٥]، وبين هجر[٤٦] إلى قطر وبينونة، ونزلت «عامر بنو الحارث» والعمور وهم بنو الديل ومحارب وعجل أبناء عمرو بن وديعة بنو لكيز بن أفصى بن عبدالقيس ومعهم عمارة بنو أسد بن وديعة بنو لكيز بن أفصى بن عبدالقيس

ومعهم عمارة بنو أسد بن ربيعة حلفاء لهم الجوف[٤٧] والعيون[٤٨] والأحساء حذاء طرف الدهناء[٤٩] وخالطوا أهل هجر في دارهم، وقد احتفظت عبدالقيس بهذه المواضع حتى ظهور الإسلام .

وقد ذُكرت مناطق أخرى لعبدالقيس دون أن يُحَدَّد أي العشائر تسكنها منها المشقر والصفا وجواثا[٥٠]وسماهيج ومحلم وقبة وعدد آخر من القرى، وذكرت المصادر أيضاً عدداً من القرى لبني عامر بن الحارث بن أنمار بن عمرو بن وديعة بن لكيز بن أفصى.

وذكر ابن الفقيه أنها أضعاف قرى بني محارب، كما ذُكرت من منازلهم قطر[٥١] وجبلة[٥٢]، وذكرت المصادر لبني محارب عدداً كبيراً من القرى والمدن منها «هجر والعقير»[٥٣] .

أما جذيمة بنو عوف فمن منازلها «البيضاء» وتسمى باسمهم و«أحساء خرشاف» وقرية «آفار» لجماعة من خليد بن جذيمة، و«صلاصل»[٥٤] لبني عامر بن جذيمة، و«أوال»[٥٥] لبني مسمار بن جذيمة .

وقد حدث بعض التبدل في مواطن القبائل بعد الإسلام فقد أصبحت القطيف من منازل جذيمة بن عبدالقيس وكانت رئاستهم في بني مسمار[٥٦]، وشفار لبني عامر بن الحارث بن عبدالقيس، و«صفوا»[٥٧] لبني حفص بن عبدالقيس وكانوا بها عندما دخلها القرامطة في سنة ٢٨٧هـ، والظهران لبني سعد بن تميم وكانوا بها عندما فتحها «أبو سعيد الجنابي» سنة ٢٨٧هـ .

ويُرجع «عبدالرحمن عبدالكريم النجم» سبب هذا التبدل إلى وقوع الحرب بينهم فاضطروا إلى ترك منازلهم الأصلية إلى المناطق الأخرى، وإلى هجراتهم بعد الإسلام إلى البصرة والكوفة والموصل .

ومما تقدم يتضح مدى سيطرة قبائل عبدالقيس على معظم أراضي البحرين الأمر الذي حمل «الأخنس بن شهاب التغلبي» على القول:

لكلّ اناسٍ من مَعَدٌ عمارةٌ
عروضٌ إليها يرجعون وجانبُ
لكيزٌ لها البحران والسيفُ كلُّهُ
وإن ياتها باسٌ من الهند كارب

ومن الثابت تاريخياً أن قبيلة عبدالقيس كانت من أسبق الناس للدخول في الإسلام والانضواء تحت رايته حيث حققوا بذلك منزلة كريمة، عبّر عنها الرسول صلى الله عليه وسلم لأصحابه حين وفدت عبدالقيس إليه بقوله: «يا معشر الأنصار أكرموا إخوانكم فإنهم أشباهكم في الإسلام أشبه شيء بكم أشعاراً وأبشاراً أسلموا طائعين غير مكرهين ولا موتورين إذ أبى قوم أن يسلموا حتى قتلوا»[٥٨]، وقد تغنى ابن المقرب بهذه القبيلة في شعره فمن ذلك قوله:

وأصبحتْ آلُ عبدالقيسِ قد ثلجتْ
صدورُها فترى الموتورَ مُبتسِما[٥٩]

ويقول:

أرجالُ عبدالقيسِ كم أدعوكمُ
في كلّ حينٍ للعُلى وأوانِ[٦٠]

وفي بني محارب الذي ينتمي إليهم العيونيون يقول:

وإن صاح داعي حيِّها في مُحارِبٍ
اتتْ تتلظّى للمنايا حِرابُها[٦١]

وكان بنو عبدالقيس قبل أن يصلوا إلى البحرين ويتخذوها وطناً لهم، قد أقاموا بنجد ردحاً من الزمن وكان لهم فيها ملك ورياسة عبر عنها ابن المقرب بقوله:

كانوا جبالاً لنجدٍ تستقرّ بها
عن الزلازل إن ماجت وأركانا
حتى إذا ارتحلوا عن جوِّها اضطربتْ
وبُدلتْ منهمُ خَسْفاً وخذلانا

واصبحت بقُرى البحرين خيلُهمُ
تجرُّ للعزّ اشطاناً وارسانا[٦٢]

نسب الأسرة العيونية ومكانتها من عبدالقيس:

تعتبر الأسرة العيونية من أبرز بيوتات عبدالقيس في بلاد البحرين، وتضرب جذورها في بني عيذ بن مرة بن عامر بن الحارث بن أنمار بن عمرو بن وديعة بن لكيز بن أفصى بن عبدالقيس، وبنو عيذ هؤلاء هم بنو عائذة الذين ذكر الكلبي[٦٣] في جمهرة النسب بأنهم أحد بطني مرة بن عامر بن الحارث المار ذكرهم، والأسرة العيونية من آل إبراهيم المعروفين في هذه القبيلة وهذا واضح في ما عبر عنه الشاعر علي بن المقرب وهو يتحدث عن أصول أسرته ونسبها، وفي ما ورد عن سلاسل أنساب الأعلام من هذه الأسرة من أمثال رأس الدولة العيونية الأمير «عبدالله بن علي» وحفيده «أبي سنان محمد بن الفضل بن عبدالله» وغيرهما، ومن ذلك قول ابن المقرب في النسبة إلى عبدالقيس:

لَعاينَ دوني عصبةً عبدليّةً
تَسامى فُرادى للعلا ومَقانبا[٦٤]

ثم إلى «لكيز بن أفصى بن عبدالقيس»:

به افتخرتْ هنبٌ وطالت بمجدهِ
لكيزٌ وعزّتْ عبدُ قيسٍ ووائلُ[٦٥]

وفي نسب أسرته إلى آل إبراهيم بن عبدالقيس قال:

ومن آل إبراهيمَ كلُّ مُذَنَّبٍ
عن المجد يحتلّ الذرى والغواربا[٦٦]

ويقول وهو ينوه عن الأمير «عبدالله بن علي» ورهطه من بني إبراهيم مشيراً إلى نسبهم في بني مرة:

وما زال في أبناء مُرّةَ سيّدٌ
به في جسيمات الأمورِ ائتمامُها[٦٧]

وفي انتماء الأسرة إلى بني عيذ يقول:

ومن نسل عـيــذٍ فــتــيــةٌ أيُّ فــتــيــةٍ
يَجلّ الـمُـعـادي باسُـهـا فـيـهـابُهـا[٦٨]

وقد جاء في شرح هذا البيت في مخطوطة الديوان ما نصه: «يعني بني عيذ بن مرة بن عامر وفي مرة البيت من بني عامر وفي عيذ العدد من بني مرة» .

وقد ورد ذكر بني عيذ هؤلاء على لسان الشاعر القطيفي «الحسين بن ثابت العبدي» في قصيدة خاطب بها عشائر عبدالقيس يستعطفهم فيها ويلتمس منهم السعي في إخراجه من السجن لدى الأمير العيوني «أبي سنان محمد بن الفضل» [٦٩]

وقد نص الأصبهاني في سياق حديثه عن الأمير «أبي سنان» على أنه «أبو سنان محمد بن الفضل بن عبدالله بن علي العبدي» ثم المرّي[٧٠] .

ومما سلف يمكن الجزم بأن العيونيين من آل إبراهيم من بني عيذ بن مرة بن عامر من قبيلة عبدالقيس واستبعاد كل ما عدا ذلك من الأقوال، إذ من الخطأ الظاهر ما جاء في دراسة المديرس نقلاً عن أحد الباحثين المعاصرين من القول، برجحان انتماء العيونيين إلى ثعلب بن مرة بن عامر اعتماداً على ما ورد في مؤلفات القلقشندي عن نسب بني عامر [٧١] .

بنو عقيل:

من أهم القبائل التي استوطنت البحرين وارتبطت مع العيونيين بصلات التناحر والتصاهر «بنو عقيل»، فقد كانوا من أكثر القبائل انتشاراً في أراضي كل من البحرين والعراق وهم ينتسبون إلى «عقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة» من العدنانيين، وأشهر بطون بني عقيل هم بنو عبادة وبنو المنتفق وبنو خفاجة وبنو عامر .

وقد استقرت هذه البطون في أراضي البحرين والعراق[٧٢] بعد نزوحها من «نجد» في أواخر القرن الثالث الهجري وأوائل القرن الرابع الهجري، وقد تواكب ظهور

«عقيل» في البحرين مع بداية ظهور حركة القرامطة فيها عندما تحالفوا معها، وقد أشار إلى ذلك «ابن الأثير»[٧٣] في حوالي سنة ٢٨٦هـ الموافق سنة ٨٩٩ م .

وكثيراً ما يطلق اسم «بني عقيل» على بطن أو أكثر من هذه البطون، الأمر الذي يثير بعض الإشكال لدى الباحثين في التمييز بين الفرع والأصل، ويرجع ذلك على ما يظهر لتجاورهما في المسكن[٧٤]، ويعتبر«بنو عامر» أهم القبائل العربية في البحرين بعد قبيلة «عبدالقيس» من حيث القوة ووفرة العدد وسعة الانتشار، والاستئثار بالسيطرة السياسية والاقتصادية في البلاد خلال فترة طويلة من تاريخها .

أما«حمد الجاسر»[٧٥] فيرى أن بني عامر في الأصل من بني عبدالقيس، غير أن إقامة بطون من «بني عامر بن صعصعة» في هذه النواحي واتفاق اسم القبيلتين سبّب اختلاطهما، فتكوّن من ذلك بروز بطن من مختلف تلك القبائل وعرفت باسم «بني عامر» ثم «ببني خالد» في عصور متأخرة منذ القرن الحادي عشر الهجري إلى منتصف القرن الثالث عشر الهجري .

ولعل التقارب في الأصل والموطن هو الذي حمل البعض على إطلاق اسم أحد البطون على الأخرى، أو استعمال اسم جامع لكافة هذه الفروع في هذا الامتداد الجغرافي والقبلي المتصل .

ومن أشهر بطون بني عامر في البحرين «الشبانات» المنسوبين إلى زعيمهم «شبانة»، و«القديمات» المنسوبين إلى زعيمهم «قديمة»، و«الغفيلات» المنتسبين إلى زعيمهم «غفيلة»[٧٦]، وبنو شريك، ومرة، وخالد، وقيس، وبنو مالك، وبنو الحارث، وبنو الليث، وبالعديد من بيوتات هذه القبائل تغنى ابن المقرب في شعره، من ذلك قوله:

ومن ذا يُسامي مُرةً وبها سمتْ
بنو عامرٍ عزاً وجاز اغتشامُها

وكم سيّدٍ في مالكٍ ذا(*) نباهةٍ
إذا فقدتْه الحربُ طال أيامُها

وما مالكٌ إلا الحماةُ وإنْ ابتْ
رجالٌ فبالآناف منها رَغامُها

وفي حـــارثٍ واللّبْـــؤِ(**) غُـــرٌ غطارفٌ
يُبِـرُّ على الخـصم الألدّ خـصـامـهـا[٧٧]

وقد شغلت مضارب عشائر عامر مناطق واسعة من بوادي البحرين، فقد قال «الشريف الإدريسي» في القرن السادس الهجري: ويتصل بالقطيف من ناحية البصرة بر متصل لا عمارة فيه أي ليس فيه حصن ولا مدينة، إنما به أخصاص لقوم عرب يسمون «عامر ربيعة»، فهذا الوصف يعكس بوضوح المدى الواسع لانتشار بني عامر في أراضي البحرين، بحيث أصبحوا يشكلون الجزء الأعظم من سكانها والقوى القادرة على النهوض بالأعباء السياسية فيها، وبخاصة في القرنين السادس والسابع الهجريين .

وهناك إلى جانب عبدالقيس وبني عامر بعض عشائر من «خندف» وأخرى «قحطانية» أشار إلى وجودهم ابن المقرب بقوله:

ومن كـــان منا من جـــمـــاهيـــر خِندفٍ
وقـــيسٍ فـــاترابُ الوغى ونِدامُـــهـــا
ومـــا في بني قـــحطـانَ إن شُنَّتِ الوغى
توانٍ ولا ينضـــو لدينا حـــســـامـــهـــا[٧٨]

ومن الواضح أن قطاعات كبيرة من هذه العشائر قد هجرت حياة البداوة واستقرت في المدن والقرى بالبحرين إلى جانب العناصر المتحضرة ممن أشرنا إليهم سلفاً، فأسهمت معهم في صياغة الحياة الحضرية من خلال المشاركة في ألوان النشاط الاجتماعي والاقتصادي والسياسي كافة، في حين فضلت قطاعات أخرى من تلك القبائل الإقامة في الصحراء والاحتفاظ بما لها من الخصائص العشائرية معتمدة على الرعي والتنقل في حياتها المعاشية مع مواشيها».

****

الهوامش

(١) ياقوت: ياقوت بن عبدالله الحموي، معجم البلدان، دار بيروت للطباعة والنشر، ج ١، ص ٥٠٦، ٥٠٧ .

(٢) أبو الفداء: عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر، تقويم البلدان، دار الطباعة السلطانية، ص ٩٩ .

(٣) الدمشقي: شمس الدين الدمشقي محمد بن أبي طالب الأنصاري، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، ص١٢٠ .

(٤) ابن رستة: أبوعلي أحمد بن عمر، الأعلاق النفيسة، بريل، ليدن ص ٩٦ .

(٥) عبدالفتاح محمد الحلو: ديوان ابن المقرب، مكتبة التعاون الثقافي، الطبعة الثانية، ص ٧٩ .

(٦) عبدالفتاح الحلو: ديوان ابن المقرب، ص ٥٩١ .

(٧) ناعب: قبيلة بعُمان تسكن جبلاً يعرف بجبل النعب، مخطوطة ديوان ابن المقرب، ص ٤٦ .

(٨) عبدالفتاح الحلو: ديوان ابن المقرب، ص٢٢٣ .

(٩) عبد الرحمن بن عثمان الملا: تاريخ هجر، السطح والتضاريس، مكتبة التعاون الثقافي، ط ١، ج ١، ص ١٤ .

(١٠) محمود شاكر: البحرين، المكتب الإسلامي، بيروت، ط ١، ص ١٢ .

(١١) الملا: تاريخ هجر، ج ١، ص ١٤ .

(١٢) عبدالرحمن عبدالكريم النجم: البحرين في صدر الإسلام، دار الحرية للطباعة، مطبعة الجمهورية، بغداد، ص ١٨ .

(١٣) الملا: تاريخ هجر، ج ١، ض ١٦ .

(١٤) محمد سعيد المسلم: ساحل الذهب الأسود، مكتبة الحياة، بيروت، ط ٢، ص ٢٠ .

(١٥) محمود شاكر: البحرين، ص ١٦٤ .

(١٦) محمود شاكر: البحرين، ص ١٦٩ .

(١٧) الملا: تاريخ هجر، ج ١، ص ١٨ .

(١٨) محمد سعيد المسلم: ساحل الذهب الأسود، ط ٢، ص ٢٠٩ .

(١٩) السير أرنولد ويلسون: تاريخ الخليج، ص٦٣ .

(٢٠) د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين، ج ١، ص٣٠٥ .
(٢١) حمد الجاسر: المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية - المنطقة الشرقية «البحرين قديماً»، منشورات دار اليمامة، ق ١، ص ٣٠٧ .
(٢٢) الألوسي: تاريخ نجد، مخطوط، ص ٩٢ .
(٢٣) محمد سعيد المسلم: ساحل الذهب الأسود، مكتبة الحياة، بيروت، ص ٦٦ .
(٢٤) محمد بن عبدالله بن عبدالمحسن آل عبدالقادر: تحفة المستفيد، مكتبة المعارف، الرياض، ج ١، ص ٥٥ .
(٢٥) د.جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ١، ص ٥٤٥ .
(٢٦) د.جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ١، ص ١٩ .
(٢٧) الملا: تاريخ هجر، ج ١، ص ٣٠ .
(٢٨) أبو الحسن بن علي بن الحسين بن علي المسعودي: مروج الذهب، ج ٢، ص ٢٥-٢٦ .
(٢٩) عبدالرحمن عبدالكريم النجم: البحرين في صدر الإسلام، مرجع سابق، ص٤٥ .
(٣٠) عبدالرحمن عبدالكريم النجم: المرجع السابق نفسه، ص ١١٨ .
(٣١) المرجع السابق نفسه: ص ١١٨ .
(٣٢) المرجع السابق نفسه: ص ١٠٢ .
(٣٣) مخطوطة ديوان الشاعر الأمير علي بن المقرب العيوني، الناسخ: محمد بن علي بن محمد ابن علي بن داود النجار الحساوي، تاريخ الفراغ من النسخ: ١٣ من ربيع الأول سنة ٩٦٣هـ، لخزانة الفقيه إبراهيم بن حسن بن زهير، خاص بمؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، أصل المخطوطة في المكتبة الرضوية بمدينة مشهد في إيران قسم الأدب، ص ٥٥٦، وستكون الإشارة إليها في الصفحات التالية بمخطوطة الديوان .
(٣٤) عبدالله بن مسلم بن قتيبة: المعارف، تحقيق: ثروت عكاشة، دار المعارف، مصر، ط ٢ .
(٣٥) عبدالرحيم بن يوسف آل الشيخ مبارك: قبيلة عبدالقيس منذ ظهور الإسلام حتى نهاية العصر الأموي، ط ١، نادي المنطقة الشرقية الأدبي، سنة ١٤١٥هـ، سنة ١٩٩٥م، ص١٣ .
(٣٦) ابوسعيد عبدالكريم بن محمد السمعاني: الأنساب، تحقيق: محمد عوانة، مطبعة محمد هاشم الكتبي، بيروت، ج ١، ص ٧ .
(٣٧) سُمّي بالضحيان: لأنه كان يجلس لقومه ضحى للفصل في خصوماتهم لكونه سيدهم وصاحب مرياعهم، العتبي: سلمة بن مسلم الصحاري، الأنساب، عُمان، وزارة التراث القومي والثقافة، ج ١، ص ١٥٢ .

(٣٨) عبدالفتاح الحلو: ديوان ابن المقرب، ص٥٩٠ .

(٣٩) سُمّي بذي الأكتاف: لأنه كان ينزع أكتاف الرجال، ابن الأثير: عزالدين بن الحسن علي ابن محمد، الكامل في التاريخ، ج ١، ص ٣٠٢ .

(٤٠) مخطوطة ديوان ابن المقرب العيوني: للناسخ: محمد بن علي النجار الحساوي، لخزانة: الفقيه إبراهيم بن حسن بن زهير، خاص: بمؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري .

(٤١) الخط : الساحل الممتد من عُمان إلى البصرة، البكري: عبدالله بن عبدالعزيز البكري، معجم ما استعجم، عالم الكتب، بيروت، ج ١، ص ٨١ .

(٤٢) مدينة كبرى بالبحرين: الحسن بن أحمد الهمداني: صفة جزيرة العرب، منشورات دار اليمامة، ص ٢٧٩ .

(٤٣) الشفار: جزيرة بين أوال وقطر، فيها قرى كثيرة وهي من المدن التابعة لهجر وتعد من المدن الدارسة وربما غمرتها مياه الخليج، الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٣٥٣ .

(٤٤) الظهران قرية بالبحرين، وهي الآن من المدن الهامة والمتطورة بالمنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية، الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٦٣ .

(٤٥) الرمل: قال ياقوت: الرملة واحدها رمل، وهي قرية لبني عامر من بني عبدالقيس بالبحرين، معجم البلدان، ج ٣، ص ٦٩ – وتوجد حالياً قرية في شرق واحة الأحساء تعرف باسم الرميلة لعلها البقية الباقية من الرمل .

(٤٦) هجر: مدينة بالبحرين وهي قاعدتها ومدينتها العظمى، ناحية البحرين كلها يطلق عليها هجر، الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ١٣٤٠ .

(٤٧) الجوف: وتعني المكان المطمئن من الأرض، وهو مكان معروف في الجهة الشمالية من الأحساء وبها مراعٍ طيبة، الحموي: ج٢، ص١٨٧ .

(٤٨) العيون: موضع قديم بالبحرين، الحموي: ج ٤، ص ١٨١ .

(٤٩) الدهناء: صحراء غرب الأحساء، البكري: معجم ما استعجم، ج ١، ص ٨١ .

(٥٠) جواثا: مدينة بالبحرين لعبدالقيس، وهي أول موضع جمعت فيه الجمعة بعد مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ١٧٤ . ولا تزال جواثا معروفة في واحة الأحساء وبها بقايا من مسجد عبدالقيس .

(٥١) قطر: قرية بالبحرين على سيف الخط بين عُمان والعقير وإليها تنسب الثياب القطرية، الحموي: ج ٤، ص ٣٧٣ . والمراد شبه جزيرة قطر التي تقوم عليها دولة قطر في العصر الحاضر .

(٥٢) جبلة: قرية لبني عامر بن عبدالقيس بالبحرين، الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص ١٠٦ .

(٥٣) العقير: ساحل وقرية دون القطيف، الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص ٢٧٩ . ولا يزال الموضع معروفاً وكان أهم الموانئ في الأحساء إلى زمن قريب .

(٥٤) صلاصل: ماء معروف بمنطقة الجوف شمال الأحساء، الحموي: ج٣، ص ٤١٩ .

(٥٥) أوال: قرية بالبحرين وقيل جزيرة، وسميت بأوال نسبة إلى صنم كان لبكر بن وائل وتغلب تشاركهم فيه عبدالقيس، البكري: ج ١، ص ٢٠٨ .

(٥٦) بنو مسمار: أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي، التنبيه والإشراف ص ٣٥٦، ٣٥٧ .

(٥٧) صفوا: التنبيه والإشراف، المرجع السابق .

(٥٨) أحمد بن حنبل: مسند أحمد بن حنبل، ج٣، ص ٤٣٢ .

(٥٩) مخطوطة الديوان: علي بن المقرب العيوني، ص ٤٨١ .

(٦٠) مخطوطة الديوان: علي بن المقرب العيوني، ص ٥٨٥ .

(٦١) مخطوطة الديوان: علي بن المقرب العيوني، ص ٣٦ .

(٦٢) مخطوطة الديوان: علي بن المقرب العيوني، ص ٥٥٥ .

(٦٣) مجلة الوثيقة: عدد٣٥، رمضان سنة ١٤١٩هـ، يناير سنة ١٩٩٩م، السنة الثامنة عشرة.

(٦٤) عبدالفتاح الحلو: ديوان الشاعر علي بن المقرب: ص٣٠ .

(٦٥) مخطوطة ديوان الشاعر علي بن المقرب: ص ٣٢٠ .

(٦٦) مخطوطة ديوان الشاعر علي بن المقرب: ص ٣٠ .

(٦٧) مخطوطة ديوان ابن المقرب: ص ٤٠٨ .

(٦٨) مخطوطة ديوان ابن المقرب: ص ٣٦ .

(٦٩) مجلة الوثيقة: عدد٣٥، رمضان سنة ١٤١٩هـ، يناير سنة ١٩٩٩م، السنة الثامنة عشرة.

(٧٠) المديرس: مخطوطة ماجستير في التاريخ الإسلامي بعنوان إقليم البحرين في العصر العباسي ، كلية الآداب، قسم التاريخ، جامعة الملك سعود ، ص ٧٤ .

(٧١) المرجع السابق .

(٧٢) د.عبداللطيف الحميدان: مجلة العرب، عدد رجب وشعبان سنة ١٤٠٠هـ .

(٧٣) ابن الأثير: عزالدين أبو الحسن علي بن محمد، الكامل في التاريخ، دار الكتب العلمية، بيروت .

(٧٤) د.عبداللطيف الحميدان: مجلة العرب، عدد رجب وشعبان سنة ١٤٠٠هـ .

(٧٥) حمد الجاسر: المعجم الجغرافي للمنطقة الشرقية، ج ١، ص ٥٧ .

(٧٦) حمد بن لعبون: تاريخ ابن لعبون، مخطوط، ص ١٨ .

(*) في ديوان ابن المقرب، تحقيق د. عبدالفتاح الحلو: (ذي) انظر: صفحة ٤٦٢.

(**) في ديوان ابن المقرب، تحقيق د. عبدالفتاح الحلو: (والليث) انظر: صفحة ٤٦٢.

(٧٧) مخطوطة ديوان ابن المقرب: ص ٤٠٨ .

(٧٨) عبدالفتاح الحلو: الديوان، ص ٤٦٣ .

****

الفصــل الثاني

مراكز الاستيطان الحضري

المراكز الحضرية:

وكما تقاسمت البطون والأفخاذ البدوية من القبائل السالفة الذكر مواضع المياه والمراعي من براري هذه البلاد وباديتها، فقد استقرت القطاعات المتحضرة منها في مناطق ثلاث هي: واحة الأحساء، وواحة القطيف، وجزر أوال، فقد أنشأوا فيها المدن والقرى والأرياف، فأصبحت بما تمتلك من المنشآت العمرانية وقواعد التنمية الاقتصادية والتقاليد الاجتماعية والحياة الثقافية، من أهم المراكز الحضارية في الجزيرة العربية .

ولأن المقام لا يتسع للإسهاب في إبراز ملامح الصورة عن هذه المراكز، فسنكتفي بذكر ما لا غناء عنه في إبراز معالم البُعد الحضاري لهذا التاريخ .

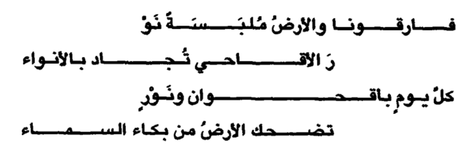
أ- الأحساء :

أصل الأحساء ومدلوله:

الأحساء بفتح الألف وإسكان الحاء المهملة وفتح السين المهملة بعدها الف ممدودة اسم كان يطلق إلى خمسين سنة خلت على ما يعرف الآن بالمنطقة الشرقية، وهي الأراضي الواقعة بين الخطين ٥١ و٤٥ شرقي جرينيتش والخطين ٣٠ و٢٣ شمالي خط الاستواء[١]، والأحساء لغة كما جاء في معجم البلدان «لياقوت»[٢]: «الأحساء» بالفتح والمد جمع «حِسْي بكسر الحاء وسكون السين، قال «الحسن بن مطيرة الأسدي»[٣] :

أين جـــيـــرانُنا على الأحـــســـاءِ

أين جــــيــــراننــا عـلـى الأطـواءِ ؟


فــــــارقـــــونــــا والأرضُ مُلبَـــــسَـــةٌ نَوْ
رَ الأقـــــــاحـــي تُـجـــــــاد بـالأنـــواء
كلُّ يـــومٍ بـاقـــحــــــــــــــوان ونَــوْرٍ
تضـــــحك الأرضُ من بكـاء الســــمـــــاء

و«الحَساء» بفتح الحاء والسين المهملتين بعدها ألف ممدودة لغة في الأحساء، قال علي بن المقرب :

ياحــــبَّـــذا وادي الحَـــســـاء فــــإنّـــهُ
لـو ســـــاعـني وادٍ إلــيَّ مُــــحــــبَّبُ[٤]

ومدلول الأحساء اللغوي والطبوغرافي على ما يصف العلماء من أمثال: «أبي منصور الأزهري»، و«المبرد»، و«الهمداني»، و«ياقوت»، اسم يطلق على كل أرض صخرية صلبة تغطيها طبقة رملية تحتفظ بمياه الأمطار زمناً طويلا، إذا بحث عنه طالبه وجده ماءً بارداً عذباً صالحاً للشرب .

وقد صار الأحساء علماً على مواضع متعددة في جزيرة العرب أهمها وأشهرها أحساء «هجر»، التي أطلقت عليها المصادر أحساء «بني سعد» كما عُرفت فيما بعد بأحساء القرامطة. ويظهر أن الأحساء هذه كانت تغطي مساحة واسعة من هذه البلاد، ومن هنا يمكن القول إن السبب في إطلاق اسم الأحساء على الموضع السالف الذكر يعود للعلاقة بين مدلول الاسم لغوياً، والطبيعة الطبوغرافية لتلك المواضع.

وإذا كان الأمر كذلك فإن أجزاءً كثيرة من أراضي شرقي الجزيرة يمكن اعتبارها أحساءً لانطباق معنى الاسم عليها، الأمر الذي يحملني على الاعتقاد بأن اسم الأحساء كان علماً على عموم الإقليم أو على جزء كبير من أراضيه، ومن هنا يمكن القول إن إطلاق اسم الأحساء على إقليم البحرين لا يرتبط باسم المدينة التي عمرها القرامطة واتخذوها حاضرة لملكهم، والتي أومأ بعض المؤرخين إلى أن الإقليم استمد اسمه منها لشهرتها في ذلك العهد. واسم الأحساء قديم أشارت إليه النصوص الآشورية بلفظ

«حازو»[٥] و«خازو» على اعتبار أنه قسم من الأراضي الواقعة على الساحل الشرقي لجزيرة العرب، فقد ورد نص للملك الآشوري «أسرحدون» أنه قام في سنة ٦٧٦ق.م. بالزحف على القبائل العربية التي تقطن أرض «بازو وحازو»: وهما من أراضي البحرين على رأي الباحثين المحدثين[٦].

ويرى بعض الباحثين أن «بازو» تعني الأرض الواقعة على ساحل الخليج، وأن خازو «حازو» هي الأحساء، وينبه الدكتور «جواد علي» إلى ما يراه من تقارب كبير بين «حازو» والأحساء، لذا نرى أن هذا الاسم يشمل الإقليم كله قبل بروز عاصمة القرامطة على خريطة العمران .

تأسيس مدينة الأحساء :

ينسب المؤرخون كـ«ناصر خسرو» تأسيس الأحساء إلى «أبي طاهر سليمان بن الحسن بن أبي سعيد الجنابي القرمطي» سنة ٣١٤هـ، غير أن المصادر تحدثنا بأن الموضع الذي أنشأت عليه هذه المدينة في نظر عدد من المؤرخين والبلدانيين العرب، كان يعرف بأحساء «بني سعد» من أولاد «زيد مناة من تميم»، حيث كانت منازلهم تشغل مواضع كثيرة من أراضي هجر بدءًا من «يبرين» جنوباً حتى أحساء هجر، وقد كانت الأحساء هذه مقر إقامة رئيسهم وعاملهم «إبراهيم بن موسى» وأخلاط من هذه العشيرة[٧]، لذلك عرفت بإضافتها إليهم ولم تزل على هذا الحال حتى ظهر «أبو سعيد الحسن بن بهرام الجنابي القرمطي» في ساحة الصراع، وشرع في حصار مدينة هجر من بداية العقد التاسع من القرن الثالث الهجري، فأسّس بعض الدور له ولخاصته بالأحساء، فكان أول من قطنها من القرامطة، وهذا واضح في ما ذكره المقريزي[٨] .

وبناءً على ذلك فإن نسبة بناء مدينة الأحساء إلى «أبي طاهر القرمطي» سنة ٣١٤هـ على حد زعم من نسبها إليه لا تعني كونه المؤسس، بل نسبتها إلى «أبي طاهر» لكونه الذي عمّرها وحصّنها وأحاطها بالأسوار وأطلق عليها اسم «المؤمنية»، غير أن هذا الاسم لم يكتب له الاستمرار فقد ظل اسم الأحساء مستعملاً ولكن بإضافته إلى القرامطة بعد أن تجرد من نسبته إلى «بني سعد».

موقعها :

تقع مدينة الأحساء القديمة كما تشير الآثار في الشمال الشرقي من مدينة «الهفوف» في موقع الحقول الكائنة جنوب شرقي «المبرّز»، فهي تشمل كامل قرية «البطالية» وما حولها من بساتين النخيل، وفي غياب معلومات رسمية توضح حدود قرية البطالية [٩] فإن الباحثين وفي مقدمتهم فهد بن علي الحسين، يتخذون من المعالم الطبيعية المرتبطة بالقرية والمساحات الزراعية التي ترويها عين الجوهرية المعروفة هناك إطاراً أولياً لحدود القرية في الوقت الراهن. ومن هنا يرى الحسين[١٠] أن أقصى الحدود الشمالية للقرية يتصل ببر «الرفيعة»، أما ناحيتها الجنوبية فمن المتعذر وضع حد تقريبي له بسبب تداخل الأراضي المزروعة وعدم وجود معلم يميزها، وأقصى الحدود الغربية للقرية يحاذي الحافة الشرقية لموقع «بهيتة»، أما حدها الشرقي فيقترب من طرف السهل الغربي لجبل «الشعبة»[١١]، وموقع القرية حالياً يقع قريباً من الطرف الشرقي لواحة الأحساء . وعلى ضوء الدراسة الميدانية التي قام بها الباحث فهد الحسين للمواقع الأثرية التي تنتشر حول موقع مدينة «البطالية» وبداخلها، استطاع حصر البحث عن موقع مدينة الأحساء التاريخية في البقعة المحصورة بين جبل «الشعبة» وبر «الرفيعة» و«الشراع» و«بهيتة» و«السليت»، وعلى ذلك فإن قرية البطالية تمثل جزءاً كبيراً منها[١٢]، فقد سجل المسح الميداني الذي أجراه في المواقع هناك عدداً من المواقع التاريخية والأثرية بالقرية، وهي مواقع ذات صلة بمدينة الأحساء ذكرتها المصادر كمواقع تمثل أجزاء من تخطيط تلك المدينة، ومن أهمها عين «الجوهرية» وقصر «قريمط» و«الرحل» وحقل «الخايس» و«القرحاء» و«الجريعاء». ومن دواعي اعتقاده[١٣] برجحان كون تلك المواقع تمثل أجزاءً من تخطيط مدينة الأحساء توافق ترتيب مواقعها على خريطة الدراسة الميدانية مع سياق الأحداث التاريخية، وهو ما يتوافق تماماً مع ما أثبته المسح الميداني الأثري لتلك المواقع، إذ يقع بستان «الخايس» حالياً إلى الجنوب من موقع «الرحل»، في حين أن «الرحل» يقع ملاصقاً لتل قصر «قريمط»، وهو ما عبرت عنه المصادر (و«الرحل» قريب من دار السلطنة، والمراد بدار السلطنة قصر «القرمطي»).

التخطيط الأولي لمدينة الأحساء في الفترة القرمطية والعيونية:

أ- مدينة الأحساء في الفترة القرمطية:

بنيت مدينة الأحساء على نمط المدن المدورة[١٤]وهي عبارة عن مدينتين إحداهما وسط الأخرى، ولكل منهما سور وأبواب ويحيط بكل منهما أربعة أسوار دفاعية متعاقبة على هيئة حلقات متحدة المركز في شبه دائرة كاملة، في حين تضم أسوارها مدن وريف قرى الأحساء[١٥]، وتقدر المصادر المسافة بين كل سور وآخر من أسوار المدينة الأربعة قرابة فرسخ.

التقسيمات الداخلية لمدينة الأحساء:

تشغل مدينة الأحساء المركزية المعروفة في العهد القرمطي باسم «المؤمنية» وسط مخطط مدينة الأحساء الكبرى، وهي المنطقة المحصورة داخل السور الأول وكانت محل إقامة الأسرة «الجنابية» الحاكمة. وتذكر المصادر أنها قصر عظيم منيف البناء[١٦]. ولأهمية هذه المدينة فقد جرى تحصينها تحصيناً جيداً، حيث أحيطت بسور ضخم يحيط به من الخارج خندق مليء بالمياه وعلى مداخلها أبواب من الحديد. وتذكر المصادر أن «المؤمنية» في العصر الجنابي كانت تضم بداخلها العرش الملكي، وهو عرش كان يجتمع فيه الحكام الجنابيون الستة المعروفون ووزراؤهم، وتصف المصادر هذا العرش بأنه عبارة عن منصة صُفّ عليها ستة كراسي يجلس على كل منها أحد الحكام من ذرية أبي سعيد تقابلها منصة صُفّ عليها ستة تخوت يشغلها وزراؤهم الستة[١٧]، وتحيط بهذه المدينة مدينة الأحساء الكبرى وبها يقيم جمهور الناس وأتباع الجنابيين وجنودهم . وتمتلك هذه المدينة نعيم المدينة المتقدمة من دور وأسواق ومصانع ومستودعات ومرافق عامة وميدانين للعروض العسكرية والتدريب، وتنتشر بين أسوارها مزارع النخيل والحبوب وحدائق الفاكهة والخضراوات، وبها عدة عيون جارية من أهمها: «الجوهرية»، و«الخضيرة»، و«القحيبات»، وسيأتي الحديث عنها لاحقاً، وكانت العناية بالزراعة فائقة والماء ينتفع منه بصورة جيدة[١٨].

ب - مدينة الأحساء في العهد العيوني:

أما في العهد العيوني فإن المدينة على ما يظهر لم تظل على ما كانت عليه من الاتساع وقوة التحصين، رغم أن الأمراء العيونين قد اتخذوا من المدينة المركزية بها مقراً لكرسي حكمهم، منذ الوهلة الأولى التي استولى فيها الأمير عبد الله بن علي العيوني على مقاليد الحكم في البلاد سنة ٤٦٩هـ الموافق ١٠٨٣م، بعد نجاحه في الإطاحة بالقرامطة، وهو ما عبر عنه الشاعر علي بن المقرب بقوله:

وإن تاتِ قصرَ القرمطيِّ تجدْ بهِ
جماجمَ قومي والقرومَ المصاعبا[١٩]

وكانت تنعت آنذاك بدار الملك أو دار السلطنة . ويبدو أن الاهتمام بالحماية والتحصين كان قاصراً على المدينة المركزية فحسب، أما المدينة الكبرى فلم تكن العناية بأسوارها كبيرة فتداعى بعضها أو أزيل، وربما حصل ذلك في أواخر الدولة العيونية أو أن الأمراء العيونيين لم يكن لديهم من المخاوف أو الشعور بالخطر مثلما لدى القرامطة، فأهملوا العناية بتلك الأسوار ولم يظل بها سوى السور الأول المحيط بالمدينة المركزية والسور الداخلي الذي كان يحيط بمدينة الأحساء الكبرى. يمكن فهم ذلك من قول ابن المقرب وهو يدعو للمدينة بالسقيا وهطول الغيث:

وجادَ من الجديد إلى المصلّى
إلى الحصنين وكّافُ الركابِ

وقد قام الباحث فهد الحسين برسم خريطة أولية بها أجزاء من تفاصيل مخطط مدينة الأحساء[٢٠]، مسترشداً بما ورد في المصادر من إشارات إلى تلك المدينة علاوة على ما أجراه في الموقع من مسح ومجسّات.

ومما ذكره بهذا الصدد أن للمدينة أربعة دروب ومداخل كانت تتوزع على سوري المدينة الداخليين الأول والثاني وهي:

١- المدخل والدرب الشمالي: ويقع في الجانب الشمالي من المدينة ويتصل به درب واسع يسمى درب الشمال أو درب «الثليم».

٢- المدخل والدرب الجنوبي: ويقع من ناحية الجنوب للمدينة في المنطقة الواقعة بين بستان «الخايس» و«الرحل».

٣- المدخل والدرب الشرقي: ويقع قريباً من «الجريعاء» (أم الدجاج)، ويؤدي إلى درب «الحنائد» الواقع شرقي مدينة الأحساء.

٤- المدخل والدرب الغربي[٢١]: ويقع غربي مدينة الأحساء ، قريباً من موقع «بهيتة» غربيّ قرية البطالية، وأمام هذا المدخل يقع ما يعرف «بالعطيفة» وهو سور قصير منكسر توضع فيه التمور قبل تخزينها. وكان يقيم على حراستها بالتناوب رجال من المحاربين الأشداء، وقد ورد ذكره في أخبار اليوم المعروف «بيوم العطيفة»، وقد جاء عن هذا اليوم من شرح ديوان ابن المقرب ما ملخصه أن الأمير العيوني أبا القاسم مسعود بن محمد جعل على رهطه من آل إبراهيم في حراسة العطيفة نوبة، وفي إحدى نوباتهم قرر البدو مهاجمة البلد ونهب ما بالعطيفة، وبخاصة لما علموا من عيونهم أن الذي كان في تلك النوبة ثلاثون رجلاً فقط من آل إبراهيم ، وقدموا لهجومهم بنفر قليل في شكل لصوص بقصد إشغال القائمين على الحراسة وصرف انتباههم عما سيحدث، ثم أتبعوا ذلك بشن هجوم شامل تصدى له أولئك الفرسان وتمكنوا من إيقافه حتى وصلت النجدة من البلد وتم طرد البدو[٢٢].

وكانت الدروب السالفة الذكر تخترق ريف مدينة الأحساء الكبرى وما يتخلله من قرى حتى تلتقي عند المدينة المركزية التي تتكون أحياؤها من:

١- الحي الشرقي: ويعتقد الحسين[٢٣] أن قرية البطالية تشغل جزءاً كبيراً منه.

٢- الرحل: ويقع قريباً من أسوار دار السلطنة شرقيّ وجنوب شرقيّ تل قصر «قريمط» حالياً ، ويقوم على جزء منه الآن بعض بيوت حي «الرابية» وشريط زراعي صغير[٢٤]. ويعتبر «الرحل» أعظم وأشرف الأحياء بمدينة الأحساء لاحتوائه على دواوين الدولة العيونية، ففيه مجلس الحكم ومجمع الملوك

والمشايخ وأكابر البلد وتجتمع فيه العساكر وقت الحرب[٢٥]، وبه ديوان الخزائن ودواوين الجند وديوان الإقطاع[٢٦]. وكان يتولى «الرحل» إبان الحكم العيوني أمراء من الأسرة العيونية الحاكمة، ذكرت المصادر عدداً منهم من بينهم: أبو المقرب الحسين بن غرير بن ضبار بن عبدالله العيوني، وابناه مقرب وأبو شكر المبارك، وحواري بن رشيد بن حواري[٢٧] وعلي بن يوسف بن ظبار بن عبدالله بن علي العيوني . وكان أمير «الرحل» يتمتع بصلاحيات واسعة يمكن اعتبارها بمنزلة الحاجب في دواوين الخلفاء والملوك السابقين، أو رئيس مجلس الوزراء في هذا الوقت، فقد كانت ترد إليه جميع أمور السلطنة[٢٨]، وإن له موكباً خاصاً يتقدم السلطان العيوني عند خروجه لمصلى العيد خارج الأحساء، وكان يركب أمام الموكب السلطاني والشتر (المظلة) مرفوع على رأسه والأعلام من حوله وأمامه، وكان يلبس في يديه سِوارَيْ الملك وهما من ذهب في رأس كل منهما درتان ثمينتان [٢٩]. ويصف الشاعر ابن المقرب هذا الموكب بقوله:

إذا ما سار تحت الشترِ[*] انسى
جلالةَ قيصرٍ والهُرْمُزانِ
وفي يده سِوارُ الملكِ يُزهي
بمعصم ماجدٍ سَبْطِ البَنانِ

وهناك ما يشير إلى وجود موقعين يحمل كل منهما اسم الرحل، وأنهما كانا متجاورين تفصل بينهما مساحة مفتوحة.

٣- حي الثليم أو الشمال: ويقع شمال مدينة الأحساء على يمين الداخل إلى المدينة من بابها الشمالي، وبالقرب من هذا الحي يمر الشارع الرئيسي للمدينة أو دربها الأعظم المعروف في المصادر بدرب الثليم أو درب الشمال. وكان يوجد في الحي المذكور مسجد عرف بمسجد الشمال أو الثليم، وفي هذا الحي كانت تقع دور الشاعر علي بن المقرب ومسكنه الخاص[٣٠]، وقد تكرر ذكر هذا الحي على لسان ابن المقرب من ذلك قوله:

فيَمَّمْ لجرعاء الشمالِ فإنَّ لي
بها حِلّةً اشتاقها وملاعبا
وقِفْ وقفةً بالدرب غربيَّ بابها(**)
فثَمَّ تُلاقي اسرتي والأقاربا

ويرى الباحث فهد الحسين[٣١] احتمال قيام هذا الحي على الموقع المعروف ببر الرفيعة أو قريباً منه، وكان هذا الموقع قد درس وعثر به على بعض شواهد استيطان قديم وكسر فخارية، بعضها من نوع الفخار المزجج السلجوقي الذي اقترن تاريخه بالقرنين الخامس والسادس الهجريين، وهو ما يتوافق مع الاستيطان العيوني بالموقع.

الحقول والبساتين:

تذكر المصادر أن مدينة الأحساء كانت تحتضن داخلها عدداً من المزارع وحقول النخيل، وكانت تقع في المساحات القريبة من السور الخارجي، وقد أوردت المصادر العيونية موقعاً أطلقت عليه اسم «مرغم» وآخر عرف باسم «الجو ذي النخل». ويرى الحسين أن «مرغم» كان يشغل المنطقة الواقعة وسط المدينة في امتداد يصل إلى سورها الجنوبي وبه حقل «الخايس»، ويقع إلى الجنوب من قرية البطالية حالياً ولا يزال يحمل الاسم نفسه، وكان يجاوره نهر «البحير»، وقد دارت فيه رحى معركة بين أحد الأمراء العيونيين وبني عامر، قتل خلالها عدد كبير من بني عامر وَبنتنِ جيفهم عرف الموضع باسم «الخايس»، يؤيد ذلك جماجم وعظام تم العثور عليها أثناء حرث هذه المزرعة عام ١٣٩٧هـ الموافق ١٩٧٧م. أما «الجو ذو النخل» فيقع شمال جرعاء الجعلانية وهي المنطقة الزراعية الواقعة أقصى شمال شرقيّ قرية البطالية. وقد عُرف «الجو ذو النخل» باسم «المحرمة» ولا يزال هذا الاسم قائماً حتى العصر الحاضر.

المواقع والمعالم الأثرية ذات الصلة بمدينة الأحساء التاريخية:

يوجد عدد من المواقع والتلال الأثرية والمعالم الشاخصة التي تفيد كثيراً في تحديد موقع مدينة الأحساء ووضع تصور دقيق لما كانت عليه في المراحل المتعاقبة من

تاريخها. وقد استطاع الباحث فهد الحسين أن يقطع شوطاً بعيداً في هذا السبيل من خلال دراسته الميدانية لتلك المواقع والمعالم، وما قام به أثناء ذلك من مسح ومجسات وزيارات ميدانية ولقاءات بالثقات من أهل تلك الجهة والحصول منهم على بعض المعلومات المفيدة، بالإضافة إلى ما ورد في كتب التراث وبخاصة أشعار ابن المقرب وشروحها من إشارات تاريخية، وتوافقها مع ما أسفرت عنه نتائج المسح والتنقيب في استنطاق تاريخ بلادنا الذي لا يزال كامناً في أحشائها.

ولإبراز المزيد من ملامح صورة هذه المدينة في العصر العيوني، أُبرز بإيجاز لمعاً سريعة عن بعض المواقع الأثرية والمعالم التي تطرق إليها في دراسته:

١- عين الجوهرية:

تعتبر عين الجوهرية من أبرز معالم قرية البطالية ، وهي عين غزيرة المياه تقع إلى الغرب من القرية الحالية بالقرب من مدخلها الغربي، وهي قديمة جاء ذكرها على لسان الشاعر ابن المقرب العيوني بقوله:

ومن ماء نهر الجوهرّيةِ لو صفا

ذبابةُ حِسْيٍ لا يُرجَى نبوغُها[٣٢]

ويصفها شارح ديوان ابن المقرب بأنها عين جارية وسط مدينة الأحساء[٣٣]، ونُسبت إلى الرجل الذي هندسها وكان يقال له «جوهر»، ولا تزال معروفة حتى الآن وإن تناقص ماؤها.

٢- تل قصر «قريمط»:

يقع تل قصر قريمط شرقيّ حي «الرابية» الحالي بقرية البطالية، وهو يمتد ليشمل أجزاءً كبيرةً من حي الرابية الجنوبية، كما تشغل مدرسة البطالية الابتدائية الأولى مساحة تقرب من ٢٠٠×٢٢٠ متراً من التل المذكور، ويرتفع التل عن سطح القرية في الوقت الراهن من خمسة إلى ستة أمتار.

٣- عين القحيبات:

وتعـرف الآن عند أهل البطاليـة باسم عين «الجـمـة»، وقـد أشـار إلى هذه الـعين الشيـخ حـمـد الجـاسـر حين زار القـرية في عـامي ١٣٥٨و١٣٥٩هـ أي ١٩٣٩و١٩٤٠م، وأورد رواية عن وجود آثار الحمّام الذي قُتل فيه أبو سعيد الجنابي القرمطي، وأنه لا يزال باقيـاً قـريبـاً من تل قـصـر قـريمط، وأن مـجـرى الماء بذلك الحـمـام مـتصـل بعين القحيبات[٣٤]. وكان ذلك المجرى عبارة عن أنبوب فخاري يبلغ قطر فتحته ١١ سنتيمتراً كما يذكر الحسين، الذي نقل عن بعض أهل القرية قولهم إنه أثناء قيام البلدية بالحفر بالقرب من العين في حـدود عـام ١٤٠٤ إلى ١٤٠٥هـ أي ١٩٨٤ إلى ١٩٨٥ م شـاهدوا أنبوباً فخارياً على عمق ٤ أمتار تقريباً، يمتد من عين «الجمة» ويتجه إلى داخل قصر قريمط ، وقد زار الباحث المذكور العين أثناء الدراسة الميدانية للقرية وذكر أنها تقع على مسافة ٢٥ متراً من الركن الجنوبي الغربي لسور مدرسة البطالية الابتدائية الأولى.

٤ - بئر الخضيرة:

وهي بئر مطوية بالحجارة كشف عنها مصـادفة في حدود سنة ١٤٠٦ هـ الموافق ١٩٨٦م بمزرعـة في البطالية قـريبـة من مـوقع الجـريعـاء، وقد عـثـر أثناء حـفرهـا على مجموعة كبيرة من القطع النقدية النحاسية الصغيرة، نُقش على داخلها بخط ثلث يمين على الوجه عبارة «عز من قنع»، وعلى الظهر عبارة «ضل من طمع».

٥ - القرحاء:

تقع القرحـاء إلى الشرق من قرية البطالية وتعرف الآن «بالفريق الشرقي» أحد أحياء القرية القديمة، وتنتشر في هذا الحي أهم مجموعات البيوت الطينية المتبقية في القرية، وتقع القرحاء على ربوة مرتفعة عن سطح القرية الحالي. وينقل الحسين[٣٥] عن أحد مسني القرية قوله إنه منذ أربعين سنة تقريباً، شاهد فرناً فخارياً مستدير الشكل يتوسطه فرن آخر حُشي الفراغ بينهمـا بالطين الأحمر، وعثر على ذلك الفـرن أثناء تنظيف أحد أنهار القرية القديمة. وقد ورد ذكر القرحاء في شعر ابن المقرب مقترناً بذكر جبل غير معروف وذلك في قوله:

سلْ عنه يومَ المغارت في كتائبها
خيلُ القطيفِ من القرحا إلى الجبلِ[٣٦]

٦ - الجريعاء:

تصغير جرعاء وهي الأرض ذات الرمل، وهي مزرعة نخيل تقع شرقيَّ قرية البطالية. ويروي الحسين[٣٧] عن بعض مسنّي القرية أن مزرعة الجريعاء كانت أرضاً منخفضة عن مستوى القرية الحالي وكانت تزرع أرزاً، كما اطلع على وثيقة قديمة مؤرخة بعام ١٣٠٧هـ الموافق ١٨٨٨م تحوي وصية امرأة ببيع مزرعة الأرز المسماة «بالجريعاء» الكائنة بطرف البطالية[٣٨]. وقد تحدثت شروح ديوان ابن المقرب عن موضع بالقرب من مدينة الأحساء التاريخية عرف باسم «الجريعاء» أو «أم الدجاج»، وقد جرت به موقعة شهيرة بين العيونيين وبني عامر، عرفت «بيوم الجريعاء»، حيث تذكر المصادر أن بني عامر أغاروا على مدينة الأحساء في الجريعاء فتصدى لهم أربعة من أولاد أبي مقرب الحسن بن غرير، وحالوا دون تقدمهم حتى خرجت النجدة من البلد فطردوهم، وفي ذلك يقول ابن المقرب:

منا الثلاثةُ والفردُ الذين لقوا
كتائباً فكان السيلَ حين طمى
يومَ الجريعاءِ ما خافوا ولا جبنوا
بل كلهم يصطلي نيرانها قِدَما[٣٩]

٧- بهيتة:

وهي منطقة رملية بالقرب من البطالية تقع عند الحافة الغربية من مزارع النخيل غربي عين الجوهرية وشرقي الشراع العيوني. وقد نقل الحسين[٤٠] عن بعض أهل قرية البطالية قولهم إنهم شاهدوا بقايا أساسات لمبانٍ قديمة، من بينها أساسات لسوق كبيرة مكونة من صفّ من الدكاكين الصغيرة المتراصة ذات جدران قصيرة مبنية من طوب لبن أحمر اللون. وقد وقف الكاتب المذكور على الموقع التقريبي للسوق بوسط

مزرعة الشيخ يوسف بن راشد المبارك. وذكر بعض من رأى أطلال السوق أنه شاهد أساسات وبقايا جدران طينية لدكاكين صغيرة مداخلها تُفتح إلى الشرق وتمتد من الشمال إلى الجنوب، كما شاهد بعض المكاييل والأوزان القديمة بعضها لا يزال موجوداً لدى بعض أهالي القرية. ويوجد إلى جانب السوق المذكور سوق لصياغة الذهب، وكان بعض الفقراء من العاملين في صياغة الذهب يقصدونه بحثاً عن برادة الذهب الناتجة عن التصنيع(٤١) ، كما يوجد هناك عدد من أفران صناعة الفخار المعروفة محلياً «بالدوقة»(٤٢)، ويضيف الحسين عن بعض المزارعين قولهم إنهم أثناء حفر مزارعهم الواقعة أقصى جنوب غرب «بهيتة» عثروا على جرار فخارية ضخمة مختومة بالطين وعندما كسروها وجدوا بها بقايا عظام آدمية متفحمة. ومما تجدر الإشارة إليه أن موضع بهيتة هذا، قد أدرجه الباحثون ضمن المواقع المرشحة للبحث عن مدينة «الجرهاء» التاريخية التي كانت درة زمانها في الفترة من١٥٠٠ ق.م إلى٥٠٠ ق.م ولم تعد آثار هذا الموضع ظاهرة للعيان الآن، حيث تم حرثه وإدخاله في عدة مزارع هناك، إذ لم يبق منه على ما يذكر الحسين(٤٣) سوى جزء صغير جداً يتمثل في بقعة رملية، مرتفعة عن مستوى المزارع المحيطة بها تشكل تلاً أثرياً ينتشر فوق سطحه كسر من الفخار والزجاج المتأخر وبقايا مخلفات بنائية.

٨- السليت:

وهي مزارع نخيل قديمة ضمن أملاك مالية الدولة تقع إلى الجنوب الغربي من قرية البطالية وذلك ضمن نطاق طرف «الشهيبي» و«الشراع الجنوبي». وفي شروح ديوان ابن المقرب لهذا الموقع إشارات تنص على أنه قريب من سور البلد (الأحساء التاريخية).

٩- المسجد الجامع:

من أهم المعالم الشاخصة بقرية البطالية المسجد الجامع، ويعرف بمسجد «الأميرة» أو المسجد «الفرد»، ويقع بالطرف الجنوبي الغربي من قرية البطالية على بعد ١٢٥ متراً تقريباً إلى الجنوب الغربي من تل قصر «قريمط»، وقد عُرف ذلك الموضع

باسم «الجعلانية». ويظهر المسجد في شكل مربع غير منتظم يبلغ طول ضلعه الشرقي ٣٨,٥ متراً وضلعه الغربي ٢٣,٠٢ متراً أما ضلعاه الشمالي والجنوبي فيبلغ كل منهما ٢٣ متراً و٦٠سنتيمتراً، وتتكون واجهة الأرض من جدران قصيرة باستثناء واجهته الغربية التي يبلغ ارتفاع جزء منها ٤ أمتار، وهو على ما يعتقد ارتفاع جميع الجدران الأصلية للمسجد، وعمارته على ما يصف الحسين[٤٤] شبيهة بعمارة المساجد السلجوقية في فارس والعراق، يبدو ذلك في شكل تخطيط ظلة قبلته وشكل الدعامات والعقود الفارسية المدببة وشكل المحراب وتكوينه المعماري وعناصره الزخرفية، وحيث لا توجد به كتابات تحدد بوضوح اسم مؤسسه وزمن إنشائه ، فقد رجح الباحث المذكور أنه أنشئ في عهد الأمير «عبد الله العيوني» بين سنتي ٤٦٩هـ و٥٢٠هـ على يد ابنته هبة، ونظراً لقربه[٤٥] من دار السلطنة ودواوين الدولة وما تقضي به الضرورة من تأسيس جامع هناك منذ الأيام الأولى من قيام تلك الدولة، أرى وجاهة اقتراح تاريخ إنشائه في الفترة المذكورة. وكما عُرف بإضافته إلى مؤسسه عُرف بإضافته إلى موقعه «الجعلانية»، كما أطلق عليه اسم المسجد «الفرد» لضخامته وجمال عمارته. ومن المعلوم أن العيونيين قد أقبلوا على إعمار المساجد رجالاً ونساءً انطلاقاً من رغبتهم في إحياء الشريعة وإحياء تعاليم الإسلام وخلو البلاد من المساجد، بعد أن تمت إزالتها على أيدي القرامطة، وهوالأمر الذي شجبه ابن المقرب وقال فيه منددأ بالقرامطة:

وما بنَوْا مسجداً لله نعرفهُ
بل كلُّ ما ابصروه قائماً هدِما

وقد ذكرت المصادر أن العيونيين أسسوا داخل مدينة الأحساء وفي أرجائها المختلفة عدداً من المساجد إلى جانب جامع «الأميرة» المار ذكره:

١- مسجد الشمال: ويقع في الموضع المعروف «بالثليل» شمالي مدينة الأحساء.

٢- مسجد الجمل: وقد عرف بهذا الاسم نسبة إلى قيِّمه ومؤذنه وكان يسمى الجمل، ويقع هذا المسجد في «جرعاء المصلى» خارج السور الشمالي لمدينة الأحساء قريباً من مصلى العيد[٤٦].

٣- مسجد مصلى العيد: ويقع ظاهر مدينة الأحساء في «جرعاء المصلى» شمالي مدينة الأحساء، وقد كان من عادة الأمير العيوني أن يخرج إليه عند صلاة العيدين في موكب مهيب بجميع زينته وخيله وينحدر إلى جميع سواد أهل الأحساء(٤٧). وقد توارت هذه المساجد ولم يظل لها أثر في الوقت الحاضر عدا ما مر ذكره من بقايا مسجد «الأميرة».

اضمحلال مدينة الأحساء :

يرى الشيخ «حمد الجاسر» أن شأن هذه المدينة أخذ في الضعف منذ زوال حكم القرامطة واستيلاء العيونيين(٤٨)، حيث كان بعض الحكام الآخرين يستقرون في القطيف حيناً وفي جزر البحرين حيناً آخر .

والذي أراه أن أعراض الضعف لم تظهر على مدينة الأحساء بصورة واضحة إبّان الحكم العيوني أو على الأقل في بداية ذلك الحكم، وإذا كان «ياقوت» قد ذكر بأن القطيف(٤٩) هي قصبة البحرين، فهو يعني دون ريب بأنها كانت كذلك في أيام حكم المتأخرين من أمراء العيونيين، حيث انفرد بعضهم بحكم القطيف وجزيرة أوال، فقد وصف «ياقوت» ذاته الأحساء بكونها مدينة في البحرين معروفة، كما قال إنها إلى عهده مدينة مشهورة عامرة وهو المتوفى سنة ٦٢٦هـ .

ومن هنا يمكن القول إن هذه المدينة أخذت تفقد أهميتها كعاصمة منذ زوال دولة العيونيين، حين أصبح المتغلبون على حكم البلاد من الأعراب الذين يفضلون الإقامة بالقرب من مضارب عشائرهم على الإقامة داخل مدن مسوّرة .

وهذا «أبوالفداء» المتوفى سنة ٧٣٢هـ يصف مدينة الأحساء القديمة بأنها بُليدة غير مُسوّرة، وفي هذا الوصف إشارة واضحة الدلالة إلى أن هذه المدينة لم تعد على ما كانت عليه من الأهمية، فأخذت في التقلص والانكماش حتى أصبحت مجرد قرية في واحة الأحساء تعرف باسم «البطالية»، وقد سميت بهذا الاسم على حد قول الشيخ «محمد آل عبدالقادر» نسبة إلى «مالك بن بطال بن مالك بن إبراهيم العيوني»، كما

كانت تعرف قديماً باسم «البلاد» وتعتبر هذه القرية البقية الباقية من مدينة الأحساء القديمة وتقع على بعد أربعة أكيال من «المبرّز».

ب ـ العيون :

تقع العيون إلى الشمال[٥٠] من واحة الأحساء بحذاء الطريق الرئيسي بين الأحساء والظهران، وقد سميت «العيون» بهذا الاسم لكثرة ما بها من عيون المياه، فقد كان فيها على حد قول شارح ديوان ابن المقرب ما يربو على أربعمائة عين[٥١]، وتعد أراضي العيون من أفضل الأراضي الزراعية وأجودها إنتاجاً، فهي تشغل واحة عامرة بمزارع النخيل وحدائق الفاكهة، وقد استوطنها من قبيل «عبدالقيس» منذ قدومهم إلى هذه الجهات بطون «عامر بن الحارث بن أنمار بن عامر بن وديعة»[٥٢]، والعمور وهم «بنو الديل بن عمرو، ومحارب بن عمرو، وعجل بن عمرو، ووديعة بن لكيز» .

وإلى العيون هذه تنتسب الأسرة العيونية التي حكمت الأحساء في الفترة من سنة ٤٦٧هـ إلى سنة ٦٣٦هـ، فقد كانت مقراً لإقامتهم إلى حين تأسيس دولتهم، حيث تحولوا عنها للإقامة في داخل مدينة الأحساء .

وتضم واحة العيون مدينة تعرف باسمها، كما تعرف أيضاً باسم «المحترقة»، وقد كانت محاطة بخندق عميق لم يعد الآن موجوداً حيث اتسع العمران بالبلدة من جميع الجهات، فأصبحت لما بها من مظاهر التحضر إحدى المدن المعروفة بالمنطقة، ويتبع مدينة العيون عدة قرى عامرة .

ج ـ القطيف :

«القطيف» بفتح القاف وكسر الطاء المهملة بعدها مثناة تحتية ساكنة مأخوذة من القطف وهو القطع للعنب ونحوه[٥٣] .

ويطلق القطيف اسماً على منطقة «الخط» الممتدة من «صفوا» شمالاً حتى «الظهران» جنوباً ويشمل الواحة والقلعة وتوابعها، وهو من أهم مناطق التحضر في شرق الجزيرة العربية، وقد استوطنته بطون من عبدالقيس كـ«بني جذيمة،» كما كان له في عهد الدولة العيونية أهمية خاصة حيث اتخذه بعض أمرائها مقراً لكرسي حكمه .

القلعة :

كانت المدينة الرئيسية في القطيف تعرف باسم «القلعة» لقوة تحصينها، وتقع على ساحل الخليج في واحة من أشجار النخيل وجنان الفاكهة على منتصف الشاطئ الموازي للواحة، وقد تأسست على أنقاض مدينة «الخط» التي أنشأها في هذا الموقع على ما يظهر «أردشير بن بابك» في النصف الأول من القرن الثالث الميلادي. ويذكر «محمد سعيد المسلم»[٥٤] أن القلعة كانت قديماً تسمى باسم «جبرو» وكانت مخزناً للتوابل والعطور الواردة من «جزيرة تاروت»، ثم أخذت المنازل حولها في الظهور في شكل قرية مأهولة بالصيادين، ولم تزل آخذة في النمو حتى أصبحت مدينة من أهم مدن الساحل، ولعل مركز الثقل انتقل إليها إثر زوال مدينة «الزارة» من خريطة العمران سنة ٢٨٣هـ على يد «أبي سعيد الحسن بن بهرام الجنابي».

وكانت القلعة هذه في ما مضى تتخذ شكلاً بيضاوياً وتشتمل على أربعة أحياء، وهي محاطة بسور منيع يبلغ سمكه سبعة أقدام وارتفاعه ثلاثين قدماً تقريباً[٥٥]، وللقلعة أربعة أبواب منها باب في الشرق تجاه «المرفأ» ويسمى «دروازة البحر»، وباب في الغرب يصلها بالواحة ويسمى «دروازة باب الشمال»، وباب في الجنوب عند مدخل السوق ويسمى « دروازة السوق»، وباب في الشمال يصلها بحصن صغير يقع بجانبه من ناحية الشمال .

وقد كان هذا الحصن في ما مضى مقراً لجهاز الحكم، كما كان يحيط بسور القلعة خندق عميق، فقد نقل «أبوالفداء» عن بعض أهل القطيف قولهم إن المدينة كانت محاطة بسور وخندق ولها أربعة أبواب، والبحر إذا مدّ يصل إلى سورها، وإذا جزر انكشف جزء من الأرض، وقد ظل هذا الوصف مطابقاً لحال القطيف إلى خمسين سنة خلت، وقد توارى الخندق أولاً ثم أخذ السور في التداعي إلى أن أزيل تماماً، وكان للقطيف سوق واحدة مستطيلة مسقوفة، تتألف من صفين من الحوانيت التي يبلغ عددها زهاء ثلاثمائة حانوت، ويوجد في القلعة من الآثار التاريخية جامع قديم، وقد هُجر هذا الجامع فتداعى بنيانه ولم يبق منه بصورة سليمة سوى مئذنته العالية .

وكان يكتنف القلعة من ناحيتها الغربية والجنوبية بعض الأحياء الصغيرة، ولم تظل هذه المدينة على ما وصفناه، فقد اتسعت من جميع أطرافها فالتهمت تلك الأحياء الصغيرة والقريبة منها وجزءًا من الأرض الزراعية حولها، وجزءًا من مياه الخليج التي كانت مياهه في ما مضى تلامس أسوار القلعة .

وبالقطيف علاوة على القلعة عدة قرى وجزر من أهمها جزيرة «تاروت» وجزيرة «دارين» ذات الشهرة الفائقة في تجارة العطور .

وقد كان سكان القطيف في ما مضى يعتمدون في معيشتهم على الفلاحة والغوص على اللؤلؤ وصيد الأسماك، إلى جانب الاشتغال بالتجارة مع العراق وعُمان والهند والأقطار الأخرى .

وكانت القطيف قد بلغت أوج ازدهارها إبّان حكم الدولة العيونية، وقد اتخذها بعض الأمراء العيونيين مقراً لكرسي حكمه، وفي الشمال من القلعة تقع دار إمارتهم[٥٦] .

د ـ جزيرة أوال[٥٧]:

تعد هذه الجزيرة أكبر جزر «الأرخبيل»[٥٨]الواقع إزاء الشاطئ الغربي للخليج، وقد اكتسبت بهذا الموقع المتميز في مجال الملاحة والتجارة أهمية خاصة، فعرفت عبر تاريخها الحضاري الطويل بأسماء عدة، فقد كان اسمها في اللغة الأكادية «نيدوكي» وفي اللغة الآشورية «دلون»[٥٩]، كما عرفت عند الفينيقيين باسم «تايلوس»[٦٠]، وعند الرومان «تايروس»[٦١] ، أما في ظل القبائل العربية فقد كان اسمها «أوال» نسبة إلى صنم لقبيلة «بكر بن وائل» التي استوطن هذه الجزيرة بعض أفخاذها، وقد بدأت هذه التسمية على ما يظهر قبيل الإسلام بقليل، فظلت تعرف بهذا الاسم إلى أن استأثرت مع أخواتها من الجزر حولها باسم الإقليم الذي تعتبر جزءًا منه أي «البحرين»، وقد ظل علماً عليها حتى الوقت الحاضر .

ولعل اسم البحرين كان في الأصل اسم لمدينة بهذه الجزيرة، وقد أفضت شهرتها إلى تعميم اسمها على كامل الإقليم، فقد قال «ابن خلدون» : «هجر» إقليم

سُمّي باسم مدينته ويسمى البحرين باسم مدينة أخرى فيه، كما أشار «الإدريسي» إلى وجود مدينة في جزيرة أوال تحمل اسم البحرين .

وفي سبب جعل البحرين علماً على هذه الجهات عدة أقوال لعل أهمها : تدفق المياه العذبة من الينابيع الموجودة حول شواطئها تحت الماء الملح الأجاج في قاع الخليج، مما يذكرنا بقول الحق جل وعلا: (وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كلٍّ تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون)[٦٢] .

مكانتها الحضارية :

تميزت هذه الجزر بالإضافة إلى أهمية موقعها بوفرة المياه وخصوبة التربة[٦٣]، فشهدت الاستيطان البشري المبكر فعمرت بالزراعة والملاحة حتى صارت عاصمة تجارة اللؤلؤ على مر العصور، وفيها من المعطيات الأثرية كالمعابد والمقابر ما يشير إلى عمق جذورها الحضارية، فقد تمتعت إبان الحضارة الدلمونية (ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد) بمكانة خاصة فكان لها في عبادة أصحاب تلك الحضارة صبغة دينية متميزة .

وقد ظلت على مدى الأجيال المتعاقبة آهلة بالسكان فسكنها من عبدالقيس «بنومسمار»، ويذكر ياقوت أن بها عند ظهور الإسلام مدينة كبيرة حسنة وفيها بعض القرى كـ«الجفير» في الشمال الشرقي، وقرية «سترة» التي أشار إليها ابن المقرب في شعره، وفيها من المعالم الإسلامية الجامع ذو المنارتين [٦٤] – المنسوب تأسيسه إلى الخليفة عمر بن عبدالعزيز والذي قام بتجديد عمارته الأمير الفضل بن عبدالله العيوني – والقلعة .

الدور التاريخي لجزيرة أوال :

لعبت جزر البحرين في صنع تاريخ هذه المنطقة أدواراً مهمة، وأول ما نلاحظه دور أوال المتميز في التمهيد لتقويض عرش القرامطة[٦٥] وتصفية وجودهم، فقد كانت

جزيرة أوال أول جزء ينفصل عن ذلك الكيان على يد «أبي البهلول بن الزجاج» وأخيه «أبي الوليد مسلم» وذلك في سنة ٤٥٠هـ.

كما حظيت في عهد الدولة العيونية بعناية خاصة من أمرائها فاتخذها بعضهم حاضرة لإدارة ملكه، وقد ظل التنافس على حكمها شديداً بين حكومات الأقطار المجاورة إلى أن دخلها الشيخ «أحمد بن محمد آل خليفة» الملقب بالفاتح، فحفظ أرومتها وحمى حياضها وأرسى حجر الأساس لبناء كيانها الحالي المتمثل في مملكة البحرين المعاصرة.

****

الهوامش

(١) فهد بن علي الحسين: الآثار الاسلامية بقرية البطالية – المنطقة الشرقية، دراسة في آثارها وعلاقتها بمدينة الأحساء، الطبعة الأولى، الرياض ١٤٢٢هـ، ص ٣١ .

(٢) ياقوت الحموي: معجم البلدان، دار بيروت للطباعة والنشر، ج ١، ص ١١١ .

(٣) علي بن المقرب العيوني: الديوان، تحقيق عبد الفتاح الحلو، الناشر مكتبة التعاون الثقافي، الطبعة الثانية، ص ٨٣ .

(٤) أبو منصور الأزهري: تهذيب اللغة، ج ٥، ص ١٦٩ .

(٥) الدكتو جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، الطبعة الثانية، بيروت، دار العلم للملايين، ج ١، ص ١٦٩ .

(٦) المرجع السابق.

(٧) حمد الجاسر: المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية،المنطقة الشرقية (البحرين قديماً)، القسم الأول، منشورات دار اليمامة، الطبعة الأولى، ص ١٣٠–١٣١ .

(٨) تقي الدين بن أحمد بن علي المقريزي: اتعاظ الحنفاء، ص ٢١٥–٢١٦ .

(٩) فهد الحسين: ص٦٦ .

(١٠) المرجع السابق: ص٦٦ .

(١١) المرجع السابق: ص٦٧ .

(١٢) المرجع السابق: ص٣٥ .

(١٣) المرجع السابق: ص١٦٣ .

(١٤) المرجع السابق: ص١٨٢ .

(١٥) المرجع السابق: ص١٨٣ .

(١٦) ناصر خسرو: سفرنامه، د.يحيى الخشاب، دار الكتاب الجديد، ص١٤٢–١٤٣ .

(١٧) المرجع السابق: ص ١٤٣ .

(١٨) المرجع السابق: ص١٤٤ .

(١٩) ابن المقرب: الديوان، مخطوط برنستون، ص٣٥ .

(٢٠) فهد الحسين: ص ١٨٤ .

(٢١) المرجع السابق: ص ١٨٥ .

(٢٢) ابن المقرب: الديوان، المخطوطة الرضوية، ص٥٠٩-٥١٠ .

(٢٣) فهد الحسين: ص ١٨٨ .

(٢٤) المرجع السابق: ص ١٨٨ .

(٢٥) المرجع السابق: ص ١٨٨ .

(٢٦) المرجع السابق: ص ١٨٨ .

(٢٧) الديوان: المخطوطة الهندية، ص ٤٥٧و٤٥٨و٤٦٦ .

(٢٨) الديوان: مخطوطة برنستون، ص٥٩٩ .

(٢٩) المصدر السابق: من ص ٥٥٥ إلى ٥٥٩ .

(*) في ديوان ابن المقرب، بتحقيق د. الحلو: الستر، انظر: ص ٦٢٩.

(٣٠) الديوان: مخطوطة برلين، ص ١٠٧ .

(**) في مخطوطة المكتبة الرضوية (باهلٍ).

(٣١) فهد الحسين: ص ١٩١ .

(٣٢) الديوان: مخطوطة المتحف البريطاني، ص١٩٣ .

(٣٣) الديوان: مخطوطة برلين، ص ١٨٦ .

(٣٤) حمد الجاسر: المعجم الجغرافي، ق ١، ص ٢٣٠-٢٣١ .

(٣٥) فهد الحسين: ص ٧٦ .

(٣٦) عبدالفتاح الحلو: الديوان، ص ٣٨٣ .

(٣٧) فهد الحسين: ص ٨٢ .

(٣٨) المرجع السابق: ص ٨٢ .

(٣٩) ابن المقرب: الديوان، المخطوطة الرضوية، ص٥٠٨-٥٠٩ .

(٤٠) فهدالحسين: ص ٨٢ .

(٤١) المرجع السابق: ص ٨٢ .

(٤٢) المرجع السابق: ص ٨٣ .

(٤٣) المرجع السابق: ص ٨٣ .

(٤٤) فهد الحسين: ص ١٢٩ .

(٤٥) المرجع السابق: ص ١٥٠ .

(٤٦) ابن المقرب: الديوان، مخطوطة برلين، ص ٦٣١-٦٣٢ .

(٤٧) فهد الحسين: ص ٤٦ .

(٤٨) حمد الجاسر: المعجم الجغرافي للمنطقة الشرقية، ق١ ، ص١٢٩ .

(٤٩) المصدر السابق: ق١، ص ١٢٦ .

(٥٠) المصدرالسابق: ق٢ ، ص١٢٥٠ .

(٥١) مخطوطة ديوان ابن المقرب: ص ٦٠٤ .

(٥٢) حمد الجاسر: المعجم الجغرافي للمنطقة الشرقية، ق٣، ص١٢٤٩ .

(٥٣) شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت الحموي: معجم البلدان، المجلد الرابع، دار بيروت للطباعة والنشر، ص ٣٧٨ .

(٥٤) محمد سعيد المسلم: ساحل الذهب الأسود، دار مكتبة الحياة، بيروت، ط٢، ص٤٤ .

(٥٥) المصدر السابق: ص ٤٤ .

(٥٦) مخطوطة ديوان ابن المقرب: ص ٣٥ .

(٥٧) ياقوت: معجم البلدان، المجلد الأول، بيروت، ص ٢٧٤ .

(٥٨) محمود شاكر: شبه جزيرة العرب «البحرين»،المكتب الاسلامي، ص ١٦٣ .

(٥٩) د جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ج١، ص٥٦٠ .

(٦٠) المصدر السابق: ج ٢، ص ١٩ .

(٦١) المصدر السابق: ج ٢، ص ١٩ .

(٦٢) سورة فاطر: آية١٢ .

(٦٣) ياقوت: المرجع السابق.

(٦٤) مجلة الوثيقة: عدد ٣٥، رمضان سنة ١٤١٩هـ، يناير ١٩٩٩م، السنة الثامنة عشرة.

(٦٥) مخطوطة ديوان الشاعر علي بن المقرب: ص ٤٩١ إلى ص ٤٩٣ .

الفصل الثالث
الأحوال الاقتصادية

أ- الزراعة :

كانت الزراعة في هذه البلاد من أقدم ألوان النشاط الاقتصادي وأهمها[١]، فقد عمل فيها القطاع الأعظم من السكان، ساعدهم على ذلك ما تتميز به أرضهم من وفرة المياه وخصوبة التربة وملاءمتها لزراعة كثير من المحاصيل والثمار، وقد كانت هذه البلاد على مر الأجيال سلة الغذاء لا لأهلها وحدهم، بل لسكان معظم أجزاء شبه الجزيرة العربية .

وتتركز الزراعة في الواحات والجزر وبخاصة واحتا الأحساء[٢]والقطيف[٣] وجزيرة أوال، وتعتمد في ريها على آبار المياه الجوفية، ويستخدم المزارعون في الري نظاما زمنياً يحدد بدقة نصيب كل مزرعة[٤] وفق ما تنص عليه أوراق ملكيتها، ولهم في ذلك أساليب ومصطلحات معلومة، كما مارسوا منذ أمد بعيد زراعة أصناف عدة تشمل الحبوب والفاكهة والخضراوات، إلى جانب التمور التي سار بذكرها المثل السائر في الجودة والتنوع، وقد احتلت زراعة النخيل في هذه الأراضي مركز الصدارة في النشاط الاقتصادي لما ينطوي عليه هذا النوع من المميزات المتعددة التي تكمن في كل جزء من أجزائها .

وتبلغ أنواع التمور المعروفة بضعة وسبعين نوعاً[٥]، من أشهرها «الخُلاص» وكان قديماً يعرف بالبرني والرزيز و«بالتعضود»[٦] والأشهل والطيار والمجناز والصرفان والخنيزي والشيشي والهلالي والتناجيب وغيرها .

ويبدأ موسم إرطاب النخيل منذ أواخر شهر يونيو[٧]، للأصناف: الطيار، والكاسبي، والمجناز، والغرا، ثم يتتابع إرطاب الأصناف الأخرى ويستمر حتى شهر «ديسمبر» كانون الأول، ومن الأصناف التي يتأخر إرطابها: الأشهل، وأم رحيم، والتناجيب، والبرني، والهلالي، حيث يبدأ إرطابها منذ منتصف شهر أغسطس.

أما واحة القطيف وجزيرة أوال فإن من أشهر أنواع التمور[٨] فيهما: الماجي، والبكيرة، والغرا، والخنيزي، والخلاص، والهلالي، وغيرها، ومن التمور ما يقتصر استعماله على الاستهلاك المحلي ومنها ما يصدر إلى خارج البلاد .

وعلاوة على التمور تنتج هذه البلاد محاصيل أخرى منها: الأرز، والحنطة، والشعير، والبصل، والثوم، والسمسم، والقطن، كما تنتج من الفواكه: الرمان، والعنب، والتين، والخوخ، والتفاح، والتوت، والمشمش، واللوز، والبوبي، والبطيخ، والشمام، وفيها من الحمضيات الليمون، والإترنج، وكذلك أنواع الخضراوات والبقول، وإلى جانب ذلك يزرع البرسيم والدخن لعلف الماشية .

وكانت زراعة الأرز قاصرة على واحة الأحساء، وقد عرفت منذ زمن بعيد وفقاً لما ورد من إشارات في الوثائق السومرية .

الملكية الزراعية :

تعود ملكية معظم الأراضي الزراعية في واحتي الأحساء والقطيف وجزيرة أوال لملاك محليين من سكان المدن والقرى وبعض رجال البادية .

وقد درجت الحكومات المتعاقبة على مر العصور في هذه البلاد على امتلاك عدد من حقول النخيل ومزارع الأرز . وقد أشارت المعاهدة المبرمة بين الأمير «الفضل بن محمد» وبين حاكم جزيرة قيس إلى امتلاك الدولة في العهد العيوني لبعض الحقول مثل: بستان المشعري، وبستان القصر، وبستان المصفاة .

ويتيح العمل في القطاع الزراعي فرصاً كثيرة ومتنوعة لعدد كبير من السكان ومن هذه الفرص ما هو ثابت ومستمر طيلة أيام العام، ومنها ما له ارتباط بمواسم زراعية معينة: كموسم تجذيب النخيل، وموسم تأبيرها، وموسم صرام ثمارها، وموسم بذر الحبوب والأرز وحصادها . ولأن بعض هذه الأعمال تتطلب مهارة خاصة وجهداً أكثر فقد تخصصت فئات من العمال الزراعيين في تلك الأعمال، وكانت أجورها أعلى من أجور الفئات الأخرى من العاملين في الزراعة .

أما العمال الثابتون بصورة دائمة في خدمة البساتين والمزارع فهم يعرفون بالشركاء واحده شريك، ويتم التعاون معهم وفق نظامين مختلفين: يتمثل النظام الأول في قيام الشريك بجميع الأعمال التي تتطلبها المزرعة على الدوام والاستمرار، كسقي المزرعة وحراثة أرضها، وله مقابل ذلك عُشر المحصول(٩)، والنظام الثاني هو التقبيل «التضمين» ويتمثل في قيام الشريك بجميع الأعمال التي تتطلبها عمارة المزرعة وتغطية نفقاتها وذلك مقابل عيني معلوم يأخذه المتقبل من محصول المزرعة .

المنتجات الحيوانية :

كما مدت خصوبة التربة ووفرة المياه بهذه البلاد السكان بالمحاصيل الزراعية المختلفة، فقد ساعدتهم على إنتاج وتربية المواشي والدواجن والطيور، وتذكر المصادر أن في الأحساء أحسن الخيل وأحسن الحُمر البيض، وأحسن البقر، وفيها الإبل والغنم، وفيها الحيوانات الوحشية كالغزلان .

وكانت تربية الإبل والخيول والجزء الأكبر من قطعان الأغنام تتم في البادية حيث توجد المراعي الخصبة في وادي المياه في الشمال، ورياض «الصمان» في الغرب، والواحات بناحية الجنوب(١٠) .

وقد اهتم الأمراء العيونيون بالزراعة وتنمية الثروة الحيوانية فكان من أشهرهم عناية بالخيل *«الحسن بن عبدالله العيوني»، وأبو شبيب جعفر بن الفضل العيوني»*(١١) كما كان لهم عناية فائقة بتربية الإبل . ومن المؤشرات الدالة على ذلك قيام الأمير «الفضل بن عبدالله العيوني» بحماية قطاع واسع من المراعي لإبله وإبل المستضعفين من أبناء شعبه في الأراضي الممتدة من «ثاج» إلى «قطر»، وكان يقوم بنفسه بالإشراف على هذا الحمى وتفقد أحواله، كما بلغت عناية أمراء هذه الدولة بحماية الحياة الفطرية والحيوانية وتنميتها حداً يربو على التصور، فها هو الأمير «أبومقدم شكر العيوني» يصدر أوامره في سني الجدب والقحط بحظر الصيد والقنص، ويأمر بأن ينثر للفواخت والطيور في مواطن وقوعها من الطعام ما يناسب كل جنس منها، يقول ابن المقرب في ذلك :

ومُطعِمُ الطيــــرِ عـــامَ المحلِ فـــاسمُ بهِ
منا إذا صَـرُ خِلْفُ الغـيثِ فـانصـرمـا[١٢]

ب ـ الصيد البحري :

كان صـيد الأسمـاك أقـدم مـا عرفـه إنسـان هذه الأراضـي من ألوان النشـاط في التمـاس قوته، فـقد كشـفت البـحوث الأثرية عن العديد من الوسـائل التي اسـتعملها السكان في صيد الأسـماك والربيان والانتفاع بها، فقد صار صيدها حرفة يشتغل بها قطاع كبير من المجتمع، وما زالت خبرتهم في صيده تنمو مع الأيام حتى عرفوا أنواع الأسماك وخصائص كل صنف منها ومكان وجوده، وأنسب الأوقات والوسـائل لصيده، ولعل دفء مياه الخليج وضحالته خاصة من ناحية سواحله الغربية من أهم العوامل التي ساعدت سكان تلك السواحل على معرفة الصيد والاشتغال به منذ زمن مبكر[١٣] .

كما أن تفاوت أعماق الخليج وتنوع نباتاته وارتفاع نسبة الملوحة في مياهه قد ساعدت على إثرائه بالعديد من أصناف الأسماك الجيدة[١٤].

ومن أشـهر أنواع الأسـمـاك: «الكنعد، والسكن، والهـامور، والجبـاب، والشـعري، والعندق، والسـبيطي»، وقد اسـتعمل الصـيادون في اقتنـاص فرائسـهم من الأسـمـاك والربيان عدة وسـائل من أهمها :

١ – الحضرة : وهي أقفاص تتخذ من الحبال بحيث تحجز داخلها جميع ما تحمله إليها مياه البحر من السمك في حالة المد، وكما تستعمل الحجارة أيضاً في إقامة تلك الحظائر وتعرف باسم «المساكر» وقد كانت معروفة بهذا الاسم منذ القدم، وقد جاء ذكرها بهذا الاسم في المعاهدة المبرمة بين الأمير «الفضل بن محمد» وبين حاكم جزيرة قيس .

٢ – الشباك .

٣ – القراقير : وهي عبارة عن أقفاص كبيرة تتسع لمقدار كبير من الأسماك، وتستخدم للصيد في المياه العميقة .

وإلى جانب هذه الوسائل يوجد نوع خاص بالصيادين الهواة ويعرف باسم «الشص» أو «المداد»، وهو خيط طويل ينتهي أحد طرفيه بسنارة .

ونظراً لبعد بعض مراكز تسويق الربيان عن مصادر صيده فقد لجأ الصيادون إلى وسيلة تضمن استمرار صلاحيته أطول فترة ممكنة، فكانوا يقومون عند استخراجه بتجفيفه بالطرق الخاصة، أما السمك فيباع طرياً باستثناء أنواع قليلة تباع مجففة، والرديء من هذه الأنواع تعلف به الأبقار، وقد أشار ابن المقرب في شعره إلى العديد من أنواع الأسماك في هذه البلاد .

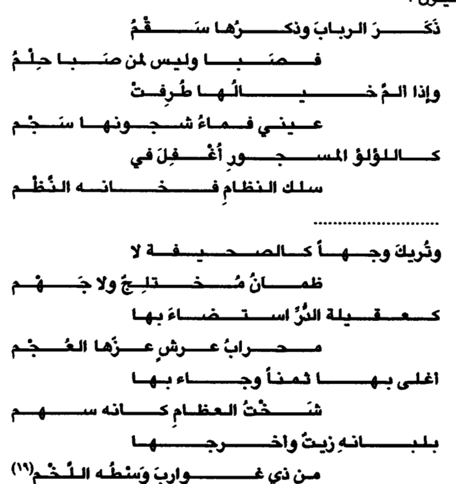
ج- الغوص على اللؤلؤ :

عرف الإنسان اللؤلؤ منذ أزمنة موغلة في القدم فدأب على استخراجه والاستفادة منه في الزينة وصناعة الأدوية وبعض الصناعات، وهو حجر كريم يتكون داخل حيوان بحري هلامي يعرف «بالمحار».

وتتخذ اللآلئ أشكالاً وألواناً مختلفة[١٥]، وتتفاوت اللآلئ من حيث النوع والشكل والحجم والجودة واللون، وأجود أصنافه الكبير الرزين البراق المتميز بالاستدارة التامة مع رطوبة الملمس وأشهر أنواعه: الجيون، والشيرين، والجلوار، والجسط، والبدلة، والجوهر الكبير يسمى «رأساً» وأشهر أنواعه الحصبان، ويسمى المتوسط «بطناً» أما الصغير منه فيسمى «قماش»، أما الناعم فيعرف باسم «سحتيت».

ويعد الخليج العربي أفضل مواطن اللؤلؤ سواء في الجودة أو في غزارة الإنتاج، وتوجد المغاصات في الخليج على امتداد السواحل العربية وفي محاذاتها، لذا قال «المقدسي» المغاصات في سواحل هجر، وقد قدر عددها بنحو ثلاثمائة مغاص[١٦]، وتعرف هذه المغاصات باسم «هيرات» مفردها «هير» وأصله فارسي وهو محل اللؤلؤ والأحجار الكريمة ومنجم الذهب[١٧]، ولكل مغاص اسم ومواصفات معروفة لدى البحارة، وقد كان الغوص على اللؤلؤ واستخراجه وصناعته والاتجار فيه من أهم الموارد المالية لسكان هذه البلاد منذ زمن بعيد، إذ تذكر بعض اللوحات السومرية والأكادية أن سفن «أور»[١٨] كانت تجلب من دلمون اللؤلؤ وتسميه «عين السمك» وذلك

منذ ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد، وقد تحدث الشعر منذ العصر الجاهلي عن اللؤلؤ والغوص عليه، فهذا «المخبّل السعدي» أحد شعراء هذه البلاد المخضرمين يزودنا بإحدى صور الغوص في مياه الخليج فيقول مشبهاً دموعه عند ذكرى حبيبته باللآلئ التي انحل نظمها فتساقطت، وأن وجه تلك الحبيبة يشبه اللؤلؤة النادرة الغالية التي ازدان بها عرش العجم، وقد جاء بها من أعماق الخليج غواص نحيل ماهر يشبه السهم في الاندفاع والسرعة أثناء عمله، جريء لا يبالي بأشد الأسماك شراسة وخطراً على الغاصة فيقول :



ذَكَرَ الربابَ وذكرُها سَقْمُ
فصَبا وليس لمن صَبا حِلْمُ

وإذا ألمَّ خيالُها طُرِفتْ
عيني فماءُ شجونها سَجْم

كاللؤلؤ المسجورِ أُغْفِلَ في
سلك النظامِ فخانه النُّظْم

....

وتُريكَ وجهاً كالصحيفة لا
ظمآنُ مُختلِجٌ ولا جَهْم

كعقيلة الدُّرِّ استضاءَ بها
محرابُ عرشٍ عزَّها العُجْم

اغلى بها ثمناً وجاء بها
شَخْتُ العظامِ كأنه سهم

بلبانهِ زيتٌ وأخرجها
من ذي غواربَ وَسْطُه اللُّخْم[١٩]

موسم الغوص وصفته :

يقتطع موسم الغوص الرئيسي من السنة أربعة أشهر وعشرة أيام وهي الفترة من مايو (أيار) إلى سبتمبر (أيلول)، وهناك فترتان إحداهما في شهر أبريل وتسمى «خنيجة» والأخرى في أكتوبر وتسمى «الردة».

وقبل حلول أوان الغوص الرئيسي في كل عام يتم التحضير والاستعداد له قبل أيام، فيعمل أصحاب السفن على جمع أتباعهم من الغواصين والمستخدمين، ومن أشهر أصحاب السفن العاملة في الخليج في العصر الجاهلي رجل سمته المصادر «بنيامين»[٢٠] وهو يهودي، ذكره كل من امرئ القيس وطرفة بن العبد في شعرهما .

وفي اليوم المخصص للخروج إلى الغوص يخرج الغاصة في حشد من الأقارب والأهل ويتجمعون في مراكز الإقلاع «كالعقير ودارين وجزيرة أوال»، وفي خضم مشاعر فياضة بحرارة الوداع تقلع السفن بالرجال .

وتعد جزيرة أوال «البحرين» المركز الرئيسي للانطلاق نحو مغاصات اللؤلؤ، حيث يقيم بها ويلتقي فيها كبار الغاصة وأرباب السفن والتجار، ومن هناك تتخذ جميع الترتيبات لعملية الغوص، ومن أشهر أنواع السفن العاملة في الغوص قديماً نوع يقال له «دنج»[٢١] وهو من أكبر الزوارق، ويقسم إلى خمسة أو ستة أقسام، يخص كل قسم منها تاجراً معيناً. وقد قدر الإدريسي عدد السفن المهيأة للغوص في البحرين أثناء زيارته لها بمائتي سفينة تقريباً .

العاملون في الغوص :

١ - «ربان السفينة» : ويعرف باسم «نوخذا» أو «ناخوذا» وجمعه «نواخذة».

٢ - «الجعدي»: وهو من ينوب عن «الناخوذا» في حالة غيابه ومساعدته .

٣ - «المقدمي»: وهو رئيس البحارة والمسؤول عن العمل في السفينة والمشرف على شؤونها.

٤ - «الغيص»: وهو الذي يقوم بالنزول في البحر لالتقاط المحار .

٥ - «السيب»: وهو الشخص الذي يقوم بجذب الغيص من الماء، وكان قديماً يسمى «المصفي».

٦ - «الرديف»: وهو الصبي الذي يقوم بالتدرب على العمل في السفينة ويقوم ببعض الأعمال الخفيفة .

٧ - «النّهام»: وهو الذي يرفه عن البحارة بالغناء لهم .

٨ - «العزّال»: وهو الشخص الذي يقوم بالغوص لحسابه الخاص .

٩ - «التبّاب»: وهو الذي يقوم بخدمة البحارة ويتدرب على العمل في البحر، وليس له سهم ويحصل على مكافأة من النواخذة والبحارة .

الانطلاق إلى الغوص :

تبدأ عملية الغوص بانطلاق السفن يتقدمها دليل لديه خبرة بأماكن الغوص، وحين يصل إلى أحد المغاصات المعروفة يشير على الجميع بالتوقف والتحضير للعمل حيث يباشر كل من الغاصة عمله، ويستمر العمل في الغوص طيلة ساعات النهار، ويستخدم الغيص بعض الأدوات الخاصة بعملية الغوص، والمدة التي يمضيها الغيص في عمله تحت الماء تتفاوت من واحد إلى آخر، وهي في العادة تتراوح بين دقيقة ونصف الدقيقة .

وحين يُستحصل اللؤلؤ من المحار يُجمع في قماش خاص ويحفظ لدى ربان السفينة، حيث يتولى بدوره بيعه لأحد التجار المعروفين .

ويحدثنا صاحب كتاب «نزهة المشتاق» أن تجار اللؤلؤ في أيامه كانوا يرافقون الغواصين في رحلة الغوص ويقيمون في السفن معهم، حيث يقوم المصفي «السيب» فور فراغ الغواص من عمله بفتح المحار، عندئذٍ يتسلم التاجر منه اللؤلؤ ويصره في منديل يدون عليه اسم صاحبه ويطبعه بخاتم خاص ثم يحفظه معه .

وبعد انقضاء موسم الغوص ينصرف الجميع إلى جزيرة أوال، وبعد نزولهم فيها يسلم التجار ما في حوزتهم من اللؤلؤ إلى والي الجزيرة، فيظل في قبضة الوالي وفي ذمته، فإذا كان يوم البيع اجتمع التجار في الموضع المعد للبيع، وأحضرت الصرر ونودي على أصحابها ثم تصنف أنواعها بوساطة غرابيل خاصة، ثم تعرض للبيع وينادى عليها حتى تستقر على سعر معين، فإذا أحب التاجر شراء سلعته سُجّلت في

حسابه، وفور بيع اللؤلؤ تتم تصفية حسابات الرحلة فتحسم أولاً الرسوم والإتاوات المقررة للسلطات الحاكمة من الغوص، وكانت هذه الرسوم من نحو ألف عام توازي خمس محصول الغوص، وقد يقتطع السلطان قيمة نصف المحصول إذا كان من أهل الجور، كما هو الحال عند السيّئ من الأمراء العيونيين[٢٢] .

ومن هنا نتبين أن الغوص على اللؤلؤ كان يمثل للاقتصاد شرياناً حيوياً ومصدر دخل مجزٍ لقطاع كبير من السكان من المشتغلين باستخراجه وتصنيعه والاتجار فيه .

د ـ التجارة :

١ - عرف سكان هذه البلاد التجارة ومارسوها منذ زمن بعيد، وقد ساعدهم على ممارستها والاشتغال بها عدة عوامل[٢٣] منها : وجود الكثافة السكانية بها، وحاجتهم المتزايدة إلى ما يؤمن حياتهم المعيشية من مواد غذائية وسلع ضرورية وكمالية.

٢ - وجود وفرة من المنتجات الزراعية والصناعية والرغبة في تصدير ما يزيد منها على الحاجة إلى الأسواق الأخرى .

٣ - موقع بلدهم في ملتقى طرق التجارة البرية والبحرية بين مراكز الحضارات، فقد ادرك أهل هذه البلاد أهمية الخليج الذي تشغل بلادهم معظم شواطئه الغربية وجزره، وتطلعوا من خلاله إلى الاتصال بغيرهم من الشعوب، وهوّن عليهم ركوبه ضحالة مياهه وتدرجها نحو العمق فاهتدوا إلى صناعة السفن، وكانت في بدايتها تصنع من القصب وجريد النخل فركبوها وتنقلوا بها بين سواحل الخليج يقيمون مع سكانها أوثق الصلات التجارية عن طريق تبادل البضائع والسلع، وبمرور الأيام تعاظمت خبرتهم في هذا المجال فصنعوا السفن من الخشب واخترعوا لها الشراع ومخروا بها عباب البحار والمحيطات، وسبروا أغوارها وعرفوا مسالكها، واستوعبوا أسرار الرياح الموسمية التي تهب على الهند في فصل الصيف ثم تعود في فصل الشتاء من اتجاه معاكس، فاتسعت بذلك دائرة نشاطهم التجاري حتى شملت أهم

مراكز الحضارات القديمة المعروفة في العراق وفارس والهند ووادي الإندوس واليمن ومصر وبلدان حوض البحر الأبيض المتوسط، فاتصلوا بشعوبها ومارسوا التجارة معها في مختلف السلع التجارية والكماليات كالذهب والفضة واللؤلؤ والحديد والنحاس والأخشاب .

وقد أشارت المصادر إلى ممارسة «الدلمونيين»[٢٤] لهذا اللون من النشاط التجاري وذلك منذ ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد، وكان من أهم مراكز التجارة مدينة الأحساء وميناء العقير وميناء دارين وجزيرة أوال، فقد كان التجار آنذاك يدفعون العُشر ضريبة عن تجارتهم لمعابد «أور». وهناك عدة نصوص أثرية تَبَيّنَ من دراستها أنها عقود واتفاقيات تجارية أبرمت بين تجار «أور» وتجار «دلمون»، وكانت بين السلع التي تصدرها دلمون إلى العراق الفضة والذهب واللؤلؤ والتمور وبعض الحيوانات والأخشاب والنحاس حيث كان يتدفق على دلمون من عُمان[٢٥] .

ويعد وادي الإندوس من أهم المناطق التي ارتبطت مع دلمون بصلات تجارية منذ أوائل الألف الثالث قبل الميلاد، يؤيد ذلك التشابه في عدد من الآثار في المنطقتين، ومن تلك الآثار فخار «باربار» الذي يعود للحضارة المبكرة لوادي الإندوس، وقد عثر عليه المنقبون في مقابر جزيرة أوال ويرجع تاريخه للفترات: ثلاثة آلاف، وألف وسبعمائة قبل الميلاد، ويذهب بعض الباحثين إلى القول إن الأسطول التجاري لدلمون اجتاز البحر إلى مصر، وتبادل التجارة معها، مستشهدين بما تم اكتشافه من الجعارين المصرية في مقابر البحرين، ويعود تاريخ تلك الجعارين[*] إلى عهد «تحتمس الثالث» سنة ١٥٠٠ق.م.

كما نجح الدلمونيون في الوصول إلى هذه الأقطار عن طريق البر في مهام تجارية أيضاً، كما وصلوا إلى عُمان وجنوبي الجزيرة العربية، وتبادلوا التجارة معها، وقد ظلت دلمون تمثل أحد المراكز التجارية المهمة طيلة ألفين وخمسمائة سنة قبل الميلاد، حيث أفل نجمها بعد أن نزح سكانها من الفينيقيين إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط .

(*) الجعارين: مفردها جعران، وهي عند قدماء المصريين تمثال لحشرة سوداء من نوع الخنافس، عرفوها وقدسوها، ثم جعلوا منها تميمة وحلية. (المعجم الوسيط، الجزء الأول، ص ١٢٥) (المراجع).

فقامت في أعقابها الحضارة الجرهائية التي اعتمد أهلها التجارة أساساً لبناء قوتهم، فأنشأوا المدن التي تعد من أهم المراكز التجارية، منها مدينة هجر وكانت تعرف باسم الجرهاء في واحة الأحساء وكذلك العقير وبلبانة في القطيف، وثاج والحناءة وجزيرة أوال .

وقد ذكرت المصادر أن الهجريين من أكثر الناس نشاطاً في مجال التجارة، فقد كانوا منذ منتصف الألف الثالث قبل الميلاد من كبار المارسين للاستيراد والتصدير، وأكثر السلع رواجاً في أيامهم التوابل والعقاقير الطبية والتمور والبخور والأحجار الكريمة إلى غير ذلك من السلع، وقد اجتمعت لهم بسبب ذلك ثروة طائلة .

ويذكر «استرابون» نقلاً عن «أرسطو طاليس» أن الجرهائيين كانوا يصدرون بضائعهم على السفن إلى بابل، ومنها إلى أعالي الفرات ومن ثم يحملونها بالبر إلى مختلف الأقطار[٢٦]، كما ذكرت المصادر أن قوافل الجرهائيين البرية كانت تتردد على غزة بفلسطين، وهناك يبيعون ما لديهم من السلع ويشترون ما يريدون من سواحل البحر الأبيض المتوسط، وبعد عودتهم يبيعونها في الأسواق المحلية أو يرسلونها إلى أسواق أخرى في جزيرة العرب والبلدان الأخرى، وقد بلغت الجرهاء في الفترة من ٣٢٣ ق.م إلى ٢١٥ ق.م قمة نشاطها الاقتصادي كأهم إمارة كانزة للذهب والفضة والأحجار الكريمة .

التجارة بعد ظهور الإسلام :

تشير المصادر إلى أن التجارة في هذه البلاد ظلت مزدهرة حتى بعد ظهور الإسلام وكانت من أعمدة الاقتصاد القوي آنذاك .

ويمكن معرفة قوة هذا الاقتصاد من معرفة حجم خراجها إلى خزانة الدولة الإسلامية في عهد النبي[٢٧] ، جاء في المصادر أن «العلاء بن الحضرمي» بعث إلى رسول الله مالاً من البحرين قدره ثمانون ألفاً ما أتاه أكثر منه قبله ولا بعده .

وفي عهد عمر بن الخطاب بلغ خراج هذه البلاد في إحدى السنوات خمسمائة ألف دينار حملها أبو هريرة من هجر إلى المدينة المنورة[٢٨]، كما كان تجار هذه البلاد يترددون بمتاجرهم على مدن الحجاز بعدة سلع من أهمها المسك والتمور والمنسوجات[٢٩] .

وقد ذكرت المصادر أن النبي والخلفاء وأم المؤمنين عائشة لبسوا من منسوجات هذه البلاد من القمص والملاحف والسراويل، كما تاجروا مع اليمامة في بعض السلع الغذائية وغيرها، هذا بالإضافة إلى استمرار تجارتهم التقليدية مع الهند وفارس والعراق .

وقد ذكرت المصادر أن التبادل التجاري بين البحرين والعراق كان قائماً في أيام الدولة العيونية، فكان في جملة البضائع التي تصدرها البحرين إلى العراق: اللؤلؤ، والخيل، والتمور، فقد جاء في شرح ديوان ابن المقرب[٣٠] أن جماعة من تجار العراق كانوا قاصدين البحرين فغرقت سفينتهم بإزاء جزيرة أوال وكانت محملة بمختلف البضائع والسلع إبان حكم «الفضل بن عبدالله العيوني»، فأرسل على الفور لإنجادهم جماعة من الغاصة المتخصصين فأنقذوهم، كما استخرجوا ما قدروا عليه من بضائعهم وقام بتعويض التجار عما فقدوه من البضائع .

وكان الشاعر علي بن المقرب قد مارس التجارة بين العراق والبحرين حيث كان يتاجر في الحديد، وقد ذكر شارح الديوان أن ابن المقرب[٣١] جلب الحديد من العراق عن طريق «واسط» ففرض عليه عاملها «الدُبيسي» ضريبة باهظة بلغت نصف قيمة ذلك الحديد فهجاه ابن المقرب هجاءً مراً، كما ذكر شارح الديوان أيضاً أن ابن المقرب قام باختيار رجل من أهل البصرة وكيلاً لجماعة من تجار الأحساء ولم يكن جديراً بثقته حيث غدر بموكليه فهجاه الشاعر[٣٢] .

وكانت الهند من أهم الأقطار التي حظيت بعلاقات تجارية مع هذه البلاد[٣٣]، فكانت تصدر إلى الهند من منتوجاتها: اللؤلؤ، والتمور، والخيل، كما جلبت منها خشب الساج، والأثاث، والأواني النحاسية، والنارجيل، والعود[٣٤]، والزمرد، والحديد الخام،

والتوابل والعطور، والهيل «الحبهان»، وبعض الحاصلات الزراعية وقد زرعوها في بلادهم كشجر اللارنج، والإترنج، ومنها نقلت إلى العراق والشام .

وفي إفريقيا كانت بلاد الصومال من أسبق الجهات التي استأثرت بكثير من الرحلات الخليجية وما اقترن بها من ظهور مراكز تجارة هامة، تذكر المصادر أن أول من أسس مدينة مقديشيو وقام بتعميرها ستة إخوة أحسائيين[٣٥]، اعتادوا ممارسة التجارة مع تلك الجهات وذلك في القرن الرابع الهجري، وكانت أهم ما تستورده البحرين من تلك الجهات جلود النمور الحمر، والذهب، والعاج، والعنبر، والحديد، والرقيق .

ولم يكن اتصال البحرين وسائر أقطار الخليج بإفريقيا قاصراً على الرحلات البحرية فحسب، فقد ذكرت المصادر أن تجار البحرين كانوا يصلون إلى مصر عن طريق البر في قوافل كبيرة، جاء عن القلقشندي قوله : إن أهل البحرين من بني عقيل كانوا يصلون إلى باب السلطان بمصر فكانوا يحملون إلى مصر جياد الخيل، وكرام المهارى، واللؤلؤ، وأمتعة العراق والهند ويعودون من هناك إلى بلادهم محملين بالسكر والأقمشة .

التجارة المحلية :

كانت في هذه البلاد عدة أسواق تجارية هامة، فكان منها: ما هو ثابت على الدوام والاستمرار، ومنها ما كان يقام في زمن معلوم في يوم من الأسبوع أو في شهر معين من العام وذلك منذ زمن بعيد .

وقد ذكرت المصادر منها عدة أسواق: كسوق هجر[٣٦] وكانت تقام في شهر ربيع الآخر من كل عام، وكان يُعشّر التجار فيها إبان ظهور الإسلام «المنذر بن ساوى»، وسوق المشقّر وكانت تقام سنوياً طيلة شهر جمادى الآخرة، وسوق الأحساء وكانت تعقد على الكثيب المعروف باسم الجرعاء[٣٧]، وسوق دارين وكان يعمل طيلة أيام العام.

هـ-الصناعة:

كانت هذه البلاد من أهم المراكز الصناعية في جزيرة العرب، وقد نشأت فيها صناعات متنوعة منذ العصور الموغلة في القدم مما يشير إلى عراقة الحضارة فيها .

وقد اشار إلى ذلك «ابن خلدون» منوهاً بقدم الصناعة في هذه البلاد ورسوخها وتجددها[٣٨]، وتعتبر الأدوات وشذرات الفخار المنتشرة في المواقع الأثرية فيها بما تمتلكه من خصائص متميزة في تصميمها وتشكيلها وزخرفتها مؤشراً واضحاً على تقدم الصناعة وعراقتها، ويرجع ذلك لما تحفل به أرضها من مقومات هذا النوع من النشاط الاقتصادي المتمثلة في المواد الأولية مثل: الطين الأخضر المناسب لصناعة الفخار، والقطن، والصوف، والأخشاب، وشجرة النخل التي كان كل جزء منها مادة اساسية لنوع أو أكثر من المصنوعات، وفيها الطاقة البشرية المنتجة والمنبثقة من مجتمعها المتحضر والتي تنحدر بعض عناصره من شعوب لا تزدري الصناعة ولا تستنكف من ممارستها، وفيها أسواق رائجة ونشاط تجاري تعتمد عليه مناطق كثيرة في الحصول على ما يلزمها من السلع والمنتجات الصناعية المختلفة. ومن هنا قامت في هذه البلاد حركة صناعية نشيطة وفرت لسكانها وسكان المناطق الأخرى معظم ما تحتاج إليه من المنتجات الصناعية: كالملابس، والأثاث ولوازم الصناعة، والصيد، والحرث، وصناعة المجوهرات والحلي وأدوات الزينة.

وقد شملت الحركة الصناعية جميع المدن وبعض قرى هذه البلاد، فأسهم كل موضع في إنتاج الصناعات التي تلائم ظروفه من حيث الموقع وتوافر الخامات اللازمة لتلك الصناعات .

أنواع المصنوعات :

صناعة السفن:[٣٩]

وتعد من أهم الحرف التي مارسها السكان منذ أقدم العصور، وقد أصبحت لهم فيها خبرة مكنتهم من تصميم كل سفينة طبقاً للمواصفات التي تلائم ظروف استخدامها والغرض الذي صنعت من أجله، فهناك السفن التجارية كالبوم، وسفن الغوص كالسنبوك والشوعي، وقوارب الصيد، وتعد جزيرتا أوال ودارين من أهم المراكز التي تبنى فيها تلك السفن .

صناعة الأسلحة :

اشتهرت هذه البلاد بصناعة عدة أنواع من المعدات الحربية منها صناعة السيوف والرماح، وكانت مدينة الخط من أهم مراكز إنتاج الرماح فقد بلغت شهرة الرماح الخطية حداً صار معها اسم الخط علماً على الرمح ذاته .

وأول من ثقف الرماح بالخط «هزيز بن شن بن أفصى» من عبدالقيس[٤٠]، وقد استمدّ الرمح السمهري والرديني اسميهما من اسمي صانعيهما وكلاهما من أهل الخط، وهناك رمح قصير يسمى الخرصان[٤١] تخصصت في إنتاجه قرية بهجر تحمل هذا الاسم، وأشارت المصادر إلى أنواع أخرى من الأدوات الحربية منها الدروع الحطمية المنسوبة إلى «حطمة بن الحارث بن عمرو بن وديعة» من عبدالقيس.

صناعة الأثاث والأواني والأدوات :

تكفلت الحركة الصناعية بتأمين جميع ما يحتاج إليه المجتمع من لوازم الحياة اليومية: كالمواد الإنشائية، والأثاث المنزلي، وأواني الطهي[٤٢]، والمعدات اللازمة للزراعة والصناعة والصيد والقنص .

وقد اعتمدت هذه الحركة على قاعدة عريضة من الحرفيين المهرة الذين تنوعت اختصاصاتهم، فتخصصت كل فئة منهم في إنتاج نوع معين من هذه الصناعات ظل متوارثاً فيها جيلاً بعد آخر، وقد حرص كل من هذه الفئات على استغلال الخامات المحلية المتاحة كلما أمكن ذلك .

المنسوجات :

أشارت المصادر إلى أنواع متعددة من المنسوجات عُرف كل منها باسم البلد[٤٣] الذي يتم فيه نسجها: من الثوب الهجري نسبة إلى هجر، والظهراني المنسوب إلى الظهران، والقطري المنسوب إلى قطر، وكذلك معقدة البحرين .

وقد اشتهرت هذه المدن بإنتاج هذه المصنوعات حتى أصبح اسم المدينة علماً على المنسوج ذاته، وكانت تُسَوّق على مستوى الجزيرة العربية مما يشير إلى كثرة المصانع وغزارة إنتاجها، ولعل دارين كانت إحدى أماكن تلك المصانع، فهذا جرير يهجو البعيث فيقول :

وتُؤخَذ من عند البعيث ضريبةٌ
ويترك نسّاجاً بدارين مسلما

وقد سبقت الإشارة إلى أن الرسول والخلفاء لبسوا من منسوجاتها(٤٤)، ومما يدل على استمرارها حتى العصر العباسي أن المأمون قد خلع على أبي العتاهية أردية قطرية .

وصفوة القول : إن تنوع مصادر الدخل في هذه البلاد ووعي أهلها وسبقهم في ميدان الملاحة والاتصال بمختلف الشعوب والتبادل التجاري معها، أفضى إلى قيام مجتمع حضري مستقر استقطب العديد من الأيدي المنتجة في مختلف ألوان النشاط الاقتصادي، فتأسست المصانع وتنوعت المحاصيل الزراعية ونشطت التجارة الداخلية والخارجية .

****

الهوامش

(١) المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ١٠٥ .

(٢) ج – ج لوريمر : دليل الخليج، القسم الجغرافي، ج ٢، ص ٨١٩، أعدها قسم الترجمة بمكتب صاحب السمو أمير دولة قطر .

(٣) عمر رضا كحالة : جغرافية شبه الجزيرة العربية، ص ٢٤٥ .

(٤) الملا : تاريخ هجر، ج ١، ص ٣٠٤ .

(٥) حمد الجاسر : مجلة العرب، الربيعان سنة ١٣٩٩هـ، ص ٧٧٥ .

(٦) عبدالرحمن عبدالكريم النجم : البحرين في صدر الإسلام، ص ٨٢ .

(٧) محمد آل عبدالقادر : تحفة المستفيد، ص ٥٢ .

(٨) محمد سعيد المسلم : ساحل الذهب الأسود، ص ٢٠٧ .

(٩) الملا : تاريخ هجر، ج١، ص ٣٢٣ .

(١٠) محمود شكري الآلوسي: تاريخ نجد، ص ٣٢ .

(١١) ديوان ابن المقرب : تحقيق وشرح عبدالفتاح محمد الحلو، ط ٢، ص ٥٤٢ .

(١٢) ديوان ابن المقرب : تحقيق وشرح عبدالفتاح محمد الحلو، ط ٢، ص ٥٤٤ .

(١٣) مختارات قافلة الزيت : العدد الثامن، سنة ١٣٧٦هـ، ص ١٠٥ .

(١٤) د.عبدالله ناصر السبيعي : اكتشاف النفط وأثره على الحياة الاقتصادية في المنطقة الشرقية، ص ١٢٧ .

(١٥) محمد شفيق غربال : الموسوعة الميسرة، ص ١٥٨٠ .

(١٦) المقدسي : نزهة المشتاق في اجتياز الآفاق .

(١٧) عبدالوهاب عيسى القطامي : الصيد والتنقل والتجارة في البحار، الملحق بنهاية كتاب والده دليل المحتار، ص ٢٠٨ .

(١٨) د.جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٥، ص ٥٤٥، ٥٤٦ .

(١٩) نوع من السمك : الملا : تاريخ هجر، ج ١، ص ٣٣٦ .

(٢٠) ديوان طرفة بن العبد .

(٢١) المقدسي : نزهة المشتاق في اجتياز الآفاق .

(٢٢) المقدسي : نزهة المشتاق في اجتياز الآفاق .

(٢٣) عبدالرحمن عبدالكريم النجم : البحرين في صدر الإسلام، ص ٨٤ .

(٢٤) د جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ١، ص ٥٤٥ .

(٢٥) سليمان سعدون البدر : منطقة الخليج العربي خلال الألفين الثاني والأول قبل الميلاد، ص ٨٣ .

(٢٦) مجلة أطلال : العدد السادس، ص ٩٦ .

(٢٧) البلاذري : فتوح البلدان، ص ٩٥ .

(٢٨) المعجم الجغرافي: «المنطقة الشرقية» القسم الأول، ص ٧٢ .

(٢٩) عبدالرحمن عبدالكريم النجم : البحرين في صدر الإسلام، ص ٨٥ .

(٣٠) عبدالفتاح محمد الحلو : شرح ديوان ابن المقرب، مكتبة التعاون الثقافي، ط٢، ص٥٤٠ .

(٣١) مخطوطة ديوان ابن المقرب : ص ٢٠٣ .

(٣٢) مخطوطة ديوان ابن المقرب : ص ٢٢٧ .

(٣٣) سليمان إبراهيم العسكري : التجارة والملاحة في الخليج العربي في العصر العباسي ، ص ١٥٣ .

(٣٤) سليمان إبراهيم العسكري : المرجع نفسه ، ص ١٩٣ .

(٣٥) مجلة المنهل : ج٣، ربيع الأول سنة ١٣٩٣هـ ، ص ١٩٤ .

(٣٦) أبومحمد الحسن بن أحمد الهمداني : صفة جزيرة العرب، مطبعة السعادة، ص١٧٩، ١٨٠.

(٣٧) أبوزكريا يحيى بن شرف النووي : رياض الصالحين، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ص ٥٢٨ .

(٣٨) مقدمة ابن خلدون : دار الكتاب اللبناني، بيروت، ص ٧٢١ .

(٣٩) مجلة الوثيقة : العدد السابع، شوال سنة ١٤٠٥هـ، ص ١٩٨: ٢٠٠ .

(٤٠) خيرالدين الزركلي : الأعلام، ج ٩، ج ١٠.

(٤١) عبدالرحمن عبدالكريم النجم : البحرين في صدر الإسلام وأثرها في حركة الخوارج، ص ٨٤ .

(٤٢) ج - ج لوريمر : دليل الخليج، القسم الجغرافي، ج ٢، ص ٨٤٧ .

(٤٣) عبدالرحمن عبدالكريم النجم : البحرين في صدر الإسلام، ص ٨٢ .

(٤٤) لسان العرب : ج ١، ص ١٠٥ .

****

القســم الثاني

التاريخ السياسي

الفصل الأول
التاريخ السياسي قبل عهود الاستقلال

أ- العصر الجاهلي وصدر الإسلام:

قامت في الأحساء عدة ممالك وحكومات خاصة بها منذ فجر التاريخ المدون كما تعرضت للغزو من جيرانها الأقوياء مرات عديدة، من تلك الممالك إمارة الجرهاء[1] التي نشأت في الفترة من خمسمائة قبل الميلاد إلى ثلاثمائة ميلادية، وقد كانت لها شهرة فائقة في الوساطة التجارية بين مراكز الحضارات القديمة إذ وصلت سفن وقوافل الجرهائيين[2] إلى الصين والهند وشرقي إفريقيا إلى جانب الشام واليمن .

وقد حقق الجرهائيون بنشاطهم التجاري ثروة فائقة الشهرة، واكتنزوا الذهب والفضة والأحجار الكريمة واتخذوا منها آنيتهم وزينوا بها منازلهم، وأسالوا بذلك لعاب الطامعين في غزوهم، فقد ذكرت المصادر أن «الإسكندر» قد أدرج مدينة الجرهاء ضمن مخططاته التوسعية في «آسيا» بيد أن المنية عاجلته قبل أن ينال مراده.

كما قام الملك السلوقي «أنطيوخس الثالث»[3] بعد الميلاد بحملة قادها بنفسه لإخضاع الجرهاء ولكن أهلها نجحوا في صرفه عن غزوهم بأسلوب دبلوماسي يدل على براعتهم في السياسة وميلهم للأمن والسلام، ومن أشهر ملوك هذه الإمارة: «أبياطع»، و«أبي أيل»[4]، و«ساتيروم».

وقد زالت هذه الإمارة بعد أن أدركها الضعف بتحول الطرق التجارية عنها وعلى أيدي الغزاة من البلدان القوية حولها، وكذلك زحف القبائل العربية القادمة إلى هذه البلاد من تهامة[5] .

وقد دخلت الأحساء تحت رايات متعددة من النفوذ الخارجي كنفوذ «الحميريين» في أيام «ذا رياش آرام بن عوف بن حمير» و«النعمان بن يعفر بن السكك»[٦] وكلاهما من أحفاد «يعرب بن قحطان»، ثم تأسست بالأحساء إمارة قوية تحت راية «مالك» و«عمرو» ابني «سعد بن تميم بن أزد بن وبرة بن قضاعة» حين زحفوا إلى هذه البلاد بجيوش من «قضاعة ونمارة بن لخم»، وقد زالت هذه الإمارة على يد قبائل عبدالقيس حين قدمت من تهامة فأمسكت بزمام السلطة في هذه الأراضي[٧]، وقد اشتدت شوكتها فغزت سواحل فارس وأقامت بها إبّان الوصاية على عرش «سابور بن مرسي بن بهرام»[٨] ، بيد أن سابور لما شبّ عن الطوق قام بغزو «البحرين» أي هجر وألحقها بدائرة نفوذه[٩] ، ولكن السيطرة الفارسية على هذه البلاد كانت في أكثر الأوقات مجرد سيطرة اسمية حيث ظلت السلطة الحقيقية في أيدي العرب، ومن أشهر ولاتها في تلك الفترة: «الربيع بن حوثرة»[١٠] الملقب «بأبي عائشة الحوثري»، و«أبو كرب ربيعة بن الحارث»، و«عبد هند»، و«جون الكلبي»[١١]، و«المنذر بن ساوى»[١٢] الذي أدرك الإسلام ودخل فيه .

أما بعد إشراقة الإسلام في مكة والمدينة فإن التاريخ يسجل بأحرف من نور لهذه البلاد عدداً من المواقف والإسهامات الفعّالة، فقد بادر أهلها إلى الانضواء تحت بنود الإسلام فشرفوا بالسبق في اعتناق مبادئه والجهاد في سبيل نشره بمحض اختيارهم ومن غير إكراه[١٣] .

تحدثنا المصادر أن رئيس عبدالقيس «المنذر بن عائذ» الملقب «بالأشج»[١٤] حين علم بظهور الإسلام أوفد ابن أخته «عمرو بن منقذ» لاستقصاء الخبر في الحجاز، فعاد إليه مسلماً ومعه خطاب من الرسول الكريم يدعو فيه الأشج إلى الإسلام، فلبّى على الفور النداء ودعا قومه إلى اعتناق الإسلام فأجابوه وحوّلوا بيعتهم في «جواثا»[١٥] مسجداً لا تزال بقاياه شاهدة على سبقهم في هذا الفضل، فقد شهد أول جمعة تقام في الإسلام خارج المدينة المنورة[١٦].

وقد سار منهم لمقابلة الرسول وفدان، كان الأول في السنة الخامسة من الهجرة برئاسة «الأشج»[١٧]، والثاني[١٨] كان في السنة التاسعة من الهجرة برئاسة «الجارود العبدي»[١٩]، وقد نالوا في الوفادتين التكريم والثناء من الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضوان الله عليهم .

وقد أوفد «العلاء بن الحضرمي»[٢٠] إلى «المنذر بن ساوى» يدعوه إلى الإسلام فبادر إلى الترحيب به واعتنق الإسلام كما أسلم معه جميع العرب وبعض العجم من سكان هجر، فاقر الرسول «المنذر» في حكم هجر مكتفياً بإيفاد بعض أصحابه بين الوقت والآخر لمساعدة «المنذر» في نشر تعاليم الإسلام وجبي الصدقات والخراج، ومن هؤلاء «أبوعبيدة عامر بن الجراح» و«أبوهريرة» و«أبّان بن سعيد بن العاص»[٢١] رضي الله عنهم ، وكان أكبر مبلغ مالي يتسلمه الرسول في حياته مائة وخمسين ألفاً حملها إليه من هجر «أبوعبيدة عامر بن الجراح» وقد فرقها الرسول على المسلمين في المسجد حال استلامها .

وقد توفي «المنذر بن ساوى»[٢٢] بعد انتقال الرسول إلى الرفيق الأعلى بأيام قليلة فتعاقب على إدارة البلاد طيلة أيام الخلافة الراشدة عدة ولاة يتم تعيينهم من قبل الخلفاء، كما ظل خراجها من أهم الروافد لإنعاش الدولة الإسلامية الناشئة ودعم مسيرة الجهاد بما يلزمها من الأموال والمؤن[٢٣] .

ذكرت المصادر أن «أبا هريرة» قدم من هجر إلى المدينة فصلى مع «عمر بن الخطاب» عشاء فسأله «عمر» عمّا معه فقال: خمسمائة ألف ، فاستعظم «عمر» هذا المبلغ وأراد التثبت منه بإعادة السؤال أكثر من مرة، ورغم تأكيد «أبي هريرة» لما ذكر بالعدّ على أصابعه فقد قال له «عمر»: إنك ناعس فإذا أصبحت فأْتنا، وفي الصباح جاء «أبو هريرة» بالمال المذكور إلى المسجد ، فقام «عمر» فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا أيها الناس قد جاءنا من هجر مالٌ عظيم فإن شئتم كلنا لكم كيلاً وإن شئتم وزنّا لكم وزناً، فقال أحد الحاضرين : لقد رأيت الفرس يدونون ديواناً يعطون الناس عليه، فأمر الخليفة «عمر» بتدوين الديوان فكانت تلك أولى الخطوات في التنظيم المالي

والإداري[٢٤]، ومما يحسب لأهل هذه البلاد ثبات معظمهم على الإسلام[٢٥] حين ارتد أكثر العرب في أعقاب وفاة الرسول كما كان لهم فضل السبق في فتح فارس، فقد جاء في المعجم «لياقوت»: أما فتح فارس فكان بدؤه أن «العلاء بن الحضرمي» وجّه «عرفجة بن هرثمة» في البحر فعبر إلى أرض فارس ففتح جزيرة مما يلي فارس[٢٦] .

أما في العصرين الأموي والعباسي فقد مُنيت هذه البلاد بما مُني به غيرها من أقاليم الجزيرة من الفتن والاضطرابات، إذ تغلب عليها الخوارج النجدات حين نجحوا في إقامة دولة خاصة بهم في اليمامة بزعامة «نجدة بن عامر الحنفي»[٢٧]، وقد اتخذوا من هجر حاضرة لدولتهم حين نجح «أبو فديك بن ثعلبة» في الاستئثار بزعامة الخوارج إلى أن تم القضاء عليه وعلى حركته سنة ٧٢هـ على يد الخليفة «عبدالملك بن مروان».

وبنهاية هذه الحرب تمكن «عبدالملك» من بسط سيطرته على البحرين واليمامة[٢٨] وأسند إدارة شؤون البحرين «إلى الأشعث بن عبدالله بن جارود العبدي»، وكان القضاء على «أبي فديك»[٢٩] قد أنهى دور النجدات في البحرين ولكنه لم يضع حداً للحركات الخارجية الأخرى التي ظهرت على المسرح السياسي في هذه البلاد، فقد تسلمت راية الخروج والتمرد على مركز الخلافة عناصر من عبدالقيس لم تكن دوافعها الانتصار لنظرية دينية أو سياسية معينة، بل كانت دوافعها في المقام الأول الرغبة الجامحة في تخليص البلاد من سلطة الإدارة المركزية وسيطرة الخلفاء الذين لا تعنيهم هموم ومشاكل رعاياهم في الأقاليم البعيدة، بقدر ما يهمهم مقدار المال الذي يصل إلى خزائنهم من الأموال المستنزفة من تلك الأقاليم، بغضّ النظر عن الطرق التي تُجبى بها تلك الأموال وما يرافقها في الغالب من مظالم وفظائع تعمل باستمرار على زرع الحقد والكراهية للسلطة في نفوس الناس، وتكون أسباباً حقيقية لاندلاع الثورات وحركات التمرد، كما أن تلك الحركات إذا حدثت لم تكن تعالج بالأساليب السليمة التي تزيل أسباب قيامها وتمنع تكرار حدوثها وهي إزالة المظالم وإشاعة العدل وتوفير الحياة الكريمة لجميع الناس، بل الذي كان يحدث عكس ذلك تماماً، فكانت الجيوش التي توجه

لقمع حركات التمرد تعمد في حالة انتصارها على تلك الحركات إلى أفظع وسائل التنكيل والبطش والأعمال الانتقامية والتخريبية: كالقتل بدون تمييز، أو أخذ البريء بجريرة المذنب، وهدم المنازل، وحرق المحاصيل الزراعية، وطمّ الآبار، إلى غير ذلك من الأساليب القمعية الوحشية التي تزيد مرارة الناس وتعمق جراحاتهم وتجعلهم جاهزين للقيام بالأعمال الانتقامية كلما وجدوا الفرصة المواتية لذلك. وهذا ما سنراه في الانتفاضات التي قادتها عناصر من عبدالقيس في البحرين حيث قاموا بسلسلة من الانتفاضات العنيفة ضد السلطتين الأموية والعباسية، جاءت تعبيراً عن معاناة سكان هذا الإقليم وما تنطوي عليه نفوسهم من تذمر وسخط على مركز الخلافة، بسبب عدم مبالاته بالنظر في مظالمهم وتقصيره في رعاية مصالحهم وحماية حقوقهم، وتطبيق ما يأمر به الشرع من العدل في الحكم والإنفاق وتوفير حياة الأمن والاستقرار .

ب- انتفاضات بني عبدالقيس في البحرين:

انتفاضة بني محارب:

انتفض في البحرين بنو «محارب بن عمرو بن وديعة»، ولكن عامل الأمويين «محمد بن صعصعة» تمكن من القضاء على تلك الانتفاضة بمؤازرة من والي اليمامة الذي كلّفه الخليفة الاشتراك مع والي البحرين في تلك المهمة .

وفي سنة ٧٩هـ الموافق ٦٩٨م انتفض بالخط جماعة بقيادة رجل يدعى «ريان النكري»[٣٠]، وقويت شوكتها واشتد خطرها حين قدمت من عُمان جماعة أخرى بقيادة رجل يسمى «ميمون» ما كادت تستقر في دارين وتعلم بثورة الخط حتى بادرت بالانضمام إليها، فحاول مولى الأمويين «محمد بن صعصعة» القضاء على تلك الانتفاضة واستنفر الأهالي للنهوض بتلك المهمة بيد أنه لم يجد أذناً صاغية من عبدالقيس، فأعدّ جيشاً من الأزد بيد أنه لم ينجح في قمع حركة «الريان»، فآثر النفاذ بجلده وغادر البحرين، ولكن الخلاف لم يلبث أن ثار بين «الريان وميمون» فاضطر الأخير إلى ترك البحرين والعودة لعُمان، واستقر الريان «بالزارة».

وفي سنة ٨٠ هـ الموافق سنة ٦٩٩م أرسل «الحجاج» جيشاً إلى البحرين بقيادة «يزيد بن أبي كبشة» في اثني عشر ألف مقاتل والتقى «بالريان» وكان عدد أصحابه لا يزيد على الألف وخمسمائة مقاتل، فدارت بين الفريقين معركة بالغة العنف في ميدان «الزارة» أسفرت عن مصرع «الريان» وقتل عدد كبير من أتباعه[٣١]، وصلب «يزيد بن أبي كبشة» الريان وكبار أصحابه ليكونوا عظة وعبرة لمن تسول له نفسه الخروج والتمرد مرة أخرى .

وعلى الرغم من شدة الإجراءات التي اتبعها «يزيد بن أبي كبشة» في قمع الخارجين على الطاعة والتنكيل بهم، فقد ثار بالبحرين على إثر مصرع الريان «داود بن محرز بن عبدالقيس»[٣٢] في جماعة من قومه، فاستولى على القطيف وأقام بها وأمر بإنزال جثة الريان وغيره من المصلوبين ودفنهم، وألحق الهزيمة بجيش أعدّه لقتاله «البهاء» صاحب شرطة القطيف، كما ألحق الهزيمة أيضاً بجيش تشكّل معظم أفراده من الأزد سار لقتاله بإمرة «عبدالرحمن بن النعمان العوذي».

انتفاضة «مسعود بن ابي زينب»:

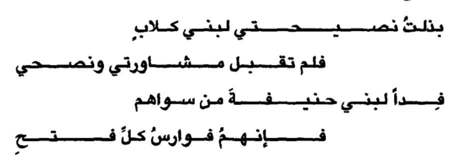
وفي سنة ٨٦ هـ[٣٣] الموافق سنة ٧٠٥م انتفض في البحرين «مسعود بن أبي زينب المحاربي بن عبدالقيس»[٣٤] في جماعة من قومه وطردوا عامل الأمويين «الأشعث بن عبدالله بن الجارود العبدي»، كما تمكن من قمع مقاومة الأزديين له وقتل «عبدالرحمن بن النعمان العوذي»[٣٥]، وأراد غزو اليمامة ولكن عامل الأمويين «سفيان بن عمرو العقيلي» أعدّ جيشاً كبيراً من بني حنيفة للدفاع عن اليمامة ودارت في الموضع المعروف «بالخضرمة»[٣٦] بين الجيشين معركة طاحنة سقط خلالها «مسعود» قتيلاً وحلّ محله في قيادة الخوارج «هلال بن مدلج»[٣٧]، وتوافدت على أرض المعركة أعداد كبيرة من بني حنيفة وأحاطوا بالخوارج إحاطة الأغلال بالمغلول وأكثروا فيهم القتل، وكان من بين القتلى في ذلك اليوم «زينب» أخت «مسعود» ولاذ «هلال» بمن فضل معه من أتباعه بقصر كان هناك، وتسوّرت جماعة من بني حنيفة القصر وظفرت «بهلال» فقتلته بعد أن استأمن أصحابه لأنفسهم، وكانت مدة حكم «مسعود» للبحرين تسع عشرة سنة.

انتفاضة سعيد المحاربي :

لم يكد الأمويون يلتقطون الأنفاس بعد الفراغ من تلك الحوادث حتى انتفض في البحرين أيضاً «سعيد المحاربي»(٣٨) وهو أخو «مسعود» السالف الذكر، ونجح في الاستيلاء على مقاليد الحكم في البلاد، ولكن سرعان ما نشب خلاف بينه وبين واحد من كبار أتباعه يدعى «عون بن بشير» أحد بني «محارب بن عامر» وأكفر كل منهما صاحبه، فانقسمت الحركة على نفسها إلى جماعتين، استقرت إحداهما في هجر مع «سعيد» وتوجهت الأخرى إلى القطيف برئاسة «عون»، ولكن «سعيداً» تمكن من القضاء عليه واغتياله بُغية الانفراد بحكم البلاد.

خروج «المهير بن سلمة» أحد بني حنيفة في البحرين واليمامة :

قال ابن الأثير : لما قُتل «الوليد بن يزيد»(٣٩) كان على اليمامة «علي بن المهاجر» استعمله عليها «يوسف بن عمر الثقفي»، وكان «علي بن المهاجر» يسكن في قصر له بهجر بموضع يسمى القاع، فقال له «المهير بن سلمة»: اترك لنا بلادنا فأبى، فجمع له «المهير» وسار إليه في هجر، فخرج «علي» لقتاله فاقتتلوا، وانهزم أصحاب «علي» فدخل حصنه ثم هرب إلى المدينة، وقتل «المهير» أناساً من أصحابه، وكان «يحيى بن أبي حفصة» نهى «ابن المهاجر» عن القتال فعصاه فقال :



بذلتُ نصيحتي لبني كلابٍ
فلم تقبل مشاورتي ونصحي
فِداً لبني حنيفةَ من سواهم
فإنهمُ فوارسُ كلِّ فتحِ

وتأمّر «المهير» على اليمامة ثم مات واستعمل على اليمامة «عبدالله بن النعمان» أحد بني قيس بن ثعلبة بن الدؤل، ثم قدم «المثنى بن زيد بن عمرو بن هبيرة الفزاري» والياً على اليمامة في عهد «مروان بن محمد»(٤٠) .

انتفاضة «سليمان بن حكيم» في البحرين :

في سنة ١٥١هـ الموافق سنة ٧٦٩م انتفض في البحرين جماعة أعلنت التمرد والخروج على «أبي جعفر المنصور» بزعامة «سليمان بن حكيم العبدي»[٤١]، فبادر المنصور إلى إعداد جيش وجهه إلى البحرين بقيادة «عقبة بن سلمة الأزدي» والي البصرة، فالتقى الفريقان ودارت بينهما معركة حامية الوطيس تمكن فيها الجيش العباسي من إلحاق الهزيمة بالمتمردين وقتل زعيمهم .

ولم يكتف القائد العباسي بإخماد تلك الانتفاضة فقد ارتكب من أعمال العنف والوحشية ما لا يجوز فعله مع أشد الأعداء، إذ قتل كل من قدر على قتله من الرجال وسبى النساء والأطفال وأسر كثيراً من أهل البلاد ونقلهم إلى بغداد وتركهم «للمنصور» يتحكم فيهم كما شاء له هواه، فقتل بعضهم ووهب آخرين لرجال حاشيته كولي عهده «المهدي» الذي قام بإطلاق سراحهم وتكريمهم في محاولة للتخفيف من آثار الممارسات الفظيعة لجيش المنصور مع أهل البحرين .

ولكن مراجل الغيظ والغضب من تلك الأعمال ظلت تغلي في نفوس عبدالقيس حتى قام أحد أفرادها بالانتقام لها من ذلك القائد، على باب ديوان الخلافة نفسها بجرأة عجيبة، صارت مسرى المثل بين الناس فقيل: أجرأ من قاتل عُقبة .

فقد جاء في كتاب الأمثال «للميداني» ما نصه، قال: «أبوعمرو القوعيني عقبة بن سلم» من بني هُناءة من أهل اليمن صاحب دار عقبة بالبصرة، وكان «أبو جعفر» وجّهه إلى البحرين وأهل البحرين «ربيعة» فقتل «ربيعة» قتلاً فاحشاً، قال: فانضم إليه رجل من عبدالقيس فلم يزل معه سنين وعُزل عقبة فرجع إلى بغداد ورحل «العبدي» معه، وكان «عُقبة» واقفاً على باب «المهدي» بعد موت «أبي جعفر» فشد عليه «العبدي» بسكين فوجأه في بطنه فمات «عُقبة»[٤٢]، وأُخذ «العبدي» فأُدخل على «المهدي» فقال : ما حملك على ما فعلت ؟ فقال : إنه قتل قومي وقد ظفرت به غير مرة إلاّ أني أحب أن يكون أمره ظاهراً حتى يعلم الناس أني أدركت ثاري منه، فقال

«المهدي» : إن مثلك لأهل أن يُستبقى ولكن أكره أن يتجرأ الناس على القواد فأمر به فضُربت عنقه، ويُقال إن الوجأة وقعت في شرجة منطقة «عقبة» قال: فجعل «المهدي» يُسائل «العبدي» و«العبدي» يبكي إلى أن دخل داخل فقال : يا أمير المؤمنين مات «عُقبة» ! فضحك «العبدي» فقال له «المهدي»: ممّ كنت تبكي؟ قال من خوفي أن يعيش فلما مات أيقنت أني أدركت ثأري.

انتفاضة «سيف بن بكير»:

وفي سنة ١٩٠هـ الموافق سنة ٨٠٦ م انتفض في البحرين على مركز الخلافة «سيف بن بكير» أحد بني عبدالقيس، وتمكن من السيطرة على هجر، فوجه إليه الرشيد جيشاً على رأسه «محمد بن مزيد»، والتقى الطرفان في الموقع المعروف باسم «عين النورة»[٤٣] ودارت بينهما معركة بالغة العنف أسفرت عن قتل «سيف بن بكير» وهزيمة أتباعه، ولكن عبدالقيس وسائر قبائل البحرين ظلت تمارس انتفاضاتها وضغوطها على السلطة العباسية حتى تمكنت في نهاية المطاف من رفع يد العباسيين عن بلادهم، فمسكت مقاليد السلطة فيها إمارات من عبدالقيس ظلت تتوارث الحكم كابراً عن كابر حتى تم القضاء عليها في العقد التاسع من القرن الثالث الهجري .

حركة صاحب الزنج :

بدأت هذه الحركة في سنة ٢٤٩هـ الموافق سنة ٨٦٣ م على يد رجل تضاربت الروايات في حقيقة نسبه لكثرة ما كان يرتديه من القُمص في هذا الشأن، وإن كانت تلك الروايات لا تخرج عن دائرة اعتباره إمّا من عبدالقيس أو العلويين .

فقد جاء في الطبري[٤٤] أن اسمه ونسبه في ما ذكر «علي بن محمد بن عبدالرحيم»، ونسبه في عبدالقيس[٤٥]، وأمه «قُرة بنت علي بن رحيب بن محمد بن حكيم» من بني أسد بن خزيمة من ساكني قرية من قرى الري يُقال لها «ورزنين» وبها مولده ومنشؤه، فذُكر عنه أنه كان يقول: جدي «محمد بن حكيم» من أهل الكوفة أحد الخارجين على «هشام بن عبدالملك» مع «زيد بن علي بن الحسين»، فلما قُتل «زيد» هرب

فلجأ إلى «ورزنين» فأقام بها، وإن أبا أبيه «عبدالرحيم» رجل من عبد القيس كان مولده «بالطالقان» وإنه قدم العراق فأقام بها واشترى جارية سندية فأولدها «محمداً» أباه فهو «علي بن محمد» هذا .

كما جاء عن الطبري أيضاً أن صاحب الزنج قد ادّعى الانتساب إلى بيت «علي بن أبي طالب» ولكن دون الثبات على فرع واحد من فروع ذلك البيت، ولعل نسبته إلى عبدالقيس هي الأقرب إلى الصواب لما مر من عدم ثباته على فرع واحد من فروع العلويين وإنكار العلويين لنسبته فيهم، ووجود دوافع معينة تدفعه للانتماء إلى البيت العلوي، وهي الرغبة في استغلال ما يكنه الناس لذلك البيت من مشاعر الود وما يبدون من تعاطف معهم في المحن التي كانوا يتعرضون لها، ليكتسب بذلك لحركته قوة جذب سريعة ومستمرة، وقد نجح في هذا المضمار نجاحاً كبيراً حيث تمكن من إقناع أناس كثيرين بصحة انتسابه إلى البيت العلوي بمن فيهم بعض العلويين أنفسهم .

هذه القرائن واتخاذ صاحب الزنج موطن عبدالقيس وهو البحرين نقطة البداية لدعوته، تجعلنا نرجح صحة ادعاء انتسابه إلى عبدالقيس واستبعاد كل ما عداها من المزاعم في هذا الشأن .

ومهما يكن من شيء فإنه في سنة ٢٤٩هـ الموافق سنة ٨٦٣ م اتجه من سامراء إلى البحرين، وادّعى أنه «علي بن محمد بن الفضل بن عبدالله بن العباس بن علي بن أبي طالب»، ومن ثم شرع في الترويج لدعوته زاعماً أنه رسول العناية الإلهية إلى الناس ليخلصهم من المظالم التي يرزحون تحت نيرها، وإعادة بناء المجتمع على أسس العدالة والمساواة ومنع الاستغلال والتمييز العنصري .

فانخدع بظاهر دعوته قوم من هجر وعارضه آخرون[٤٦] ورفضوا أفكاره، واشتد الجدال في أمره بين مؤيديه ومعارضيه، ونشبت بين الطرفين معارك ضارية في مواقع متعددة ذهب ضحيتها عدد كبير من الناس، وأدرك صاحب الزنج أن الأمور في هجر لا تسير في صالحه فتحول عنها إلى أحساء بني سعد، وأقام بينهم فنجح إلى حد كبير

وصار له أتباع ومريدون رفعوا مقامه وذبوا عنه بقوة السلاح، وجبوا له الخراج ولم يمض وقت طويل حتى تبين لأتباعه بطلان دعوته وحقيقة أمره فمقتوه ونفروا منه، فانتقل إلى البادية وفي معيته عدد قليل من خلصائه بينهم كيّال من أهل الأحساء يُقال له «يحيى بن محمد الأزرق» المعروف «بالبحراني» مولى لبني دارم، «ويحيى بن أبي ثعلبة» تاجر من أهل هجر، و«سليمان بن جامع» من موالي بني حنظلة وقد جعله قائداً لجيشه، وما زال يتنقل في البادية من حي إلى حي حتى أوهم الأعراب أنه «يحيى بن عمرو أبوالحسين» المقتول بناحية الكوفة، فانخدع بمزاعمه كثير من أهل البادية فأعدّ منهم جيشاً كبيراً وسار به إلى هجر حاضرة البحرين وتصدى له أهلها ودخلوا معه في معركة حامية الوطيس في موضع يُدعى «الردم»(٤٧) أسفرت عن هزيمته وقتل عدد من أصحابه، فانفضت عنه العرب وكرهت صحبته فسار إلى البصرة سنة ٢٥٤هـ الموافق سنة ٨٦٧ م، ونزل في بني ضبيعة واختار جماعة من أصحابه الذين حضروا معه من البحرين وهم «محمد بن سلمة القصاب» و«بريش القريعي» و«علي الضراب» و«الحسين الصيداني» لنشر دعوته، فذهبوا إلى مسجد يعرف باسم مسجد «عبّاد» وبدأوا في استمالة الناس والتأثير فيهم بشتى وسائل الإقناع فانتهى خبر نشاطهم إلى والي البصرة «محمد بن رجاء الحضاري» فاعتزم القبض عليهم، وبلغهم ذلك فلاذوا بالفرار ولحقوا بزعيمهم وتحوّلوا من البصرة إلى موضع آخر أكثر أمناً .

ولكن «ابن رجاء» تعقب أنصارهم في البصرة وزجّ بهم في السجن، وكان من بين من أُلقي عليهم القبض: «يحيى بن أبي ثعلب»، و«محمد بن حسن الإيادي» وابن صاحب الزنج «علي بن محمد الأكبر»، وزوجته أم ابنه ومعها ابنتان له وجارية حامل منه.

أما زعيم هذه الحركة فقد توجه في جماعة من خلصائه إلى بغداد وفي طريقه إليها ظفر بهم في البُطيحة «عمير بن عمار» فحملهم إلى «محمد بن أبيعون» عامل السلطان بواسط، وبحيلة ماكرة تخلصوا من قبضته وساروا إلى مدينة السلام حيث اقام بها صاحب الزنج سنة كاملة انتسب فيها إلى «أحمد بن عيسى بن زيد»، كان

يزعم أنه ظهر له أثناء مقامه في بغداد آيات وأنه يعرف ما في ضمائر أصحابه وما يفعل كل واحد منهم[٤٨] .

وفي مدينة السلام أحرز شيئاً من التقدم في دعوته فقد دخل في تبعيته عدد من أهلها كما كان على صلة بجماعة من آل المنتصر وبعض المقربين إلى الخليفة العباسي وكُتَّابه .

وفي شهر رمضان سنة ٢٥٥هـ الموافق سنة ٨٦٨ م عاد إلى البصرة، وكان أهله قد نجحوا في التخلص من السجن هناك فساروا جميعاً إلى موضع يعرف باسم «كرنخل»، وهناك نزل بقصر يُدعى بقصر «القرشي» حينئذٍ ادّعى أنه وكيل ولد الواثق في بيع السباخ وأمر أصحابه أن يدعوه بذلك[٤٩]، وحينئذٍ دخلت دعوته مرحلة جديدة فقد وجد في ألوف الزنوج الكادحين في السباخ الممتد من البصرة إلى واسط مجالاً خصباً لزرع أفكاره وعقائده وتحقيق مقاصده السياسية والعسكرية، فقد كان الزنوج هناك يعيشون حياة مزرية بائسة فيعملون في كسح السباخ طيلة ساعات النهار تحت ظروف مناخية بالغة القسوة وكل ما يحصلون عليه من ساداتهم مقابل تلك الأعمال المُضنية وجبة ضئيلة من الدقيق والسويق والتمر .

وكان الجلد بالسياط الغليظة أدنى ما يتعرض له أحدهم متى أبدى شيئاً من التذمر أو التواني في القيام بواجبه، لذا فعلت دعوة هذا الخارجي في أنفسهم فعل السحر حيث لاحت لهم فيها بارقة الأمل في الخلاص من حياة البؤس والهوان وهو ما لم يحلموا به في أي وقت مضى، وسارعوا لإجابته والسير في ركابه فاجتمع له منهم خلق كثير فعظم أمره وقويت شوكته فاتخذ له لواءً من الحرير نُقش عليه بالأخضر والأحمر الآيات الكريمة من قوله تعالى ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويُقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم﴾ [٥٠] .

كما كتب على اللواء اسمه واسم أبيه ثم جمع الزنج على ما يذكر «ابن جرير»[٥١] وقام فيهم خطيباً فمنّاهم ووعدهم بأن يقودهم وينقذهم ويملكهم الأموال،

وحلف لهم الأيمان الغلاظ الاّ يغدر بهم ولا يخذلهم ولا يدع شيئاً من الإحسان إلا وأتى إليهم به، ثم دعا مواليهم فقال : لقد أردتُ ضرب أعناقكم لما كنتم تأتون إلى هؤلاء الغلمان الذين استضعفتموهم وقهرتموهم وفعلتم بهم ما حرّم الله عليكم أن تفعلوه بهم، وجعلتم عليهم ما لا يطيقون فكلمني أصحابي فيكم فرأيتُ إطلاقكم فقالوا: إن هؤلاء الغلمان أُبّاق وهم يهربون منك ولا يبقون عليك ولا علينا فخذ منا مالاً واطلقهم لنا، فأمر غلمانهم فأحضروا عصياً ثم بطح كل قوم مولاهم أو وكيلهم وضرب كل واحد منهم خمسمائة عصا وأحلفهم بطلاق نسائهم الاّ يُعلموا أحداً بموضعه ولا بعدد أصحابه حتى وصل «دُجين»، فوجد هناك سفناً فاستولى عليها واستقلها إلى نهر «ميمون»(٥٢) ثم غادرها إلى مسجد في وسط سوق البلدة فنزلوا به، يقول «ابن جرير»: وأقام هناك ولم يزل هذا دأبه يجتمع إليه السودان إلى يوم الفطر، فلما أصبح نادى في أصحابه بالاجتماع لصلاة الفطر فاجتمعوا وركز المردي الذي عليه لواؤهم، وصلى بهم وخطب خطبة ذكر فيها ما كانوا عليه من سوء الحال وأن الله قد استنقذهم به من ذلك، وأنه يريد أن يرفع أقدارهم ويملكهم العبيد والأموال والمنازل ويبلغ بهم أعلى الأمور، ثم حلف لهم على ذلك.

فلما فرغ من صلاته وخطبته أمر الذين فهموا عنه قوله أن يُفهموه من لا فهم له من عجمهم لتطيب بذلك أنفسهم، وقد أثرت تلك الخطبة في جموع الزنج تأثيراً عظيماً فازدادوا به ثقة وحوله التفافاً، فبنى مدينة أطلق عليها اسم «المختارة» ونزل بها مع أتباعه وأتم تحصين مدينته بالخنادق والأسوار ونقل إليها من المؤن والعتاد ما يجعلها قادرة على الصمود والمقاومة أطول مدة ممكنة .

حينئذٍ شرع في نشر جيوشه في العراق وخوزستان والبحرين وانتهب القادسية وألحق الهزائم بأهالي البصرة فنشر بذلك الهلع والرعب في قلوب الناس، فهبطت معنوياتهم وخارت قواهم أمام غاراته المتكررة عليهم، وطلبوا من الخليفة «المهتدي» الإسراع في وضع حد لتلك الممارسات الإرهابية فوجّه إليه جيشاً كبيراً بقيادة أحد قواده الأتراك فلم يأت بطائل، فلما آلت الخلافة إلى «المعتمد» جهز جيشاً بقيادة

«جعلان» أحد كبار قواده الأتراك[٥٣] فزحف على البصرة فاصطدم بالزنج في معركة حامية الوطيس أسفرت عن هزيمة عسكر الخلافة العباسية ومصرع قائدها .

ومن ثم زحف صاحب الزنج على مدينة «الأبلة» فوقعت في قبضته، كما بسط سيطرته على «الأهواز» أيضاً فخشي أهل البصرة على أنفسهم فنزح أكثرهم إلى المناطق الأخرى، وفي سنة ٢٥٧هـ اقتحم الزنج البصرة وأضرموا فيها النار وقتلوا عدداً كبيراً من أهلها، كما واصلوا زحفهم على «واسط» و«رامهرمز» واستولوا عليهما فأخذ الخليفة «المعتمد» يرسل لقتالهم الجيوش تلو الجيوش ولكن دون جدوى، في حين كانت شوكة الزنج تزداد كل يوم قوة وصلابة لما تحقق من انتصارات ومكاسب حربية في قتالها مع العباسيين، فبادر الخليفة «المعتمد» بإسناد مهمة مطاردة الزنج والقضاء عليهم إلى أخيه «أبي أحمد الموفق»، وكان صاحب الزنج قد توالت غاراته الإرهابية على البحرين والعراق وخوزستان[٥٤]، فآلى «الموفق» على نفسه أن يضع حداً نهائياً لتلك الحركة ويخلص الناس من شرها، ففي صفر سنة ٢٦٧هـ الموافق سنة ٨٨٠ م جهز جيشاً جراراً تولى قيادته بنفسه وزحف على واسط والتحم مع الزنج في معركة ضارية دارت فيها الدائرة عليهم فذهب أكثرهم بين قتيل وجريح وأسير، كما كانت تلك المعركة بداية النهاية لحركة الزنج حيث تتابعت عليهم الهزائم وتم تحرير الأهواز وفرض «الموفق» حول مدينته المختارة حصاراً شديداً[٥٥] .

كما تمكن «العباس بن الموفق» من إحكام حصار المختارة بقطع الميرة والمدد عن الزنج بصورة فعّالة حتى اضطروا بسبب الجوع ونضوب الموارد والمؤن إلى أكل لحوم موتاهم، وبعد مدة نجح «الموفق» في الاستيلاء على الجزء الغربي من المدينة فخاب رجاء الزنج في الخلاص من تلك المحنة فانحاز أكثرهم إلى «الموفق» وطلبوا منه الأمان فأمّنهم وأحسن معاملتهم فعجل ذلك بسقوط كامل المدينة في قبضته، وتم قتل «يحيى بن محمد الأزرق» من أمراء الزنج، كما أسر «سليمان بن جامع» و«إبراهيم بن جعفر الهمداني المهلبي» و«انكلاي بن صاحب الزنج».

وفي الثاني من صفر سنة٢٧٢ هـ الموافق سنة ٨٨٥ م تم قتل صاحب الزنج[٥٦] بعد أن دوّخ الدولة العباسية وبث الرعب والهلع في نفوس الناس مدة أربع عشرة سنة وستة أيام وعاد الناس إلى بلادهم التي استولى عليها الزنج .

إن هذه الحركات والانتفاضات المتكررة التي قادتها عبدالقيس في البحرين قد جاءت بسبب تردي الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في بلادهم، جراء انحراف مسار سياسة الأمويين والعباسيين عن أقاليم شبه الجزيرة العربية وإهمال شؤونها وتحويلها إلى أرض خصبة لزرع شتى الدعوات والعقائد والأفكار المتنوعة، وبدافع الرغبة في تصحيح مسار تلك السياسة كإصلاح الأحوال الاقتصادية والاجتماعية في بلادهم، قامت انتفاضات متعددة فشلت في إطفاء جذوتها جميع الوسائل القمعية التي مارستها معها سلطة الخلافة، فقد ظل مسلسل العنف المتبادل بين عبدالقيس والسلطة القائمة حتى انحسر في نهاية المطاف ظل تلك السلطة عن بلاد البحرين، لتحل مكانها زعامات محلية خالصة من بني عبد القيس الذين قويت شوكتهم وتعاظمت قوتهم، حتى تم لهم الاستيلاء على مقاليد الحكم في بلادهم ولم يتركوا فيها للدولة العباسية موضع قدم، كما تؤيد ذلك شواهد التاريخ. غير أن تلك الزعامات لم تنجح في توحيد صفوفها تحت لواء واحد بسبب التنافس على الشرف والرياسة الذي لم يهدأ أواره بين شيوخها فصارت بالتالي غرضاً لطمع الطامعين .

وبحلول عام ٢٨٧هـ توارت تلك الزعامات تماماً عن المسرح السياسي على يد «أبي سعيد الحسن بن بهرام الجنابي»، ومن أشهر تلك الإمارات: مملكة آل مسمار من بني عبدالقيس في القطيف، وزعامة بني عامر في هجر، وزعامة عياش بن سعيد بن محارب من عبدالقيس وكان يقيم بجبل الشبعان .

وقد أشار شارح ديوان ابن المقرب إلى تسلم بني عبدالقيس مقاليد الحكم في البحرين[٥٧] وانبثاق ممالك بزعامتهم، فهو يقول عند الكلام عن بطون عبدالقيس: «ومن ربيعة بني عبدالقيس بن أفصى بن دعمي بن جديلة بن أسد بن ربيعة» وولد عبدالقيس

أفصى واللبؤ، وولد أفصى شناً ولكيزاً، أما اللبؤ وإخوته لأمه بكر وتغلب وعنز وكانوا أحد رجال العرب الستة فكانت مملكتهم هجر والبحرين والقطيف ونواحيها ولم يزالوا يتداولون الولاية حتى كان آخرهم بني العياش بن سعيد رئيس بني محارب بن عمرو بن وديعة بن لكيز بن أفصى بن عبدالقيس، والعريان رئيس بني مالك بن عامر، وهو العريان بن إبراهيم بن الزحاف بن العريان بن مورق بن رجاء بن بشر بن صهبان بن الحارث بن وهب بن ضبة بن كعب بن عامر بن معاوية بن عبدالله بن مالك ابن عامر البطن المشهور الذي نُسب إليه عامر بن الحارث بن أنمار بن عمرو بن وديعة.

****

الهوامش

(١) نجيل جروم : أطلال، العدد السادس، ص ١٠٤ .

(٢) د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٢، ص ١٤ .

(٣) نسبة إلى سلوقس أحد قواد الإسكندر المقدوني، وتقع مملكة سلوقيا على شاطئ دجلة قريباً من البصرة .

(٤) أطلال : حولية الآثار العربية، العدد السابع، سنة ١٩٨٣م، ص ٧٦ .

(٥) د.توفيق فهد : لجنة تدوين تاريخ قطر، البحوث المقدمة إلى مؤتمر دراسات تاريخ شبه الجزيرة العربية، ص ٢٩ وما بعدها .

(٦) محمد بن عبدالقادر : تحفة المستفيد بتاريخ الأحساء في القديم والجديد، ص ٥٤، ٥٥ .

(٧) المعجم الجغرافي: المنطقة الشرقية،ج١، ص ٤٨، ٤٩.

(٨) أرثر كريستين : إيران في عهد الساسانيين، ترجمة يحيى خشاب، دار النهضة العربية، بيروت، ص ٢٢٣ .

(٩) الطبري : تاريخ الأمم والملوك، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ج ١، ص ٣٩٩ .

(١٠) الربيع بن حوثرة : ج ٩، ص ٥٣٧ ، ٥٣٨.

(١١) د.جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٣، ص ٢٧٧ .

(١٢) المنذر بن ساوى بن الأخنس العبدي من عبدالقيس أو من بني عبدالله بن دارم من تميم : أمير البحرين في الجاهلية والإسلام، أرسل إليه النبي قبل فتح مكة كتاباً مع «العلاء بن الحضرمي» يدعوه إلى الإسلام فأسلم، وظل في عمله وتوفي بعد وفاة الرسول بأيام . خير الدين الزركلي : الأعلام ، دار العلم للملايين ، بيروت، ج ٧ ، ص ٢٩٣ .

(١٣) أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور : لسان العرب،ج ٥، ص ٢٧٤ .

(١٤) هو المنذر بن عائذ من بني عصر من بني عبدالقيس، أول من دخل في الإسلام من بني عبدالقيس وقد رأس الوفادة الأولى إلى رسول الله فأحسن استقباله وأدناه منه ووصفه بالحلم والأناة. النووي: صحيح مسلم بشرح النووي ، ج ١ ص ١٨١ ـ أبو عبدالله محمد بن سعد: الطبقات الكبرى ، دار صادر ، بيروت ج ٥ ص ٥٦٤ .

(١٥) النووي : شرح صحيح مسلم، ج ١، ص ١٥٦ إلى ١٦٥ .

(١٦) أحمد بن علي بن حجر العسقلاني : فتح الباري بشرح صحيح البخاري، باب أداء

الخمس من الإيمان، دار الفكر، بيروت، ج ١، ص ١٢٩ .

(١٧) أحمد بن حنبل : المسند، ج ٣، ص ٢٠٥ إلى ٢٠٦ .

(١٨) الحلبي بن برهان : في السيرة الحلبية، ج ٣، ص ٢٤٩ .

(١٩) اسمه بشر بن عمرو بن حنش بن المعلى، ولُقّب الجارود لأن إبله أصابها مرض فخرج بها إلى أخواله من بكر بن وائل فانتشر المرض في إبلهم فهلكت فقال الناس «جردهم بشر» فسمي الجارود . ابن سعد : الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت، ج ٥، ص ٤٠٧ – ٤٠٨ .

(٢٠) العلاء بن ضماد بن سلمى بن أكبر من حضرموت، وكان حليفاً لبني أمية بن عبد شمس بن مناف. عبدالرحمن عبدالكريم النجم : البحرين في صدر الإسلام، ص ١٠٨ .

(٢١) البلاذري : فتوح البلدان، ص٩٢ .

(٢٢) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري : تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٢٠٤ .

(٢٣) المسعودي : التنبيه والإشراف، ص ٣٧٤ .

(٢٤) حمد الجاسر : المعجم الجغرافي، المنطقة الشرقية، ق ١، ص ٧٢ .

(٢٥) محمد بن عمر الواقدي: كتاب الردة رواية «أحمد بن محمد بن أعثم» تحقيق يحيى الجبوري، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ١، ص ١٤٧ – ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج٢، ص ٢٢٥، ٢٢٨ .

(٢٦) ياقوت الحموي: معجم البلدان .

(٢٧) نجدة بن عامر الحروري الحنفي من بني حنيفة من بكر بن وائل، رأس الفرقة النجدية، انفرد عن سائر الخوارج بآراء . كان أول أمره مع نافع بن الأزرق وفارقه لإحداثه في مذهبه ثم خرج مستقلاً باليمامة سنة ٦٦هـ ، ثم قتل على يد بعض أتباعه في البحرين .

(٢٨) عبدالرحمن بن خلدون المغربي : العبر وديوان المبتدأ والخبر، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ج ٣، ص ٣١٣ .

(٢٩) أبو فديك عبدالله بن ثور : أحد بني قيس بن ثعلبة لعب دوراً رئيسياً في خلع نجدة وقتله . عبدالقادر بن طاهر البغدادي : الفرق بين الفرق، ص ٩٠

(٣٠) عبدالرحمن عبدالكريم النجم : البحرين في صدر الإسلام، ص ١٤٣، نسبة إلى نكرة بن لكيز بن أفصى بن عبدالقيس .

(٣١) خليفة بن خياط : التاريخ، ج ١، ص ٢٧٦ – ٢٧٨ .

(٣٢) خليفة بن خياط : التاريخ ،ج ١، ص ٢٧٨ .

(٣٣) خليفة بن خياط : التاريخ، ج١، ص ٣٢٤ - في رواية أخرى في سنة ٩٦هـ .

(٣٤) في ديوان الفرزدق :ج١، ص ٢٢٦ «مولى لعبدالقيس».

(٣٥) الكامل : ج٥، ص١١٩ .

(٣٦) بلد بأرض اليمامة . ياقوت : ج٢، ص ٤٥١ .

(٣٧) ياقوت : ج ١، ص ٥٧٠ إلى ٥٧١ .

(٣٨) عبدالرحمن عبدالكريم النجم : البحرين في صدر الإسلام، ص ١٣٦ .

(٣٩) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٤، ص ٢٧٢ .

(٤٠) آخر خلفاء بني أمية .

(٤١) حمد الجاسر : المعجم الجغرافي، ج ١، ص ٨٠ .

(٤٢) الميداني : الأمثال، ج ٢، ص ١٨٤ .

(٤٣) محمد بن عبدالله آل عبدالقادر : تحفة المستفيد، ص ٨١ .

(٤٤) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ج ٩، ص ٤١٠ .

(٤٥) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ج ٩، ص ٤١٠ .

(٤٦) الملا : تاريخ هجر، ج ٢، ط٢ ، ص ٨٨، ٨٩ .

(٤٧) الطبري : تاريخ الأمم، ج ٦، ص ١٧٤ .

(٤٨) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج ٥، ص ٣٤٧ .

(٤٩) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج ٥، ص ٣٤٧ .

(٥٠) سورة التوبة : آية رقم ١١١ .

(٥١) الطبري : تاريخ الأمم والملوك، ج٦، ص ١٧٧ .

(٥٢) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي، ج ٣، ص ٢١١ .

(٥٣) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي، ج ٣، ص ٢١١ .

(٥٤) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج ٦، ص ٣٦٢ .

(٥٥) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج ٦، ص ٣٦٢ .

(٥٦) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج ٦، ص٣٦٢ .

(٥٧) مخطوطة ديوان ابن المقرب : ص٦٠٠ .

****



الفصل الثاني
الحـــركة القرمطيـــة

أ- بدء الحركة القرمطية وانتشارها :

القرامطة في البحرين:

إن لضعف الدولة العباسية الناجم عن عوامل مختلفة ليس هنا موضع تفاصيلها أبعد الأثر في تمزق وحدة هذه الخلافة وظهور دول مستقلة وكيانات متعددة أوهنت الإسلام وحدّت من مسيرته نحو التقدم والرقي في مختلف مضامير الحياة .

فقد أصبحت سلطة الخلافة العباسية في الأقاليم الواقعة تحت دائرة نفوذها اسمية في البداية، وما زال ظلها آخذاً في التقلص والانكماش حتى انسلخت تلك الأقاليم عن حاضرة الخلافة العباسية نهائياً ومن بينها البحرين، فما كادت تلتقط الأنفاس بعد خمود زوبعة الزنج، حتى ظهرت فيها بعد بضع سنين حركة أشد عنفاً وأبعد خطراً وضعتها في مسار مستقل ومتميز في مختلف الأنماط الحياتية .

نشأة الحركة القرمطية :

نشأت الحركة القرمطية ضمن إطار فكري إسماعيلي باطني قام على أساس الاعتقاد بإمامة «محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق» رغم ما ذكر عن موته في حياة أبيه .

فالحركة القرمطية على ما يرى بعض الباحثين عملية مرحلية في تلك الفترة، وتعد خطوة من خطوات الإسماعيلية التي كانت تبدو في شكل حركات منظمة تتحرك وفق مخطط عملي مدروس يقوم على خداع الجماهير واستغلال عاطفتهم نحو آل البيت، وتعتمد التنظيم السري العسكري أسلوباً لتحقيق أهدافها، ومن ثم اشتركت القرمطية والإسماعيلية في العمل من هذا المنطلق .

وقـد ظهـرت بوادر الفكر الإسـمـاعـيلي في أيام «جـعـفـر الصـادق»، وتمكن «القدّاحيون»[1] من وضع هذا المخطط موضع التنفيذ وبلورته في منتصف القرن الثالث عن طريق بث الدعاة وزرع الخلايا في مختلف الأقطار الإسلامية، فحققوا نجاحاً كبيراً يتمثل في قيام الدولة الفاطمية في المغرب سنة ٢٨٨هـ الموافق سنة ٩٠٠م على يد «عبدالله الشيعي»[2] ثم قيام الكيانات والحركات القرمطية .

الحركة القرمطية :

لقد كان مركز انطلاق هذه الحركة إلى حيز الوجود من سواد الكوفة التي كانت على ما يبدو من أخصب البقاع لنمو الأفكار المتطرفة واحتضان الحركات المعارضة لما يعانيه أهلها من ألوان البؤس والفاقة، ويذكر المؤرخ «المقريزي» في اتعاظ الحنفاء أن «حسين الأهوازي» عندما خرج من السلمية في منتصف القرن الثالث متوجهاً إلى سواد الكوفة من العراق، التقى بـ«حمدان بن الأشعث» الملقب بـ «قرمط»[3] في سواد الكوفة فتماشيا ساعة تمكن خلالها «الأهوازي» من السيطرة على «حمدان» والاستئثار بعقله وعواطفه ولم يلبث أن ألحقه بدعوته، كما ألحق من خلاله بالدعوة عدداً كبيراً من أهل تلك النواحي، وعندما حضرته الوفاة أقام مقامه «حمدان بن الأشعث» قرمطاً، وكان «حمدان» ذكياً داهية[4] فاستطاع بما يملك من قوة الإقناع ووسائل الإغراء أن يضم إلى دعوته معظم أهل تلك الناحية والنواحي المجاورة لها، وكان ممن أجاب دعوته: «مهداويه بن زكراويه السلماني»، و«جلندي الرازي»، و«عكرمة البابلي»، و«إسحاق السوداني» و«عطيف النيلي» وغيرهم[5] .

ومن أبرز دعاته «عبدان» ولهم دعاة تحت أيديهم، وكان كل داعية يدور في عمله ويجتمعون في كل شهر مرة، ودخل في دعوته خلق عظيم، ولم يبق بطن من البطون المتصلة بسواد الكوفة إلا دخلت في الدعوة منه أناس كثير أو قليل، ونصّب فيهم دعاة فقوي قرمط وزاد طمعه.فأخذ في جمع الأموال من أتباعه وفرض عليهم الضرائب تحت أسماء مختلفة منها: «الفطرة» وهي درهم على كل واحد من الرجال والنساء، و«الهجرة» وهي دينار على كل رأس مدرك، ثم «البلغة» وهي سبعة دنانير، فلما استقر

له الأمر فرض عليهم أخماس ما يملكون ويكتسبون، ثم فرض عليهم «الألفة» وهي أن يحضر كل واحد منهم ما معه من المال وجمع ذلك في مستودعات خاصة وقال لهم لا حاجة لكم إلى مال يكون معكم لأن الأرض بأسرها ستكون لكم.

ثم اتفق الدعاة على تعيين موضع يكون لهم وطناً ودار هجرة يهاجرون إليها، فاختاروا من سواد الكوفة قرية تسمى «مهتماباز» ما لبثت أن أصبحت مدينة عظيمة التحصين انتقل إليها الرجال والنساء، وأقبلوا على جمع السلاح وإعداده فهابهم الناس، وبعد صراع مرير مع العباسيين تمزقت جموع القرامطة ثم عاود بعض أتباعهم الظهور من جديد في الأراضي الشامية وقاموا بحركات تمكنت جيوش الخلافة من القضاء عليها وتصفية وجودها[٦] .

ب. نشأة الدولة الجنابية في بلاد البحرين

الدولة الجنابية في البحرين وبدء الدعوة القرمطية فيها :

بدأت حركة القرامطة في البحرين بوصول دعاة «حمدان وعبدان» إلى هذه البلاد ومن بينهم «يحيى بن المهدي» و«أبو الفوارس» و«أبو سعيد بن حسن بن بهرام الجنابي»[٧]، فقد قدم هذا الأخير من جنابة[٨] بفارس إلى الكوفة، وأخذ أصول الدعوة القرمطية عن «عبدان» وقيل عن «حمدان» فصار داعية ونزل القطيف وهي حينذاك مدينة عظيمة ، فجلس بها يبيع الدقيق فالتزم الوفاء والصدق حتى صار ضامناً لمكوسها، فاجتمع له مال عظيم وعكف على نشر دعوته بجميع السبل فأجابه جماعة كثيرة[٩] من أهل القطيف منهم «الحسين وعلي وحمدان أبناء سنبر»، وبلغه أن هناك داعية يقال له «أبو زكريا يحيى بن علي الطمامي»[١٠] أنفذه «عبدان» قبل «أبي سعيد» وكان قد استمال جماعة من آل سنبر، ورأى «أبو سعيد» في هذا الداعية منافساً خطراً فاحتال في التخلص منه حتى قتله، فأغضب قتله بعض مؤيديه من بني سنبر وحقدوا على «أبي سعيد»[١١] ففر إلى فارس وظل مقيماً في «جنابة» مسقط رأسه.

وفي سنة ٢٨١هـ الموافق سنة ٨٩٤ م قصد القطيف رجل يعرف بـ«يحيى بن المهدي» فنزل على رجل يسمى «علي بن المعلا [١٢] بن حمدان» مولى الزياديين، فأخبره

«يحيى» أنه رسول «المهدي» إلى شيعته في البلاد يدعوهم إلى أمره وأن ظهوره قد قرب، فجمع «علي بن المعلا» الشيعة من أهل القطيف وأقرأهم الكتاب الذي مع «يحيى بن المهدي» إليهم من «المهدي» فأجابوا أنهم خارجون معه إذا ظهر أمره، ولما اطمأن إلى طاعتهم وولائهم شرع في جمع الأموال منهم بوساطة كتب زعم أنها من «المهدي» على نحو ما كان يجري في سواد الكوفة، كما قصد البادية فأثّر في عدد من الأعراب واستمالهم إلى تبعيته، وفي هذا الوقت سمع به «أبوسعيد» في جنابة فلحق به وعكفا على تنسيق الجهود في ضم الأتباع والأنصار، ثم استطاع «أبوسعيد» في نهاية المطاف السيطرة على قيادة الحركة، فقاتل بمن أطاعه من عصاه حتى قويت شوكته وعظم أمره فأخذ في شن الغارات على نواحي القطيف .

استيلاء «أبي سعيد» على مدن الخط :

عقد «أبو سعيد» العزم على احتلال مدينة القطيف نفسها فاكتسحها وقتل رئيسها «علي بن مسمار»[١٣]، واستولى على ما بها من الأموال والعتاد وطارد فلول المنهزمين إلى «الزارة»، وكان عليها «الحسن بن عوام» فاستولى عليها وأحرقها وذلك في سنة ٢٨٣هـ الموافق سنة ٨٩٦ م، وتوالت غارات «أبي سعيد» على النواحي والقرى فكان لا يظفر بقرية إلا نهبها وقتل أهلها، فهابه الناس وأجابه بعضهم وفر كثير منهم إلى بلدان شتى خوفاً من شره[١٤]، واكتسح «صفوا» وكان فيها بنو حفص من بني عبدالقيس، ثم استولى على الظهران وأحساء بني سعد بن تميم، ثم احتل جواثا وكان عليها «العريان بن هيثم الربعي»، ثم استولى على مدينة «يبرين» فأباد أهلها[١٥] .

حصار مدينة هجر ثم استيلاء «أبي سعيد» عليها :

بعد أن أخضع «أبو سعيد» معظم مدن الخط تطلع إلى احتلال مدينة هجر وهي مدينة البحرين[١٦] ومنزل سلطانها وفيها التجارة والوجوه، فنازلها شهوراً يقاتل أهلها ثم وكل بها رجلاً وارتفع فنزل الأحساء وبينها وبين هجر ميلان فابتنى بها داراً وجعلها منزلاً، وأقبل على زراعة الأرض ودعا العرب فأجابه قوم من بني كلاب ووجّه جيشاً إلى بني عقيل[١٧] وظفر بهم ودخلوا في طاعته، فلما اجتمع إليه العرب منّاهم

ملك الأرض كلها ورد إلى من أجابه من العرب ما كان أخذ منهم في المعارك من أهل وولد، ولم يرد عبداً ولا أمة ولا إبلاً ولا صبياً يزيد عمره على أربع سنين، ولم يزل يحاصر هجر ويشن عليها الغارات طيلة نيف وعشرين شهراً حتى سقطت في يده بعد أن نجح في قطع المياه عنها بتحويل مجرى العين التي تسقي حقولها إلى مياه الخليج، حينئذٍ فر بعض سكانها وركب آخرون البحر ودخل بعضهم في طاعته وخرجوا إليه فنقلهم إلى الأحساء، وبقيت طائفة لم يفروا لعجزهم ولم يدخلوا في دعوته فقتلهم وأخذ ما في المدينة وأخربها فبقيت خراباً وصارت مدينة البحرين هي الأحساء[١٨] .

وكانت الرياسة في هجر «لعياش بن سعيد»[١٩] من بني محارب و«العريان بن إبراهيم بن الزحاف» من بني عبدالقيس ومنزله بالقرب من جبل الشبعان، جاء في شرح ديوان ابن المقرب[٢٠] أن «أبا سعيد» طلب الأعيان والوجوه والقراء عندما دخل هجر بدعوى التداول معهم في إصلاح البلاد، فلما اجتمعوا أضرم عليهم النار ومن فر أخذته السيوف .

استيلاء «أبي سعيد» على عُمان :

بعد أن استكمل «أبو سعيد» سيطرته على البحرين سيَّر بعض سراياه[٢١] إلى عُمان فدخلها عنوة واستولى على قصبتها «صحار»[٢٢] ثم مد نفوذه إلى اليمامة بعد أن قضى على دولة بني «الأُخيضر» بها وصادرهم .

القرامطة والعباسيون :

على إثر تلك الإنجازات التي أحرزها «أبو سعيد» في البحرين خشي «المعتضد» على البصرة فأنفذ لقتاله «أباالعباس بن عمرو الغنوي» بسبعة آلاف من الجند والمتطوعين من البصرة، وتصدى له «أبو سعيد» بسبعمائة فارس من كلاب وعقيل وبحرانيين[٢٣]، ودارت في الموضع المعروف بـ «آفان» قرب القطيف معركة ضارية انتهت بهزيمة الجيش العباسي وأسر قائده، وقتل أكثر أفراده وغنم «أبو سعيد» ما في ذلك العسكر من المال والسلاح، ومضى المنهزمون فتاه أكثرهم في البر وهلكوا عطشاً، وورد الناجون إلى البصرة فابتاع الناس وأخذوا في الرحيل، وكان ذلك في سنة ٢٨٩هـ وقيل سنة ٢٨٨هـ الموافق سنة ٩٠١ أو ٩٠٠م[٢٤] .

رسالة «أبي سعيد» إلى الخليفة المعتضد العباسي:

أمر «أبو سعيد» بإعدام جميع الأسرى باستثناء «العباس بن عمرو الغنوي»، وقد أحضره «أبو سعيد» بعد المعركة بأيام وقال له : أتحب أن أطلقك(٢٥) ؟ قال : نعم، قال : على أن تُبلّغ عني ما أقول صاحبك، قال : أفعل، قال : تقول له الذي أنزل بجيشك ما أنزل بغيك، هذا بلد خارج عن يدك(٢٦) غلبتُ عليه وقمتُ به وكان بي من الفضل ما آخذ به غيره فما عرضت لما كان في يدك ولا هممتُ به ولا أخفتُ لك سبيلاً ولا نلتُ أحداً من رعيتك بسوء، فتوجيهك إليّ الجيوش بأي سبب؟، اعلم أني لن أخرج عن هذا البلد ولا تصل إليه وفي هذه العصابة التي معي روح، فاكفني نفسك ولا تتعرض لما ليس لك فيه فائدة ولا تصل إلى مرادك منه إلا ببلوغ القلوب الحناجر، فلما وقف «المعتضد» على ما تضمنه حديث «أبي سعيد» قال(٢٧) : صدق، ما أخذ شيئاً كان في أيدينا، ثم أطرق مفكراً وقال : كذب عدو الله الكافر، المسلمون رعيتي حيث كانوا من بلاد الله . يتضح لنا من حديث الخليفة «المعتضد» أنه كان مدركاً لحقيقة الحال في الدولة العباسية وأن بعض ولاياتها ومن بينها بلاد البحرين قد خرجت عن سلطانه، وأن واجبه كخليفة يحتم عليه أن يظل نفوذه سائداً في جميع البلاد الإسلامية .

وقد بلغ من غضب «المعتضد» ورغبته في القضاء عليه أنه كان يذكره خلال مرضه ويقول بلهفة: «حسرة في نفسي كنت أحب أن أبلغها قبل موتي، والله لقد كنت وضعت عند نفسي أن أركب ثم أخرج نحو البحرين ثم لا ألقى أحداً أطول من سيفي إلا وضربت عنقه وإني أخاف أن يكون من هناك حوادث عظيمة»، وعقد العزم على قتال «أبي سعيد» والقضاء على هذه الفتنة غير أن أحداثاً طارئة وقفت حائلاً بينه وبين بلوغ تلك الرغبة، وفي ربيع الآخر سنة ٢٨٩هـ الموافق سنة ٩٠١م وافته المنية .

إجراءات «أبي سعيد» في الحقل الداخلي(٢٨) :

بعد أن أطلق أبو سعيد «أباالعباس الغنوي» أقبل على الاستعداد لمواجهة الأحداث القادمة بإعداد السلاح وشراء الخيل ونسج الدروع وضرب السيوف والأسنة

وتدريب الرجال وتوفير المؤن، وجمع الصبيان في دور خاصة وأقام عليهم الحفظة والمعلمين وأجرى عليهم ما يحتاجون إليه ووسمهم بألاّ يختلطوا بغيرهم، ونصّب لهم عرفاء وأخذ يعلمهم ركوب الخيل وفنون الفروسية فنشأوا لا يعرفون غير الحرب(٢٩)، وقد صارت دعوته طبعاً لهم وقبض على كل مال في البلد كالثمار والحنطة والشعير وأقام رعاة للإبل والماشية ومعهم قوم لحفظها، وأجرى على أصحابه جرايات فلم يكن يصل إلى أحد أكثر مما يحتاج إليه في شؤون معاشه، وأقبل على استصلاح الأراضي الزراعية وشجع الحرفيين بمدهم بكل ما يحتاجونه من الأدوات والآلات، وأيقظ في أتباعه روح التنافس في الإنتاج وانكمش كل واحد منهم في العمل لكي يكون له الفضل في رتبته، وطلب من أتباعه تسليم جميع ما يمتلكون ويتكسبون، وحفظ الأموال في خزائن وأقام على إدارتها وصرفها أمناء أكفاء وفق نظام مرسوم وطرد الأعراب من المدينة وسد الطرق التي يُتعرف منها أحوال البلاد بالرجال، وجعل التداول في البيع والشراء بواسطة عملة من الخزف والرصاص، واتخذ لواءً من القماش الأبيض مكتوب عليه قوله تعالى «ونمنّ على الذين استضعفوا في الأرض»(٣٠) إلى آخر الآية الكريمة، فأرسى بهذه الإجراءات دعائم دولة علمانية ومجتمعاً اشتراكياً(٣١) فريداً لم يُعهد مثله في المجتمعات الإسلامية .

وقد أخذ في شن غارات خاطفة على نواحي البصرة في مهمات استطلاعية لإثارة الرعب في قلوب أهالي تلك البلاد(٣٢)، وتنقل من تظفر بهم من الرجال والنساء فيضمهم إلى خدمته فقويت شوكته وعظمت هيبته في صدور الناس، وقد دخل «أبوسعيد» مع بني ضبة في وقائع شديدة كان له في النهاية الظفر عليهم .

اغتيال «أبي سعيد الجنابي»(٣٣) :

وقد شاء الله أن يسعى «أبو سعيد الحسن بن بهرام الجنابي» إلى حتفه، فاتخذ من جند «العباس بن عمرو الغنوي» غلاماً صقلبياً لخدمته الخاصة فجعله على طعامه وشرابه، ويبدو أن هذا الغلام كان عظيم الإخلاص لصاحبه الغنوي فقرر الانتقام له،

وما زال ينتظر الفرصة المواتية لفعل ذلك حتى انفرد به ذات يوم بالحمام الكائن في بيت «ابي سعيد» فعاجله بطعنة قاتلة من خنجر كان يخفيه تحت ثيابه فأرداه قتيلاً، ثم اخذ يطلب وجوه الدولة واحداً واحداً بدعوى أن «أبا سعيد» يطلبه فإذا حضر أجهز عليه، وأخيراً تنبه لما يجري داخل الحمام رجل كان يهم بدخوله فراعه منظر الدماء تنساب في البيت الأول من الحمام، فصاح بالناس فتجمعوا واقتحموا الحمام وألقوا القبض على الصقلبي وزجوا به في السجن ثم أعدموه وكان ذلك سنة ٣٠١هـ الموافق سنة ٩١٣م[٣٤]، وكان عمر«أبي سعيد» عند اغتياله نيفاً وستين عاماً أمضى نحو ثلاثين عاماً منها في العمل على نشر مبادئ القرمطة وتأسيس أقوى دولة قرمطية احتوت جميع أراضي بلاد البحرين، كما بسطت نفوذها على عُمان والأفلاج والطائف .

أولاد «أبي سعيد»:

ترك أبو سعيد من الأولاد: «أباالقاسم سعيداً»، و«أباطاهر سليمان»، و«أبامنصور أحمد»، و«أبا إسحاق إبراهيم»، و«أباالعباس محمداً»، و«أبايعقوب يوسف»، وبنتاً تدعى «زينب».

وصية «أبي سعيد»:

كان «أبوسعيد» قد جمع رؤساء دولته[٣٥] وأوصى إن حدث به موت أن يكون القيّم بأمرهم ابنه «سعيد» إلى أن يكبر «أبوطاهر» ويتولى شؤون الدولة، فلما قتل «أبو سعيد» جرت الأمور على ما أوصى به فتسلم «سعيد» مقاليد الحكم .

****

الهوامش

(١) هم الذين ينتسبون إلى ميمون القداح، وقد اختلفت الآراء في بيان حقيقة ميمون هذا، فكتّاب السنة ينسبون الفاطميين إلى ميمون القداح ويرون أنه فارسي من الأهواز، في حين يرى إيفانوف أن ميمون هو «محمد بن إسماعيل» نفسه .

(٢) تقي الدين أحمد بن علي المقريزي : اتعاظ الحنفاء، ص ٢٧ .

(٣) المقريزي : اتعاظ الحنفاء، ص ٢٠٤ .

(٤) المقريزي : اتعاظ الحنفاء، ص ٢٠٩ .

(٥) سهيل زكار : أخبار القرامطة، ك ٢، ص ٣٨٨ .

(٦) سهيل زكار : أخبار القرامطة، ك ٢، ص ٣٨٨ .

(٧) المقريزي : اتعاظ الحنفاء، ص ٢١٥ .

(٨) جزيرة في الخليج مما يلي فارس، اتعاظ الحنفاء، ص ١٥٩ .

(٩) المقريزي : اتعاظ الحنفاء، ص ١٦٠ .

(١٠) المسعودي : التنبيه والإشراف، ص ٣٤٠ .

(١١) سهيل زكار : الجامع في أخبار القرامطة، ص ٤٦٠ .

(١٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، دار الكتاب العربي، ج ٦، ص ٩٢ .

(١٣) المسعودي : التنبيه والإشراف، ص ٣٥٦ – ٣٥٧ .

(١٤) سهيل زكار : الجامع في أخبار القرامطة، ص ١٤٩ .

(١٥) المسعودي : التنبيه والإشراف، ص ٣٤١ .

(١٦) المقريزي : اتعاظ الحنفاء، ص ٢١٥ .

(١٧) المقريزي : اتعاظ الحنفاء، ص ١٦٠ .

(١٨) ميكال يان دي خويه : القرامطة، ص ٤٧ – ٤٩ .

(١٩) ديوان ابن المقرب : ص ٥٣١ .

(٢٠) المرجع السابق : ص ٥٣١ ، والمسعودي : التنبيه والإشراف، ص ٣٥٦ – ٣٥٧ .

(٢١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج ٦، ص ٩٥ .

(٢٢) المقريزي : اتعاظ الحنفاء، ص ٢١٧ .

(٢٣) أبوالحسن المسعودي : التنبيه والإشراف، ص ٣٥٧ .

(٢٤) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج ٦، ص ٢١٨ .

(٢٥) المقريزي : اتعاظ الحنفاء، ص ٢١٨ .

(٢٦) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج ٦، ص ٩٥ .

(٢٧) المقريزي : اتعاظ الحنفاء، ص ٢١٩ .

(٢٨) سهيل زكار : الجامع في أخبار القرامطة، ص ١٤٨ .

(٢٩) سهيل زكار : الجامع في أخبار القرامطة، ص ١٤٨ .

(٣٠) سورة القصص : آية رقم ٥ .

(٣١) ميكال يان دي خويه : القرامطة، ص ١٣٢ .

(٣٢) المقريزي : اتعاظ الحنفاء، ص ١٦١ - ١٦٤ .

(٣٣) المقريزي : اتعاظ الحنفاء، ص ١٦٠ .

(٣٤) النويري : نهاية الأرب المنشور في كتاب الجامع في أخبار القرامطة، ص ٤٦٧ .

(٣٥) المقريزي : اتعاظ الحنفاء، ص ٢٢١ .

****

الفصل الثالث

الدولة الجنابية في الأحساء من الأوج إلى الزوال

أ ـ ولاية «أبي طاهر سليمان بن الحسن الجنابي»:

وفي سنة ٣٠٥هـ الموافق سنة ٩١٧م سلم «سعيد» إلى أخيه «أبي طاهر سليمان بن بهرام الجنابي» مقاليد الحكم وقيادة الحركة القرمطية إنفاذاً لوصية أبيه ونزولاً على توجيهات «عبيدالله الفاطمي»، فتبوأ «أبوطاهر» سُدة الحكم بحماس شديد يدفعه الطيش وحب المغامرة، فما كاد يفرغ من ترتيب أمور الدولة وإحكام السيطرة على ما تحت يديه من القبائل والأقطار حتى عصفت في نفسه شهوة التوسع الإقليمي وبسط النفوذ على أكبر قدر ممكن من أملاك الدولة العباسية المجاورة، كما وجه سياسته إلى تأييد «عبيدالله المهدي» في عدائه للعباسيين، فعمل على إشغالهم في المشرق بحملاته التي وجهها إلى بلادهم لكي يوفر «للمهدي» فرصة توطيد نفوذه في المغرب، فزحف على البصرة والكوفة أكثر من مرة وعاد بالغنائم[١] .

وفي سنة ٣١٦هـ سار إلى العراق وخاض مع العباسيين معارك عدة تمكن خلالها من قتل بعض كبار قادتهم من أمثال «يوسف بن أبي الساج»[٢]، واكتسح عدة مدن وأخضع الأعراب وكاد أن يستولي على بغداد نفسها لولا دهاء «مؤنس الخادم» قائد الخليفة المقتدر، الذي أخذ في إرسال زوارق مشحونة بفاكهة مسمومة فما أكل منها جند القرامطة حتى هلك منهم عدد كبير، فانكفأ راجعاً إلى الأحساء[٣] .

وتوالت غاراته على قوافل الحجيج فأوقع بها مراراً عدة وفي سنين متعددة[٤] ، وكان في كل مرة ينزل بها أفدح الخسائر في الأرواح ويغنم جميع ما معها من المؤن والأموال والسلاح على الرغم من ضخامة الجيوش العباسية التي كانت تقوم على حمايتها، بل كثيراً ما كان أفراد هذه الجيوش وقادتها أهم الفرائس وأسمنها لغارات

«أبي طاهر»، وممن وقع في أسره من كبار القادة على سبيل المثال: «جعفر بن ورقاء الشيباني»، و«ثمال» أمير البحر، و«جني الصفواني»، و«طريف السفكري» .

ولم يكتف «أبوطاهر» بما تلحقه غارات عسكره[٥] بقوافل الحجيج والعسكر المرافق لها[٦] من مأسٍ فعقد العزم على مهاجمتهم في مكة نفسها، ففي سنة ٣١٧هـ الموافق سنة ٩٢٩م رأس الحجيج القادمين من بغداد «منصور الديلمي» فدخلوا مكة آمنين، وكان «أبو طاهر» قد سار إليها على رأس ألفين وخمسمائة من أتباعه فوصلها في الثامن من ذي الحجة[٧] فأوجس من في مكة من الحجاج وغيرهم خيفة من قدومه ومنعوه من دخولها وأخذوا الأهبة لقتاله، فلما رآهم على تلك الحال تظاهر أنه جاء لقصد الحج والعمرة[٨] وأنه لا يجوز لهم أن يمنعوه عن ذلك وهو أخوهم في الإسلام .

وانتدب القرشيون من أهل مكة القاضي «أبا الإمام» للتفاوض معه فحلف له «أبوطاهر» بالأيمان الغليظة أنه قد أمنهم على أموالهم ودمائهم وأنه لا يؤذي أحداً منهم وأنه ما جاء إلا ليحج، واستثنى من هذا الأمان قادة جند السلطان فإنه لم يؤمنهم وقال: أنا لا أعذر ولا أغر من نفسي ولو أردت ذلك لأمنت أصحاب السلطان ثم غدرت بهم، ولكن لا أؤمنهم فإنهم يشربون الخمر ويلبسون الحرير ويسمعون القيان[٩] ويعينون السلطان الذي يحجب عنه الرعية ويظلم اليتيم والأرملة، وأعطاهم ختمه وصلته فازدادوا بذلك ثقة واطمئناناً فقبل الناس منه هذه الوعود وأفسحوا له حتى دخل .

ولم يكد السكون يُخيِّم على ربوع مكة حتى اندلع قتال بين القرامطة والحامية العسكرية المعنية بحماية الحجيج في أعقاب مصرع أحد عناصرهم بسبب شجار بينه وبين آخر من القرامطة، فسارع الحجيج وأهل مكة لمساعدة العسكر في قتال القرامطة وما كانت إلا ساعة حتى انهزم المكيون وهرب أميرهم وقتل منهم خلق كثير، فدخلت طائفة من القرامطة المسجد الحرام فأبادت من كان هناك، وفتح القرامطة الكعبة واقتلعوا جميع ما فيها من الذهب والفضة والمحاريب المذهبة والمنطقة الفضية المنقوشة التي كانت ضُربت عليها واقتلعوا بابي الكعبة فأخذوا ما عليهما من صفائح الذهب ثم عمدوا إلى الحجر الأسود فاقتلعوه[١٠] ونزعوا كسوة الكعبة وتقاسموها في ما بينهم .

ثم أمر «أبو طاهر» أصحابه بالنهب[11] فجمع شيئاً عظيماً من الذهب والفضة والجوهر والطيب وحمل مقدار مائة ألف جمل من هذه البضائع وأحرق الباقي، وسبى من العلويات والهاشميات وسائر الناس نحو عشرين ألف رأس، وارتحلوا من مكة بعد أن كان مكثهم بها ثمانية أيام وعادوا إلى بلادهم[12]، فحفظوا الحجر الأسود في موضع بالقطيف يدعى الجعبة[13] وظل في حوزتهم اثنين وعشرين عاماً إلا أربعة أيام حتى قام برده «سنبر بن حسن بن سنبر» في سنة ٣٣٩هـ الموافق سنة ٩٥٠م في عهد «أحمد بن سعيد الجنابي»، وقد قام بوضعه في مكانه بالمسجد «سنبر» سالف الذكر وهو يقول : «رددناه بأمر من أخذناه بمشيئته» وذلك في يوم الثلاثاء يوم النحر من سنة ٣٣٩هـ الموافق سنة ٩٥٠م .

وقد ظلت هذه الحادثة على مر الأيام رمزاً لأسوأ ما أقدم عليه الإنسان من الممارسات المشينة والجرائم الشنعاء، ولكن كيف حدثت هذه المأساة مع زعم «أبي طاهر» أن مجيئه كان لمحض الحج والعمرة وتعهده بعدم الاعتداء على الحجيج أو النيل منهم .

يرى بعض الرواة أن العدوان على الحجيج كان أمراً مبيتاً بسابق الإصرار والترصد، وأن مزاعم «أبي طاهر» تلك كانت غطاءً أخفى به نواياه الحقيقية للوصول إلى مراده بسهولة ويسر[14]، بل ربما قيل إن ما حدث جاء نتيجة لذلك الاختلاف العرضي وإن عسكر السلطان قد افتعلوه أصلاً بقصد إشراك الحجاج معهم في التصدي للقرامطة كي لا يتحملوا تبعة تلك المجابهة بمفردهم لعلمهم أن القرامطة مصممون على حربهم كما عبّر عن ذلك «أبوطاهر» نفسه، وقد اتخذوا من مصرع ذلك الغلام وسيلة لإلهاب مشاعر رجال الأمن وبعض الحجيج فالتحموا مع القرامطة في قتال مرير انتهى بتلك المأساة المروعة .

ومهما تكن الجهة المستفيدة من هذا العدوان أصلاً فإن الذي لا ريب فيه أن القرامطة حضرت إلى مكة وأقدمت على ما أقدمت عليه بنوايا عدوانية مبيتة، ولعلها أرادت بذلك أن تستغل موسم الحج باعتباره أهم الميادين الإعلامية وأكثرها اتساعاً لاستعراض قوتها باعتبارها القوة الوحيدة القادرة على التحكم في مصائر الناس

ومقدراتهم، لتحقيق المزيد من الهيبة لهم ونشر الخوف منهم في جميع الأرجاء، وكذلك بغية إهدار كرامة الخلافة العباسية وفضح ضعفها وعجزها عن حماية المقدسات ناهيك عن سائر الأراضي والبلدان، وذلك على أعلى المستويات في جميع الأوساط، هذا بالإضافة إلى رغبة القرامطة في زعزعة الإيمان عند الناس وإزالة هيبة المقدسات من نفوسهم وإضعاف شعورهم الديني[١٥]ليصبحوا بذلك أكثر استعداداً لقبول الأفكار والمبادئ القرمطية. وقد غاب عن بالهم أن أعمالهم تلك قد أحدثت في ضمير العالم الإسلامي جرحاً لم يندمل وجللت بالعار والشنار سمعة القرامطة على مر الليالي والأيام، وهذا ما تنبه له شريكهم في العقيدة والمبدأ «محمد بن عبيدالله المهدي» حين بادر إلى استنكار هذا العمل وإعلان البراءة منه ودعوة القرامطة إلى تفادي ما يمكن تفاديه من آثاره كإعادة الحجر الأسود ورد مدخرات البيت إلى أصحابها في رسالة شديدة اللهجة وجهها إلى «أبي طاهر»، فرد عليه «أبو طاهر» برسالة تَلطَّف فيها وأحاطه علماً برد بعض الأموال إلى أهل مكة واعتذر عن رد أموال الحجاج لتفرقهم في البلاد[١٦]، ولم يرد الحجر الأسود مما يشير إلى عدم وجود سلطة فعلية للعبيديين على قرامطة البحرين بالرغم من الروابط العقدية التي بينهم .

فتنة الأصبهاني وأثرها في سير الحياة القرمطية :

بينما كان «أبو طاهر» يواصل حملاته العسكرية في الأراضي الشامية، أجبرته على الإسراع في العودة إلى بلاده أزمة خطرة نشبت في أوساط القيادة القرمطية هناك وأوشكت على الإطاحة «بأبي طاهر» وتصفية وجود أسرته، وذلك أن رجلاً من كبار بني سنبر المقربين من «أبي سعيد الحسن بن بهرام الجنابي» والمطَّلعين على أدق أسراره اختلف مع «أبي حفص الشريك» زوج أخت «أبي طاهر»، ولما استحكم العداء بينهما توجه ابن سنبر إلى رجل أعجمي يدعى «زكريا الطمامي»[١٧] كما يعرف «بزكيرة الأصبهاني»، فاتفق معه على أن يمكنه من السيطرة على القرامطة ويملكه أمرهم في مقابل قيامه بقتل «أبي حفص» عدو «ابن سنبر»، وتعاهدا على ذلك، فأطلعه «ابن سنبر» على أسرار «أبي سعيد»[١٨] وعلامات الرجل الذي كان يدعو إليه ويزعم أنه المهدي،

فحضر «الأصبهاني» إلى البحرين وعرّف أبا طاهر وإخوته بأنه المهدي الذي كان أبوه يبشر بظهوره، وأقام لهم الدليل على صدق مزاعمه بذكر ما توافر له من المعلومات عن ذلك، فانخدعوا به وصدقوه ودانوا له بالسمع والطاعة .

وجمع «أبو طاهر» الناس وقال : «يا معشر الناس إنا كنا ندخل عليكم بحسب أهوائكم وهذا إلهنا وإلهكم وربنا وربكم وأشار إلى «زكيرة الأصبهاني» فإن عاقب فبحق وإن عفا فبفضل»، وعرّج على من كان عنده في البحرين من سواد الكوفة وأهل الكوفة وقال : «يا معشر الدعاة والخاصة اذكروا ما عندكم فذكروا جميع ما اتفق عليه من الأمور «عبدالله بن ميمون بن ديصان بن سعيد الغضبان» و«محمد بن سعيد بن جهار» ومنها تطبيق مبادئ القرامطة تحت ستار التشيّع والدعوة إلى «المهدي»، فإذا تحقق لهم النجاح في ذلك «صاروا في ملك وقوة أظهروا تكذيب الأنبياء وتعطيل الشرائع وقتلوا المسلمين، فأمرهم «زكيرة» بشتم الأنبياء جهرة في الأسواق كما أمر بإحراق الكتب السماوية وبراءة الذمة ممن احتفظ عنده بشيء منها، وأمر بالمنكرات وأباح المحظورات بما في ذلك الزواج من المحارم، وقال لهم : «تأهبوا فإني سائر إلى العراق لاستئصال دين محمد وقتل أتباعه فقد انقضت دولته»، كما بذل كل ما في وسعه للتحكم في مصائر ومقدرات الدولة وقتل من وجوهها وزعمائها في مدة ثمانين يوماً سبعمائة رجل في مقدمتهم أعيان بني سليمان وبني زرقان، وأمرهم بأن يعرضوا عليه نساءهم من بيت «أبي سعيد» وغيره واختار منهن من أراد، وكان من بين من اختار «زينب بنت الحسن بن بهرام الجنابي» نفسه وكان قد قتل زوجها، وبعد مدة أخبر أحد المقربين إلى بيت الجنابي ويدعى «أبو دلف» أمّ أبي طاهر بأن «زكيرة» عقد العزم على قتل جميع أولادها، فبعثت إلى «أبي طاهر» وكان في الشام لتخبره بما يبيت «الأصبهاني» له ولإخوته، فبادر بالعودة إلى البحرين لإنقاذ الموقف والقضاء على «الأصبهاني»، فجمع «أبوطاهر» إخوته وقال لهم: لقد أخطأنا في هذا الرجل وسأكشف حاله، فاستدعوه وقالوا له : إن لنا مريضاً فانظر له ليبرأ وكانوا قد أضجعوا والدتهم وغطوها برداء فلما نظر إليها قال : إن هذا المريض لا يبرأ فاقتلوه، قالوا : كذبت إنها والدتنا فقتلوه على الفور، فلما انتشر خبر قتله في الناس توافدوا على القصر لمعرفة

ما جرى، فأمر «ابن سنبر» بإغلاق باب القصر وأشرف على الناس وسألهم عن سبب تجمعهم فقالوا : قد بلغنا أنكم قتلتم الإله، قال: قد فعلنا ذلك، فلما سألوه عن السبب امتنع عن إجابتهم وقال : يا قوم لا تفضحونا وأنفسكم ولا تشمتوا بنا المسلمين وبكم وارجعوا عن جميع ما قاله لكم «أبوطاهر» إلى ما كنتم عليه وكنا من قبل ذلك، ما نحن أصحاب المهدي والدعاة إلى المهدي، والمؤمنون الشيعة فإنا كنا نتحدث بأن ستكون للمؤمنين ذلة وهي هذه، فالله الله في أنفسنا وأنفسكم فما أدخلناكم في شيء إلا بعد أن دخلنا فيه، فقالوا: نريد أن نراه مقتولاً لأنهم خافوا أن يكون في الأمر خدعة، ففتحوا الباب وأدخلوهم فرأوا «زكيرة» مقتولاً وجاءت «زينب بنت أبي سعيد» امرأة «ابن زرقان» فشقت جوفه واستخرجت كبده فأكلتها، وكان قد أمر «أبا طاهر» بقتل ابنها من زوجها الأول بيده ففعل، فقال «ابن سنبر» لـ «أبي طاهر»: فرق المال في الرؤساء وأرضهم فإن هذه سقطة عظيمة سقطناها، فأرسل «أبو طاهر» للرؤساء بالأموال واسترضاهم بها سعياً وراء التخفيف من الآثار السيئة التي تركتها هذه القضية في نفوس القرامطة ومن يدور في فلكهم .

وفي تصوري أن قصة «زكيرة الأصبهاني» هذه تمثل أول مسمار يدق في نعش الحركة القرمطية في البحرين، فقد كشفت لكثير من أتباعها حقيقة الدعوة وأساليب الخداع والتضليل التي يتم انتهاجها في سبيل نشرها وجذب الناس إليها، كما نالت كثيراً من المكانة السامية «لأبي طاهر» في نفوس أتباعه وأطفأت بريق الصورة الخلابة التي رسموها له في مخيلتهم، فبعد أن كانوا يعتبرونه حجة «المهدي» أو نائبه ويسبغون عليه أجل عبارات التعظيم والتبجيل قبل هذه الحادثة، صاروا فيما بعد يعدونه المسؤول الأول عن فضح الدعوة وتقويض أركانها واستهانت العرب به بعد ذلك التعظيم[١٩]، فصاروا بعد قصة «زكيرة» لا يهتمون بأوامره وصاروا يشربون ويسمعون القيان، ولكن من هو هذا الرجل الذي استطاع أن يتسلل إلى سدة السيادة المطلقة على مقدرات هؤلاء القرامطة بالبحرين وتصرف في شؤونهم بالصورة التي أفرزت هذه النتائج الخطرة على سير الحياة في دولتهم؟.

في تصوري أن هذا الرجل الأعجمي لم يكن شخصاً عادياً أو إنساناً يطمح إلى ملك أو سيادة، لأن خطورة التدابير التي اتخذها مع هؤلاء والتعاليم المشينة التي نشرها بينهم وقسوة الإجراءات التي مارسها مع بعضهم كقتل المئات من رجالات الدولة وأركانها، وحمله «أبا طاهر» على أن يقتل ابن أخته بيده أمور تنم عن حقد دفين ورغبة في الانتقام لشيء معين، الأمر الذي يحملني على الاعتقاد أن هذا الرجل الأصبهاني لم يكن إلا ابناً للداعية القرمطي الذي أوفده «عبدان» إلى المنطقة في بداية الدعوة وقام «أبوسعيد» بقتله صبراً للانفراد بقيادة الحركة وتولي الحكم بعد نجاحها .

وحسبنا شاهداً على صدق ما ذهبنا إليه إلى جانب القرائن السالفة الذكر أن بعض المصادر قد صرحت بأن اسم هذا الأعجمي هو«ابن أبي زكريا الطمامي» السالف الذكر.

أما كيف اعتبروه فيهم إلهاً فإن من عقائدهم الفاسدة أن الرجل منهم ربما تدرج في سلم الارتقاء حتى ينال رتبة الألوهية، بحيث يكون أولاً داعية ثم يرتقي إلى أن يكون حُجة ثم إلى الإمامة ثم يلحق برتبة الرُسل ثم يتحد بالرب فيصير رباً .

«أبوطاهر» يواصل نشاطه العسكري:

رغبة من «أبي طاهر» في استعادة ثقة الناس به ورفع معنوياتهم استأنف نشاطه العسكري، فحاول غزو مدن الساحل الشرقي كما عاود اعتراض الحجيج فتصدى لهم في «الجابرية»[٢٠] في ٢٢ من شوال سنة ٣٢٢هـ فظفر بعدة قوافل ونهب ما معها من النفائس والأموال .

وحين لاحظ أحد القرامطة ما تتركه غارات «أبي طاهر» من الآثار السيئة في سير الحركة القرمطية، وأن المستفيد الأول من تلك الغارات الأعراب الذين قلت هيبتهم للقرامطة فصاروا يفرون بكل ما تصل إليه أيديهم من أموال الحجاج وأمتعتهم تاركين لسادتهم المذلة والعار، باعتبارهم المانعين من الحج مع تعطش الناس إليه والرغبة في أدائه، اقترح على «أبي طاهر» أن يطلب من الحجيج حين يظفر بهم دفع دينار عن كل

واحد منهم ثم يأذن له بالمسير إلى الحج ويؤمن سبيلهم، لأن ذلك سيلاقي هوىً في نفوسهم وسيزيد من إقبال الناس على الحج من كل بلد، ولن يبقى ملك إلا كاتبه وهاداه واحتاج إليه في حفظ أهل بلده وخاصته، فجبى في كل سنة ما لا يصير إلى السلطان مثله من الخراج واستولى على الأرض وانقاد له الناس[٢١]، فاستصوب «أبو طاهر» هذا الرأي وقرر العمل به من تلك السنة فبادر من وقته ونادى في الناس بالأمان، وكان لهذا النداء صدى طيب في نفس الخليفة وسائر السلاطين، واتفقوا معه على أن يقوم بالإمساك عن مهاجمة بلدانهم كما يتولى خفارة الحجيج[٢٢] مقابل مقدار معلوم من المال، ففُرضت له الرسوم من الخليفة ببغداد ومن بني بضجع أمراء دمشق ومن «كافور الإخشيدي» فبلغ ما يصل إليه من كل واحد من هؤلاء ثلاثمائة ألف دينار في كل عام، كما قبل الخليفة العباسي بوجود دعاة قرامطة في بغداد من أمثال « عيسى بن موسى، وآل الغُمر»، وكان لهم من النفوذ في الخلافة ما مكنهم من التدخل حتى في اختيار من يشغل المناصب العليا في الدولة من الرجال .

وفاة «أبي طاهر» وكيف صارت الأحوال بعده في البحرين :

في رمضان سنة ٣٢٣هـ وقيل سنة ٣٣٢هـ الموافق ٩٤٤ م توفي «أبوطاهر سليمان بن الحسن بن بهرام الجنابي» وله من العمر ثمان وثلاثون سنة أمضى منها في الحكم ثمانياً وعشرين سنة زاخرة بالأحداث الجسام والحروب المرعبة، وقد أصبحت الدولة في عهده على جانب كبير من القوة واتساع النفوذ، وكان أولاد «أبي طاهر» حين وافاه الأجل صغاراً غير قادرين على النهوض بإدارة أعباء الدولة فاضطلع للقيام بهذه المهمة أخواه «أبو العباس محمد» و«أبو يعقوب يوسف»، يساعدهما سبعة وزراء يرأسهم «أبومحمد سنبر بن الحسن»، وبعد حين قام أخوهم «سعيد» بالثورة على أخويه والاستيلاء على مقاليد الحكم ولكنه لم ينجح في إحكام السيطرة على إدارة شؤون البلاد، فهب أخوهم «أحمد» للإطاحة به بالتعاون مع كبار القرامطة والاستعانة بتوجيه العُبيديين الفاطميين، وجرى الاتفاق على أن يظل «أحمد بن الحسن» يمارس مهام الحكم حتى يكبر «سابور بن سليمان» فيسلمه له باعتباره ولي عهد أبيه.

ولم يكن جميع كبار القرامطة على قناعة بسلامة هذا الإجراء فانقسموا إلى فريقين، فريق فيه أبناء «أبي طاهر سليمان بن الحسن» وعلى رأسهم «سابور» وعمه «أحمد» ومعهم بعض كبار القرامطة ويسمون العقدانية ببقائهم على عقيدة أسلافهم في موالاة «العبيديين»، وفريق آخر في مقدمتهم «سعيد بن الحسن بن بهرام الجنابي» ورأي هؤلاء ضرورة الالتزام بالاستقلال التام وممارسة الحكم بمفاهيم محلية خالصة لا سلطان عليها لأي قوة خارجية، وكان هذا الخلاف أول صدع في بناء هذه الدولة حيث تلته سلسلة من النزاعات التي كادت تعصف بوجودها وتقضي عليها .

فقد أبى «سعيد» الإذعان لهذه الترتيبات وأعد جيشاً من مؤيديه سار به إلى عُمان فاستولى عليها، ولكن «أحمد» سيّر إليه جيشاً بقيادة ابنه «الحسن» الملقب «بالأعصم» وهناك دارت بين الجيشين معركة حامية الوطيس أسفرت عن هزيمة «سعيد»، فعادت المناطق التي استولى عليها لنفوذ الحكومة المركزية في البحرين .

كما سار «الأعصم» بتكليف من أبيه إلى الشام على رأس جيش لتأديب «ابن طغج»[٢٣] الذي أظهر مساندة واضحة لسعيد في مواقفه السياسية ونشاطه العسكري ضد الدولة، فالتقى «الأعصم» بابن طغج في قتال ضارٍ كان في نهايته الظفر «للأعصم» فأرغم «ابن طغج» على الالتزام بدفع إتاوة سنوية قدرها ثلاثمائة ألف دينار، ولكن العلاقة بينهما اتخذت فيما بعد طابعاً ودياً فتزوج الحسن من ابنة «ابن طغج»، وكان «الأعصم» قد استولى على الرملة وعيّن لإدارة شؤونها «وشاح السلمي» ومن ثم أقبل عائداً إلى البحرين وذلك في ذي القعدة سنة ٣٥٨هـ الموافق سنة ٩٦٨م، وخلال هذه الأحداث كان «سابور بن سليمان» قد شبّ عن الطوق فعبر عن رغبته في تسلّم مقاليد السلطة ولكنه لم يجد من عمه «أحمد» أذناً صاغية، ورأى في النفوذ المتزايد للأعصم مؤشراً واضحاً على أنه لن يُمكّن منها أبداً فقرر انتزاع الحكم من عمه بالقوة، فأعلن الثورة سنة ٣٥٨هـ وقبض على عمه «أحمد» فأودعه السجن، ولكن «أحمد» بعد حين استطاع الفرار من سجنه بمساعدة أحد إخوته فاعتقل «سابور» ورمى به في السجن حتى مات[٢٤] .

أما إخوة «سابور» وكبار مؤيديه فقد أُجبروا على الإقامة في جزيرة أوال وكان عددهم ثلاثمائة رجل، وبعد ذلك تمكن «أحمد» من فرض سلطته على كامل أراضي الدولة ودخلت في طاعته جميع القبائل، وفي سنة ٣٥٩هـ مات «أحمد بن الحسن بن بهرام الجنابي» وكان قد عهد بالحكم بعده لابنه «الحسن الأعصم».

ب. الحركة القرمطية في ظل ولاية «الأعصم»:

بلغت الدولة الجنابية في البحرين في عهد «الأعصم» هذا أوج قوتها في الحقلين الداخلي والخارجي، فقد استكملت البلاد نموها العمراني والاقتصادي كما ازدادت الأعمال العسكرية قوة واتساعاً، ولم تعد العراق وطرق الحجيج مسرح تلك العمليات العسكرية كما كان الحال في عهد «أبي طاهر» بل صارت مصر والشام مسرح ذلك النشاط، ففي سنة ٣٥٨هـ الموافق ٩٦٩ م استولى على مصر «جوهر الصقلي» لحساب سيده «المعز لدين الله العبيدي»، فأنفذ «جعفر بن فلاح الكتامي» على رأس جيش إلى الشام واحتل دمشق وفلسطين وكثيراً من الأراضي السورية واعتقل «ابن طغج»، فاستطال «جوهر» بتلك المكاسب على الناس واستبد به الغرور وقرر قطع الرسوم المالية المقررة لقرامطة البحرين من مصر والشام، وأظهر الاستخفاف بهم وقال عنهم حين ذكروا عنده وذكرت الجزية التي لهم على سيده «من هؤلاء الكلاب؟» الآن أُنفذ «كتامة» إلى الأحساء فيشدون براذينهم على أبوابهم ويوثقونهم[٢٥]، وفي ذات الوقت وصل إلى الأحساء كل من «ظالم بن موغوب العقيلي» و«محمد بن عصودة» قادمين من دمشق بعد سقوطها في يد المغاربة، وحثا «الأعصم» على تحرير الشام من أيديهم .

ووافق على ذلك وتأهب للمسير إلى هناك وعمل على تحسين علاقته بالعباسيين فسمح بأن تكون الخطبة في مكة للخليفة «المطيع لله العباسي» وللقرامطة الهجريين على السواء[٢٦] وذلك في سنة ٣٥٩هـ ٩٧٠ م، كما أرسل «أبا طريف عُدي بن محمد بن الغُمر» إلى الوزير العباسي «أبي الفرج محمد بن العباس» و«عزالدولة باختيار» يطلب منهما إسعافه بالمال والرجال، وكان البلاط العباسي في ذعر من تنامي قوة العبيديين واستيلائهم على الشام وتهديدهم حاضرة الخلافة، فوجد في طلب «الأعصم» فرصة

سانحة لإيقاف هذا الخطر أو دحره، وبدافع من التقاء المصالح أبدى الخليفة استعداده لمساعدة «الأعصم» فأمر له بمال وسلاح وأعطاه حوالة بمبلغ أربعمائة ألف درهم على أمير الرحبة «أبي تغلب بن ناصر بن حمدان»، فرحل «ابوعلي الحسن الأعصم» من الكوفة وقد أظهر الولاء للخلافة العباسية فاتخذوا أعلاماً سوداً[٢٧] تحمل شعارهم وعليها مكتوب اسم الخليفة «المطيع» وتحته مكتوب السادة الراجعون إلى الحق[٢٨]، وحين وصل «الرحبة» رحب به أميرها وأعطاه المال المُحال به عليه[٢٩]، وأبدى استعداده للقتال معه متى شاء ذلك، كما حث أتباعه على المسير مع «الأعصم» والقتال إلى جانبه، فهب للانخراط في جيش «الأعصم» جماعة من عسكر «ابن تغلب» فيهم كثير من الإخشيدية الذين جاءوا إلى «أبي تغلب» بعد زوال دولتهم على يد العبيديين، وتعود مؤازرة «ابن تغلب» للأعصم إلى مراسلات جرت بينه وبين «جعفر بن فلاح» أغلظ «ابن فلاح» فيها على «ابن تغلب» وتهدده بالمسير إليه .

سُرَّ «الأعصم» بهذه التطورات فسار عن الرحبة حتى دنا من أرض دمشق ووصل إلى ضياع المرج، فظفرت خيله بجماعة من المغاربة يقودهم رجل يُقال له «علي بن مولاه» فأفنوهم جميعاً فغشيت الذلة والانكسار المغاربة، وكتب «الأعصم» إلى «جعفر بن فلاح» كتاباً يخيره بين الاستسلام أو الحرب، بيد أن «جعفر بن فلاح» لم يهتم بكتاب «الأعصم» وأظهر الاستخفاف به وبجموعه، فتقدم «ظالم بن موهوب العقيلي» على رأس جماعة من عشيرته وبني كلب فالتحم بالمغاربة في صحراء «المزة» وأقبل «شبل بن معروف العقيلي» مُعيناً «لظالم»، ولم يزل القتال بينهم إلى أن أقبل «الحسن بن أحمد الأعصم» فاشتد ساعد العقيليين واستعر أوار القتال فدارت الدائرة على المغاربة وكثر فيهم القتل، وعثر على «ابن فلاح» صريعاً بين القتلى دون أن يُعرف قاتله في الموضع المعروف «بالدكة»، واشتغلت العرب بنهب العسكر وذلك في يوم الخميس سابع ذي القعدة سنة ٣٦٠هـ .

ودخل «الأعصم» دمشق وأمّن أهلها وأحسن السيرة فيهم ولعن «المعز» على منبر دمشق وخطب للمطيع، ثم سار «الأعصم» من دمشق قاصداً «الرملة» وكان «جوهر

الصقلي» قد أنفذ من مصر رجلاً من المغاربة يدعى «سعادة بن حيان» على رأس أحد عشر ألف مقاتل، فلما بلغ «ابن حيان» خبر الهزيمة وقتل «جعفر بن فلاح» تحيّر وتقطّعت به الأسباب ودخل في يافا، ثم قصده «الحسن بن الأعصم» هناك فنزل بظاهر المدينة واجتمعت عليه عرب الشام وطوّق يافا بالحصار حتى أوشك ما بها من الأقوات على النفاد، فأبقى «الأعصم» على حصارها «أبا المنجا» و«ظالماً العقيلي» أما هو فقد ولّى وجهه شطر مصر .

مسير «الأعصم» إلى مصر بعد استيلائه على الشام :

لما بلغت «جوهر الصقلي» أخبار استيلاء القرامطة على دمشق وتضييق الحصار على «سعادة بن حيان» في يافا أيقن أن القرامطة زاحفون على مصر، فراجت فيها الإشاعات بذلك، فعمد إلى اتخاذ الإجراءات الاحتياطية والاستعداد للمقاومة فحصّن مدينة «القاهرة» بسور منيع وخنادق عميقة[٣٠] وفرّق السلاح على أتباعه .

وفي ذي الحجة سنة ٣٦٠هـ الموافق سنة ٩٧٠م استولت طلائع جيوش «الأعصم» على مدينة السويس[٣١]، وفي محرم سنة ٣٦١هـ الموافق ٩٧٢ م استولى القرامطة على مدينة الفرما، وانتشرت عساكر القرامطة في الأراضي المصرية وتعقبوا المنهزمين منهم إلى عين شمس، فتأهب «جوهر» لمقاومتهم وأخذ الحيطة منهم فأغلق أبواب الطابية وشدد الرقابة على المدينة[٣٢] .

وفي صفر سنة ٣٦١هـ الموافق ٩٧٢ م نشب القتال بين القرامطة والعبيديين على أبواب القاهرة وجرت معارك بين الطرفين انتهت بإخفاق «الأعصم» في الاستيلاء على القاهرة، وفي ذات الوقت كان «المعز» يعمل في الخفاء لإضعاف القرامطة بإشعال الفتنة والخلاف بينهم، فقد كتب إلى أبناء «أبي طاهر» المنفيين في جزيرة أوال كتاباً يتضمن تنحية «الأعصم» عن شؤون الدعوة وإسنادها إليهم، فساروا من أوال إلى الأحساء ونهبوها، فلما بلغ «الأعصم» أخبار تلك الحركة عاد إلى الأحساء وأجبر المتمردين على العودة إلى أوال .

وفي سنة ٣٦٢هـ عاد «الأعصم» من الأحساء إلى الشام فنزل الرملة وتأهب للمسير إلى مصر[٣٣]، فسيّر إليها طلائع المقاتلين بالسفن وأخذ في حشد المقاتلين من العرب وغيرهم، وكان «جوهر» يكتب إلى «المعز لدين الله» بالقيروان بما جرى على عسكره من القتل والحصار، وأن «الحسن بن أحمد» يقاتلهم على خندق عسكره، وقد أشرف على أخذ مصر فقلق «المعز» من تلك الأخبار قلقاً شديداً، وجمع العساكر من كل مكان وسار إلى مصر، ودخلها في يوم الثلاثاء السادس من رمضان سنة ٣٦٢هـ ٩٧٣م، وكان شديد الخوف من «الحسن بن أحمد الأعصم»[٣٤] فلما نزل مصر عزم على أن يكتب إليه كتاباً يعرّفه فيه أن المذهب واحد وأنهم منهم استمدوا وأنهم سادتهم في هذا الأمر[٣٥]، وبهم وصلوا إلى هذه المرتبة، ويعظه ويبالغ في تهديده في كلام مسهب محشو بأنواع الكفر والضلالات، ولما قرأه «الأعصم» سخر منه وأجابه بكتاب موجز نصه: «وصل إلينا كتابك الذي كثر تفصيله وقل تحصيله ونحن سائرون على إثره والسلام».

ولعل «المعز» أراد بذلك الكتاب أن يعرف ما في نفس «الأعصم» وعما إذا كان قد هابه بعد أن وصل إلى مصر أم لا، وفي ربيع الآخر سنة ٣٦٣هـ الموافق ٩٧٤م كثر انتشار القرامطة في أعمال مصر، واشتعلت أرض مصر بحروب القرامطة، وأقبل «الأعصم» على رأس جيش كبير فيه كثير من عشائر البادية «كطي» وغيرها، والتحم مع جيوش «المعز» في معارك كثيرة[٣٦] انتهت بهزيمة «الأعصم» وانسحابه من مصر[٣٧]. وتشير إحدى الروايات أن انسحاب «الأعصم» من هناك جاء نتيجة لتسوية سلمية استرضى فيها «المعز» «الأعصم» بمبلغ من المال بعد أن جرت بين الطرفين مناوشات أجبرت «المعز» على التراجع إلى مدينة القاهرة والاعتصام بها .

ومهما تكن نتيجة تلك الصراعات فقد انتهج «المعز» سياسة جديدة تجاه أعداء اليوم وأصدقاء الأمس فسعى إلى إزالة أسباب الخلاف معهم، وفي هذا الإطار أطلق سراح من كان لديه من أسراهم وأكرمهم وكان من أبرزهم «أبوالمنجا» فقد استدعاه «المعز» بعد إطلاق سراحه في الخامس من محرم سنة ٣٦٤هـ الموافق ٩٧٥م ، وأنعم

عليه بالهبات السخية وكلفه ان يبذل كل ما في وسعه للعمل على رأب الصدع الذي منيت به علاقة العبيديين برؤساء البحرين، كما ضمن لهم إتاوة سنوية تحمل إليهم، وصادف ذلك هوىً في نفس «الأعصم» لأن أزمة حادة قد نشبت بينه وبين الخلافة العباسية، سببها في ما أرى أن «عضد الدولة بن خسرو بن ركن الدولة علي بن بابويه» حين علم بفشل مساعي «الأعصم» في الاستيلاء على مصر ورجوعه إلى الشام[٣٨] خائباً رغب في الاستيلاء على الأحساء، وأرسل لاحتلالها جيشاً جراراً، وكان واليها من قبل «الأعصم» عمه «أبا يعقوب يوسف» فتصدى للمهاجمين ولكنه لاذ بالفرار من الأحساء لما وجد نفسه عاجزاً عن صد هجوم العباسيين عليهم، حينذاك بادر «الأعصم» للعودة إلى بلاده لمعالجة الوضع فجمع فلول المنهزمين وعمل بالتنسيق مع عمه «أبي يعقوب» على قتال العباسيين وإجلائهم عن البلاد، فتم له ما أراد في إثر معركة طاحنة دارت رحاها بين الطرفين .

وقد أحس «الأعصم» بعد انتصاره في تلك المعركة بدماء الثقة تتدفق في شرايينه من جديد، فأرسل إلى رجال العشائر يدعوهم للقدوم عليه والتكتل حوله، فبادروا إلى ذلك، وكأني بالعباسيين حين علموا بإخفاق «الأعصم» في تقليم أظافر العبيديين أيقنوا أن الشام ستقع لا محالة في قبضتهم وأن العباسيين سيجدون أنفسهم حينذاك بين العبيديين في الشمال والقرامطة في الجنوب، وأنه متى تحسنت العلاقة بين هاتين القوتين ستصبح الخلافة العباسية بلا شك لقمة سائغة لهم .

لذا رأى «عضد الدولة» السالف الذكر أن يمنع هذا الخطر الداهم بالقضاء على إحدى هاتين القوتين، فاستغل فرصة ضعف القرامطة في هذه الفترة فسعى للإطاحة بهم والقضاء عليهم في عقر دارهم، ولكن مساعيه لم تكلل بالنجاح فذهبت أدراج الرياح .

عودة «الأعصم» إلى الشام من جديد ووفاته هناك :

كان أهل دمشق قد ولوا عليهم رجلاً من أصل تركي يدعا «الباكتين الشرابي» وقد أحسن فيهم السيرة فأحبوه، وكان في بداية أمره يكاتب «المعز» ويهادنه، ولما مات

«المعز» سنة ٣٦٥هـ كاتبه «العزيز» ودعاه للقدوم عليه والانضواء تحت نفوذه، ولكن «الباكتين» رفض ذلك وعبر عن تمسكه باستقلال بلاده فغضب «العزيز» من جوابه، وسيّر جيشاً لقتاله بقيادة «جوهر الصقلي»، وبلغ «الباكتين» ذلك فجمع وجوه الدماشقة وتشاور معهم في ما ينبغي اتخاذه إزاء تهديد الحاكم «العبيدي» لهم، فأشاروا عليه بضرورة الدفاع عن البلاد واستعدادهم للتضحية في سبيل ذلك انطلاقاً من اختلافهم مع العبيديين في العقيدة والمذهب، ونتيجة لما نالوه على أيدي عمالهم من سوء المعاملة أثناء خضوع الشام لسيطرتهم، وحين اقترب «جوهر» من دمشق خرج إليه «الباكتين» في أصحابه ومن معه من العرب ودارت بينهم مناوشات على مدى شهرين، ثم أشار أهل دمشق على «الباكتين» بمكاتبة «الحسن بن أحمد الأعصم» ففعل، وقد أجابه «الأعصم» إلى ما طلب، فأعد جيشاً سيّره إلى الشام لنجدة أهلها فيه من أبناء عمه «إسحاق، وكسرى، وجعفر» وذلك في سنة ٣٦٥هـ الموافق ٩٧٦م، فنزلوا ظاهر دمشق ولقي «الباكتين» القرامطة فأنعم عليهم بالأموال وأكرمهم وأمّلهم، فمكثوا بدمشق أياماً ثم ساروا قاصدين الرملة ففر منها عامل العبيديين «أبومحمود بن إبراهيم بن جعفر» واعتصم بيافا ونشب القتال ضارياً بينه وبين القرامطة حتى كلّ الفريقان .

وقد اتخذ القرامطة من يافا مقراً لإقامتهم وشرعوا في جباية الأموال، وبعد مدة غادر «إسحاق وكسرى» القرمطيان الشام متوجهين إلى بلادهم وانضم «جعفر» بمن معه إلى جانب «الباكتين» في طبرية، وقد نزل «جوهر» بالرملة بعد أن فارق القرامطة، وسار في إثر «الباكتين» و«جعفر» إلى دمشق، ونزل بظاهر الشمّاسية ودارت بين الفريقين مناوشات واستمروا على هذا الحال إلى جمادى الأولى سنة ٣٦٦هـ الموافق ٩٧٧م، وفي هذه الأثناء وردت البشارة على «جعفر» بأن ابن عمه «الحسن بن أحمد الأعصم» في الطريق إلى الشام، ولما صح الخبر بذلك حاول «جوهر» الاعتصام بمكان آمن فدخل زيتون الرملة وتحصن بها، وسار «الباكتين» من دمشق في إثر «الحسن» فأدركه في الرملة، وهناك أدركت «الحسن بن أحمد» الوفاة فمات في يوم الأربعاء ٢٣ من رجب سنة ٣٦٦هـ الموافق سنة ٩٧٧م .

وتولى أمر القرامطة من بعده ابن عمه «جعفر» فتكاتف مع «الباكتين» على محاربة «جوهر» وانضم إليهما من الأعراب زهاء خمسين الف مقاتل فحاصروا «جوهراً» ومن معه بعسقلان، واحتال القائد العبيدي في الخلاص من هذا المأزق فراسل «الباكتين» وطلب مقابلته فأجابه ، واستطاع بدهائه التأثير في «الباكتين» وإقناعه بتمكينهم من الخروج من عسقلان والسير إلى مصر بمن معه، وعاد «الباكتين» إلى «جعفر» فأخبره فاستاء «جعفر» من ذلك وعنّف «الباكتين» ونصحه بالعدول عن الاتفاق، وأخبره بأن في ذلك خديعة لأن «جوهراً» صاحب مكر، فقال «الباكتين»: قد كان ما كان وحلفت له وما أغدر به، وخرج «جوهر» وأصحابه من تحت سيف «الباكتين» ورمح القرامطة وساروا إلى مصر، واجتمع «جوهر» «بالعزيز» وشرح له الحال وقال له «العزيز»: ما الرأي ؟ قال: أن تخرج بنفسك وإلاّ فإنهم واردون على إثري، فسار «العزيز» على رأس جيش إلى الشام وبعد معارك طاحنة بينه وبين «الباكتين» والقرامطة نجح «العزيز» في إنزال الهزيمة بخصومه، واصطحب «الباكتين» معه إلى مصر وحاول استمالة رئيس القرامطة إليه فأبى ذلك وسار إلى بلده الأحساء مصطحباً معه جثمان «الأعصم» لدفنه هناك .

ج ـ الحركة القرمطية في ظل أحفاد «أبي سعيد الجنابي»

لقد كانت حروب القرامطة في الشام سنة ٣٦٦هـ الموافق ٩٧٧م نهاية الفصول في مسلسل الرعب الذي سطّره هؤلاء في سجل الحروب والمعارك التي دارت رحاها في الأراضي الممتدة من سواحل البحر الأخضر «الخليج العربي» حتى سواحل البحر الأبيض المتوسط . إن قدرة الدولة العبيدية الفاطمية على إثبات وجودها في مصر والشام وظهورها كقوة منافسة للدولة العباسية، وعجز كل من هاتين الدولتين عن إحراز نصر حاسم على الدولة الأخرى، وإدراك الدولة الجنابية القرمطية أهمية الوقوف على الحياد بينهما وعدم الانحياز لأي منهما، ومحاولة الاستفادة من الطرفين جراء اتخاذها هذا الموقف ، كل هذه كانت أسباباً أجبرت جميع الأطراف على محاولة تخفيف حدة التوتر في ما بينها.

كما حملت قرامطة البحرين على قبول المبالغ المالية التي التزم بحملها إليهم كل من العبيديين في مصر والعباسيين في بغداد، وقبول الإقطاعات الواسعة التي أقطعها لهم العباسيون من الأراضي العراقية، وعدم الحد من نشاط دعاتهم في هذه المناطق والسماح بوجود ممثلين لهم فيها نظير إنهاء أعمالهم العسكرية ضد العبيديين والعباسيين على السواء، وظلت الأحوال تسير في هذا السياق إلى سنة ٣٧٥هـ الموافق ٩٨٦م، حينذاك كان نشاط ممثل القرامطة في بغداد «أبي بكر بن شاهويه»(٣٩) قد تجاوز الحد المعقول حيث أصبح من أعتى مراكز القوى التي صارت تتحكم دون تحفظ في شؤون الخلافة، الأمر الذي دفع «صمام الدولة بن بابويه» للقبض عليه وإيداعه السجن في محاولة لوضع حد لنشاطه المتزايد، ولكن هذا الإجراء أزعج السلطات في البحرين فأعدت جيشاً سيّرته إلى العراق بقيادة عضوي مجلس السيادة «إسحاق وجعفر»، ولما وصلا إلى الكوفة وبثا أصحابهما في جباية الخراج كتب إليهما «صمام الدولة بن بابويه» بدافع الهيبة والخوف كتاباً رقيقاً يستفسر فيه منهما عن سبب مجيئهما إلى العراق، فردا عليه بخطاب شديد اللهجة عرّفاه فيه أن سبب مجيئهما يكمن في اعتقاله لسفير القرامطة «أبي بكر بن شاهويه» وذلك سنة ٣٧٥هـ الموافق ٩٨٦م ، ومن الكوفة سيّر هؤلاء كتيبة بقيادة «أبي قيس الحسن بن المنذر»، ولما وصلت الكتيبة إلى الجامعين تصدى لهم «صمام الدولة» في جيش جرار من العرب والأتراك يقوده «إبراهيم بن مرح العقيلي» و«أبو القاسم بن زعفران» و«أبو الفضل المظفر»، ودارت بين الفريقين معركة بالغة العنف استطاع «إبراهيم» اختراق القوات القرمطية فهزمها وأسر قائدها «أبا قيس» وبعض القادة.

حينئذ لم ير القرامطة مندوحة غير العودة من الكوفة إلى بلادهم وجهزوا جيشاً آخر زحف على العراق حيث تصدت له عساكر «صمام الدولة» في الجامعين أيضاً، وبعد قتال ضار حاقت الهزيمة بالقرامطة فقتل قائدهم ووقع عدد منهم في الأسر، فساروا إلى الكوفة، وبعد أيام قليلة أقفلوا عائدين إلى البحرين مجللين بعار الهزيمة التي أدخلت دولتهم في مرحلة التلاشي والانحطاط حتى أفل نجمها تماماً من آخر معاقلها في الأحساء على يد العيونيين سنة ٤٦٦هـ الموافق ١٠٧٤م .

د ـ زوال الحركة القرمطية ودور أبناء شرقي الجزيرة العربية في القضاء عليها ومحو آثارها:

لم يكن دور أبناء شرقي الجزيرة العربية في القضاء على الحركة القرمطية مع ما كان لها من القوة وسعة النفوذ أمراً بسيطاً أو عادياً، فقد أزالت هذه الحركة بقهر السلاح والإرهاب عدة إمارات وممالك في شرق الجزيرة العربية ووسطها، واتخذت من الحجاز والعراق ومصر والشام مسرحاً لنشاطاتها العسكرية والإرهابية، كل ذلك دون أن يستطيع المسلمون على كثرتهم وضع حد لتلك الجرائم الشنعاء والأعمال المنكرة، حتى وصل استشراء النشاط الحربي لهؤلاء القوم حداً جعل الخليفة العباسي في بغداد والسلطان العبيدي في مصر على قناعة تامة بأن عروشهم ستصير ساحة لسنابك خيول هؤلاء القوم إن لم يرضخوا لمطالبهم، فاسترضوهم بالرسوم والإتاوات وأقطعوهم الإقطاعات وأفسحوا لدعاة حركتهم المجال لممارسة أنشطة الدعوة وبسط النفوذ على أجهزة الدولة حتى في بغداد نفسها .

أقول إن القضاء على هذه الحركة مع ما كان لها من الجبروت وقوة السلطان وما قامت به من أعمال إرهابية وعسكرية على مدى مائة وسبعين عاماً لم يكن بالأمر السهل أو اليسير، وهو إنجاز استطاع تحقيقه بعد جهاد طويل أبناء شرقي الجزيرة العربية وفي مقدمتهم عشائر عبدالقيس، بل إن المقاومة لم تتوقف تماماً أو يخبو أوارها، فقد كان أدنى مراتبها المقاومة السلبية المتمثلة في عزوف عبدالقيس وهم الغالبية والكثرة من سكان المنطقة عن المشاركة في خدمة النظام القرمطي أو دعم أنشطته بأي صورة من الصور، فلم تشر المصادر إلى جماعة منهم أو رجل من أعيانهم كان له في ذلك النظام اسم أو مقام، في الوقت الذي هبت فيه كثير من العشائر من خارج المنطقة للانخراط في ركابهم، وإن كان الجامع المشترك بين هذه العشائر والقرامطة مجرد النهب والسلب ومغانم الغزو دون العقيدة والمبدأ .

وإلى جانب هذه المقاومة السلبية تأتي المقاومة الفعلية حيث صمد بعض الأهالي في المنطقة ضد التيار القرمطي وظلوا محافظين على دينهم وعقيدتهم يلاقون في ذلك صنوف الاضطهاد والامتحان، كما كانت تظهر بين الفينة والأخرى من بينهم بعض

العناصر التي تحاول البروز والمقاومة وإن كان القضاء عليها يتم بسرعة، كما عمد الفارون بدينهم من وجه «أبي سعيد» إلى ممارسة الجهاد بأساليب مختلفة، فمنهم من ذهب إلى البصرة وانضم إلى أول حملة يوجهها الخليفة «المعتضد» بقيادة «الغنوي» لقمع «أبي سعيد»، ومنهم من فر إلى الهند يمارس الدعوة إلى الله حسب طاقته واجتهاده، ومنهم من يمم وجهه شطر السواحل الإفريقية لينشر الإسلام ويؤسس المدن مثل مدينة «مقديشيو» التي أسسها كما تذكر المصادر ستة إخوة أحسائيين من بيت واحد(٤٠)، ومنهم من لجأ إلى جزيرة أوال وعكف على تنظيم الخلايا السرية للمقاومة وترسيخ فكر السنة بعقد الحلقات الدينية وتدريس العلوم الشرعية وبخاصة فقه «أبي حنيفة النعمان»، يجري ذلك بسرية تامة في منأى عن أعين الرقباء، حتى إذا أخذت أعراض الضعف تظهر على النظام القرمطي بسبب ما كان قد أصيب به من خلل أخلاقي واجتماعي وسياسي على يد «زكيرة الأصبهاني» السالف الذكر، وبسبب إخلاد أصحاب هذا النظام إلى الراحة والسكون بعد تجميد أنشطتهم العسكرية ضد العباسيين والعبيديين الفاطميين، وما أعقب ذلك من تدني مستوى الاهتمام بالجيش والسلاح كماً وكيفاً، إلى جانب نشوب الصراعات على السلطة بين أمرائهم، وقبولهم بوجود بعض قرامطة اليمن للإقامة بينهم وإشراكهم في السلطة معهم، وفتور العلاقة بينهم وبين الأعراب الذين يجنون معهم فوائد الحروب وما يظفرون به من الغنائم .

حينذاك بدأ النشاط السري للمقاومة أكثر وضوحاً، فأخذ الفقهاء يتصلون بالبارزين من رجال العشائر يؤلبونهم على القرامطة ويرغّبونهم في الاستيلاء على ملكهم ويحذرونهم من الوقوع في براثن أصحاب الدعوات المشبوهة .

هذا الفقيه الحنفي «أبوبكر محمد بن محمد النيسابوري» يتصل بـ «الأصفر» (الأصغر) رئيس «المنتفق» ويحثه على مهاجمة القرامطة في الأحساء، ويرافقه في حصاره لها سنة ٣٧٨هـ وينصحه بعدم التعاون مع حاكم مصر الملقب بالعزيز حين حاول استمالته إليه وضمه إلى دعوته، ورغم أن «الأصفر» لم يتمكن من فتح الأحساء فإن هذه المحاولة تعتبر الخطوة الأولى في طريق العمل على إزالة الوجود القرمطي من

شرق الجزيرة، فقد نجح «بنو ثعلب» ثم «بنو عقيل» في السيطرة على شؤون الصحراء وخفارة القوافل والحجيج مستأثرين بالرسوم المخصصة لهذا الغرض من الملوك والسلاطين، وبالتالي تقلص نفوذ القرامطة وانحصر في حواضر البلاد .

كما بدت أنظمتهم في الإدارة والمال تُمنى بالضعف والانحلال وفقدوا كثيراً من مواردهم ولم يعودوا قادرين على الاستئثار بولاء جميع القبائل لعجزهم عن توفير الأموال الكافية لإرضاء رغباتهم، كما ارتخت قبضتهم على مصادر الدخل وعجزوا عن الصمود أمام نزوع بعض المواطنين إلى ممارسة الاقتصاد الحر في كافة الميادين الاقتصادية وفرص الاستثمار، فلجأ القرامطة إلى فرض الإتاوات والرسوم وسمحوا بوجود الضمناء لذلك، فظهرت على المسرح طبقة من أهل المال والثراء وبين هؤلاء من كان على دين الله، وكانت الإطاحة بالنظام القرمطي أجلّ أهدافه فسخّر ثروته ونفوذه لهذا الغرض لاستمالة الأتباع والأنصار من أهل الدين، فدخلت المقاومة في مرحلة جديدة من العمل الجاد وتركزت عناصرها في ثلاث مناطق من البلاد هي «العيون والخط وجزيرة أوال»، وقد كانت الأخيرة أسبق المناطق لأخذ زمام المبادرة في حركة التحرير والجهاد .

تم ذلك على يد طائفة مؤمنة من أهل السنة والجماعة المتقلدين لمذهب «أبي حنيفة» وذلك بقيادة «العوام بن محمد بن يوسف الزجاج» الملقب «بأبي البهلول»، وهو ما سنراه في الفصول الآتية .

****

الهوامش

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج ٦، ص ١٧٥ .

(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج ٧، ص ٢٩ .

(٣) المقريزي : اتعاظ الحنفاء، ص ٢٤١ .

(٤) ميكال يان دي خويه : ص ٨٠ .

(٥) سهيل زكار : أخبار القرامطة، ص ٤٩٤ .

(٦) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج ٦، ص ١٧٥ .

(٧) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج ٦، ص ٢٠٤ .

(٨) سهيل زكار : أخبار القرامطة، ص٣٠٤ .

(٩) سهيل زكار : أخبار القرامطة، ص ٣٠٤ .

(١٠) المسعودي : التنبيه والإشراف، ص ٣٥٠ .

(١١) المقريزي : اتعاظ الحنفاء، ص ١٨٥ .

(١٢) سهيل زكار : أخبار القرامطة، ص٣٤٤ .

(١٣) محمود شاكر : البحرين، ص ١٠٧، ١٠٨ .

(١٤) المسعودي : التنبيه والإشراف، ص ٣٥٠ .

(١٥) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج ٦، ص ٢٠٤ .

(١٦) سهيل زكار : أخبار القرامطة، ص ٣٢٤ .

(١٧) المسعودي : التنبيه والإشراف، ص ٣٥٥ .

(١٨) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج ٦، ص ٢٦٨ .

(١٩) سهيل زكار : الجامع في أخبار القرامطة، ص ١٥٤ .

(٢٠) موضع بالأحساء على بعد ٢٠٠كم عن حاضرتها .

(٢١) المقريزي : اتعاظ الحنفاء، ص ٢٤٥ .

(٢٢) محيي الدين اللاذقي : ثلاثية الحلم القرمطي .

(٢٣) المقريزي : اتعاظ الحنفاء، ص ٢٤٨ .

(٢٤) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج ٤، ص ٣٥ .

(٢٥) سهيل زكار : أخبار القرامطة، ص ٣٢٧ .

(٢٦) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج ٧، ص ٤٠ .

(٢٧) ميكال خويه : القرامطة، ص١٥٣ .

(٢٨) سهيل زكار : الجامع في أخبار القرامطة، ص ٣١٢ .

(٢٩) سهيل زكار : أخبار القرامطة، ص ٥٠٨ .

(٣٠) ميكال خويه : القرامطة، ص ١٥٢ .

(٣١) كانت قديماً تعرف باسم القلزم .

(٣٢) المقريزي : اتعاظ الحنفاء، ص ٢٤٩، ٢٥٠ .

(٣٣) سهيل زكار : أخبار القرامطة، ص ٥١٠ .

(٣٤) سهيل زكار : أخبار القرامطة، ص ٥١١ .

(٣٥) سهيل زكار : أخبار القرامطة، ص ٥١٠ .

(٣٦) عبدالرحمن بن خلدون : تاريخ ابن خلدون، ج ٤، ص ٥٠، ٥١ .

(٣٧) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج ٧، ص ٣٤٤ .

(٣٨) سهيل زكار : الجامع في أخبار القرامطة، ص ٥١٠ .

(٣٩) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج ٧، ص ١٢٦ .

(٤٠) مجلة المنهل: ج٣، ص ١٩٤، ربيع أول، سنة ١٣٩٣هـ .

****

الفصل الرابع

الحركـات الانفصالــية

أ ـ انتفاضة بني الزجاج في أوال والاستقلال بها :

كان أول من أخذ زمام المبادرة في العمل الجاد لتقليم أظفار القرامطة والسعي في تخليص البلاد من قبضتهم «العوام بن محمد بن يوسف الزجّاج» الملقب بأبي البهلول من قبيلة عبدالقيس، وكان «ابن الزجّاج» هذا ضامناً لمكوس أوال ومن أهل الدين، وقد التف حوله نظراؤه في العقيدة والمذهب وفي مقدمتهم أخوه «أبوالوليد مسلم»، وقد قرروا أن يضعوا معاً اللبنة الأولى في بناء مجتمع جديد يستمد لحمته وسداه من الكتاب والسنة .

أخذ «أبو البهلول» يفكر في أفضل السبل لبلوغ هذا الهدف ووضع آماله موضع التنفيذ، فوجد بغيته في تدهور الأحوال الاقتصادية عند القرامطة وحاجتهم الماسة إلى الأموال، فاستغل نقطة الضعف هذه وعرض عليهم دفع مبلغ ثلاثة آلاف دينار نظير السماح له بإقامة جامع في جزيرة أوال[1] يؤدي فيه صلاة الجمعة من يفد إليها من التجار، لأن وجود مثل هذا الجامع سيجلب المزيد منهم إليها وبالتالي تتضاعف الرسوم وتكون التجارة أكثر انتعاشاً، وإن لم تصدر الموافقة فسوف يحدث العكس تماماً وستفقد الدولة قدراً كبيراً من دخلها .

فأجاب القرامطة بالموافقة على مطلب «أبي البهلول» وبالفعل دفع لهم المال المذكور وشرع على الفور في بناء الجامع، وحين تم بناؤه وفي أول جمعة تؤدى فيه الصلاة اعتلى المنبر أخوه الملقب «بأبي الوليد مسلم بن الزجاج»، ففاجأ الحاضرين بجعل الخطبة للخليفة العباسي «القائم» مُظهِراً خلع طاعة القرامطة والخروج عليهم .

فاستنكر هذا الإجراء من كان مع القرامطة هواه وعدّوه بدعة أحدثها «بنو الزجّاج» بالحيلة والخداع، وأن من الواجب منعهم من الخطبة والصلاة فأجابهم «أبوالبهلول» قائلاً بكل صراحة : «ما بذلنا وما سلّمنا أموالنا إلا لهذا الأمر ولأجل هذا الدين قصداً وليس لاستجلاب العجم إلينا وإرغابهم في معاملتنا فإن كرهتموه فردوا علينا ما أخذتموه منا ونحن نمسك عما قصدناه وإن نقصت به معاملتنا ونقصت به فائدتنا»، فكتب المعارضون إلى السلطة الحاكمة في البحرين يحيطونها علماً بما أقدم عليه «أبوالبهلول» فلم يجدوا منها أذناً صاغية لأن والي جزيرة أوال «جعفر بن محمد بن عرهم» كان من المتعاطفين مع بني الزجّاج وكان كثير الثناء عليهم لدى تلك السلطة[٢]، ومن هنا أجاب القرامطة بالنهي عن التعرض «لأبي البهلول» وليخطب أخوه لمن شاء وأحب .

وفي ذلك إشارة واضحة إلى مبلغ الضعف والمعاناة التي كان يعيشها القرامطة بحيث لم تعد العقيدة القرمطية ومبادؤها همهم الأكبر، كما يمكن القول إن جعل الخطبة للخليفة العباسي لم يكن فقط لإظهار خلع طاعة القرامطة بل لعله أراد إرهابهم بإيهامهم أن الخلافة العباسية تقف إلى جانبه وتشد من أزره، ولكن حادثاً مهماً طرأ على مركز الخلافة كاد أن يبدد آمال «أبي البهلول» ويقضي على تطلعاته لولا ما كان يتمتع به من الدهاء وسعة الحيلة والإصرار على تحقيق الهدف الذي جنّد نفسه من أجل بلوغه، ذلك أن بني بويه حين زال حكمهم على أيدي السلاجقة الذين تسلموا السلطة في بغداد سنة ٤٤٧هـ الموافق سنة ١٠٥٥م لم تخبُ في نفوسهم جذوة الحقد على السلاجقة والرغبة في استرداد السلطة منهم، فقام أحد القادة البويهيين المدعو «بأبي الحارث البساسيري» في سنة ٤٥٠هـ الموافق سنة ١٠٥٨م بمهاجمة بغداد أثناء غياب السلطان السلجوقي في الشام فقبض على الخليفة[٣] وأودعه السجن لمدة عام، وقد أقام الدعوة للعبيديين فخطب باسم الخليفة «المستنصر بالله»[٤] ، وقد وجد أنصار القرامطة في أوال الفرصة سانحة للتشفي من «ابن الزجّاج» والشماتة به فقالوا له : إن الخليفة الذي كنتم تخطبون له زالت أيامه والخطبة لصاحب مصر، فلم يفتّ ذلك في عضد «ابن الزجّاج»، بيد أنه عمد إلى مهادنة القرامطة واسترضائهم بالهدايا والتحف ليأمن

غائلتهم وسارت الأمور كما يحب لبعض الوقت، بيد أن القرامطة طمعوا في المزيد من الرسوم والإتاوات من أهل أوال وكلفوا واليهم على الجزيرة[٥] «ابن عرهم» إنفاذ ذلك فاجتمع بوجوه الأهالي وأخبرهم بما ورد عليه في هذا الخصوص .

وبعد مناقشة مستفيضة اتفق الجميع على عدم الإذعان لهذا الأمر، فكتب «ابن عرهم» للحكومة في الأحساء يخبرها بعجزه عن استيفاء تلك الرسوم متذرعاً بامتناع الأهالي عن دفعها، فجاء الرد بعزله والقبض عليه وإسناد ولاية الجزيرة إلى رجل آخر مع تكليف الوالي الجديد بالقبض على أصحاب المال ومصادرته منهم .

فجمع «أبوالبهلول» أنصاره وأتباعه وأقاربه ومن يثق بهم من الوجهاء والأعيان وأخبرهم بما ورد بصدد امتناعهم عن دفع تلك الضريبة المفروضة عليهم، وما تمخض عنه من الأمر بالقبض على «ابن عرهم» والمساعي المبذولة في القبض عليهم أيضاً ومصادرة أملاكهم، فاستقر الرأي على عدم الرضوخ لمطالب القرامطة واتصل «أبوالبهلول» بالوجهاء والأعيان في الجزيرة وفي مقدمتهم «ابن أبي العريان» لما له من كثرة الأتباع والأنصار، واتفق الجميع على جعل إعادة «ابن عرهم» لولاية الجزيرة شرطاً للقبول بدفع الضريبة التي يريد القرامطة حملهم على دفعها[٦]، ولعلهم أرادوا بذلك أحد مكسبين هما : تسجيل نصر معنوي على القرامطة في حالة إعادة «ابن عرهم» لولاية الجزيرة، أو استغلال الرفض في حالة حدوثه لإلهاب عواطف الناس وتأجيج مشاعرهم ودفعهم إلى تصعيد المقاومة ضد القرامطة، ورغبة من «أبي البهلول» في إسعاد المجتمعين ومساعدتهم على اتخاذ موقف أشد صرامة قرر ألا يأخذ الرسوم المعتادة منهم، وقال : «الخراج موقوف على أربابه وغير مأخوذ فإن رجع «ابن عرهم» سُلِّم إليه وإلا فليفر كل منكم بما عليه»، فكان لذلك أطيب الأثر في نفوسهم مما زادهم إصراراً على الالتفاف حول زعمائهم والشد على أيديهم .

وبلغهم أن الوالي الجديد يحاول القبض على زعمائهم فأخذوا زمام المبادرة للقتال وشنوا عليه هجوماً ففرّ إلى الأحساء بعد قتل عدد من أصحابه، ولعل الوالي الجديد هو «بشر بن مفلج بن عبدالقيس»، فقد جاء في شرح ديوان ابن المقرب أن

القرامطة طلبوا من بعض عشائر عبدالقيس برئاسة «بشر بن مقلج العيوني»[٧] التوجه إلى جزيرة أوال للقضاء على «ابن الزجاج» فيها حين أعلن التمرد والعصيان والامتناع عن أداء المكوس، وأن تكون الجزيرة لبشر ولقومه بغية ضرب بعضهم ببعض وتصفية وجودهم دون عناء، وبالفعل جرت معركة بين «ابن الزجاج» وهؤلاء في جزيرة بين أوال والدمام تدعى «كسكوس»[٨] .

وكتب «أبوالبهلول» و«ابن أبي العريان» إلى القرامطة بأنهم سيظلون خارج الطاعة ما لم تتم إعادة «ابن عرهم» لإدارة شؤون الجزيرة فوراً، فورد الجواب برفض مطالبهم وتهديدهم بالغزو لإرغامهم على الإذعان والطاعة، وبعث «عبدالله بن سنبر» أحد أبنائه إلى عُمان لجلب السلاح والأموال منها، ولكن المقاومة في أوال قامت باعتراضه أثناء عودته فقتلوه ومن معه وكان عددهم أربعين رجلاً، واستولوا على ما بحوزتهم وكانت خمسة آلاف دينار وثلاثة آلاف رمح[٩]، واستعانة القرامطة بعُمان في هذا الشأن يدل بوضوح على تدهور صناعة السلاح لديهم ونضوب مواردهم المالية .

وتُظهر هذه الحادثة مدى ما كان عليه المقاومون من تيقظ واقتدار على رصد حركة القرامطة والاطلاع على خططهم، ولما علم «ابن سنبر» بما انتهى إليه مصير ابنه فكر في إضعاف أهل أوال بالحيلة والمكر، فاستمال «ابن أبي العريان» وأغراه بالتخلي عن «ابن الزجّاج» ووعده بجعله والياً على أوال في حالة القضاء على المقاومة، فقبل «ابن أبي العريان» العرض ووعد «ابن سنبر» بخذلان «أبي البهلول» أثناء المعركة التي يتم الإعداد لإشعالها، وبلغ ذلك «أباالبهلول» فقام بالتعاون مع أحد أبناء عمومة «ابن أبي العريان» بالفتك به[١٠] واسترضاء أتباعه وإقناعهم بالتعاون مع المقاومة، وفي معركة بحرية ضارية التحمت جموع المقاومة بعساكر «ابن سنبر»، ولم يكن يعلم بما جرى لحليفه «ابن أبي العريان»، كان في نهايتها النصر للمقاومة بقيادة «أبي البهلول» الذي قاد المعركة بمهارة فائقة رغم أن ساقه تعرضت لكسور مُني بها قبل بدء القتال بقليل .

وعدم معرفة القرامطة بما جرى لصاحبهم في أوال رغم فخامة هذا الحدث وأهميته يدل بجلاء على مدى عزلتهم وقلة أنصارهم بحيث تمت هذه الأحداث دون أن يكونوا على علم بشيء منها .

وبعد هذا النصر استقر الأمر في أوال «لأبي البهلول» فقلّد أخاه «أباالوليد» وزارته ثم أخذ يشن الغارات على حواشي الأحساء، وأراد أن يحول دون وصول المدد والمؤن إلى القرامطة عن طريق البحر فدمر ميناء «العقير»[11] وهو دهليز الأحساء ومصب الخيرات منه إليها، ورغبة منه في السعي للاستيلاء على الأحساء واقتلاع جذور القرامطة ومحو بدعهم كتب إلى «أبي منصور يوسف» صاحب ديوان الخلافة يطلب المدد والنجدة ليتم له ما يريد من الأهداف في رسالة مسهبة شرح فيها محنة البلاد ومعاناة أهلها من السيطرة القرمطية، وما أحدثت تلك السلطة من ممارسات وبطش وإرهاب داخل المنطقة وخارجها، كما يؤكد أن الوقت قد حان للقضاء عليها وتصفية وجودها، ثم يبين ما بذلت عناصر المقاومة بقيادته من الجهود في هذا السبيل التي كان من ثمارها نجاحه في تحرير جزيرة أوال من قبضتهم، واتخاذه أميراً على الجزيرة من قبل أهلها وجعل محض ولائه للخلافة العباسية دون غيرها، وكيف أنه على استعداد لتحرير كامل البلاد متى توافرت له الأموال الكافية لاسترضاء الأعراب وصرفهم عن أبواب القرامطة بالأحساء، والاستئثار بولائهم ومساعدتهم، ثم يطلب من الخلافة دعمه وتأييده بجميع الوسائل الممكنة وأن ذلك من أفضل الأعمال وأبرها عند الله تعالى، ويستشهد على إنجازاته في الجزيرة بشاهد عيان من المقربين للخلافة كالشيخ «أبي يعلى ظافر بن علي الرحبي» ثم يختم الرسالة بالدعاء للخليفة العباسي القائم ويلتمس منه سرعة الجواب والتأييد (انظر نص رسالة ابن الزجاج لديوان الخلافة ملحقاً في آخر الكتاب) [12] .

بيد أنه لم يظفر من العباسيين بما كان يرجو، ولعل اضطراب الأحوال السياسية في بغداد على إثر ثورة «البساسيري» كانت السبب في عدم استجابتهم لطلبه وإسعافهم له بما كان يرجو ويؤمّل من المساعدة والعون، كما أن هذه الإمارة الفتيّة لم تلبث حتى غربت شمسها على يد الغزاة من فارس الذين تتابعت حملاتهم عليها وفقاً لما جاء في مخطوطة ديوان ابن المقرب[13]، أو كما جاء في رواية أخرى من أن زعيمها «العوام بن الزجّاج» قد عاجلته المنية صريعاً على يد «زكريا بن يحيى بن العياش» الذي كان أبوه قد نجح في الاستقلال بالقطيف هو الآخر[14]، وكان في طليعة أهدافه الاستيلاء على جزيرة أوال وذلك

في سنة ٤٦٤هـ، حيث دامت هذه الدولة مدة لا تتجاوز ثلاثة وعشرين عاماً، إذ إن من المرجح أنها رأت النور في مُستهل العقد الخامس من القرن الخامس الهجري .

وفي رسالته إلى ديوان الخلافة يسجل الباحثون ملاحظات هي:

١ - ذكر في الرسالة أنه مرّ على حكم القرامطة لأوال مائة وإحدى وسبعون سنة ومن المعلوم أن دولة القرامطة تأسست في سنة مائتين وست وسبعين + مائة وإحدى وسبعين = أربعمائة وسبع وأربعين.

٢ - ذكر في الرسالة أن حكم القرامطة لجزيرة أوال امتد مائة وأربعين سنة وأن خروج الجزيرة من حكمهم كان قبل سنة أربعمائة وسبع وأربعين، إذاً مئتان وست وسبعون + مائة وأربعون = أربعمائة وست عشرة .

٣ - ورد في أول البحث الإشارة إلى الخطبة «للمستنصر بالله العزيزي» وهذا تولى الحكم سنة أربعمائة وسبع وعشرين إلى سنة أربعمائة وثمان وسبعين.

٤ - ومن المعروف أيضاً أن الخليفة «القائم بأمر الله» تولى الخلافة في ما بين سنتي أربعمائة واثنتين وعشرين وأربعمائة وسبع وستين .

ومهما يكن من شيء فإن راية النضال ضد القرامطة [١٥] لم تسقط في الرغام فقد تلقفتها بعد «أبي البهلول» أيد عبقسية أخرى .

ب ـ انتفاضة «آل عياش» [١٦] في الخط والاستقلال بها :

في القطيف قام «يحيى بن العياش الجذمي» [١٧] من عبدالقيس بانتفاضة جريئة ضد القرامطة بغية الاستقلال بهذا الإقليم وإنشاء إمارة خاصة به، فنجح بعد قتال مرير مع القرامطة في تأسيس إمارة عرفت هناك باسم إمارة «ابن العياش»، ولم يقنع بذلك فقد تطلّعت نفسه إلى الاستيلاء على كامل إقليم الأحساء والجزر التابعة له، ولكي يضع هذه الآمال موضع التنفيذ فقد سار لطلب النجدة والمساعدة من الخليفة العباسي «أبي جعفر القائم بأمر الله» سنة ٤٢٢هـ - ٤٦٧هـ، الموافق سنة ١٠٣١م - ١٠٧٥م

و«جلال الدولة ملك شاه» السلجوقي[١٨] سنة ٤٦٥هـ - ٤٨٥هـ، الموافق سنة ١٠٧٢م - ١٠٩٢م ووزيره «نظام الملك»[١٩] المتوفى سنة ٤٨٥هـ، ولا شك أن ديوان الخلافة قد وجد في طلب «ابن العياش» هذا فرصة سانحة للسيطرة على الجزء الشرقي من الجزيرة العربية مما سيساعد على تأمين حدودهم الشرقية وحماية طرق القوافل علاوة على ما سيحصلون عليه من إيرادات البحرين الوفيرة من اللؤلؤ والحاصلات الزراعية .

وفي حدود عام ٤٦٨هـ الموافق ١٠٧٥م بعث السلطان السلجوقي «ملك شاه» حاجبه المعروف باسم «كجكينيا» للقتال إلى جانب «يحيى بن العياش» في محاولة لانتزاع الأحساء من أيدي القرامطة، والسبب المباشر لذلك أن هذا الحاجب التقى في البصرة برجال من أهل القطيف من أصحاب الأمير «يحيى بن عياش» أمير القطيف وجزيرة أوال فجرى بينهم وبينه الحديث فقالوا : «لو أن السلطان يدفع إلى صاحبنا مائتي فارس من العرب لاستطاع بها وبمن معه أخذ مدينة الأحساء فيخطب بها للسلطان ويحمل إليه من الأموال من أعمالها كل سنة حملاً كثيراً»[٢٠] ، فقال لهم «ابن الزراد»: «أنا أفعل هذا وأقوم به»، واستعان برجل بدوي يُقال له «غدّاف» من أصحاب «ابن مهارش العقيلي» ومضى معهم إلى القطيف واجتمعوا مع «ابن العياش» وضمن لهم ذلك .

وأنفذ «ابن الزراد» كتبه إلى السلطان «جلال الدولة» وإلى «نظام الملك»، ولم يزل يبذل المساعي في إقناعهم بأهمية الاستيلاء على تلك النواحي حتى أطمعهم في ذلك، فشرع «كجكينيا» بالإعداد لهذه الحملة، وكتب إلى «ابن الزراد» يطلب منه التوجه إلى البصرة، حيث يلتقي هناك بجماعة وضعوا في خدمته للمسير معه وأنه سيلحق به للتبادل في الرأي وإعداد الخطة اللازمة لهذه الحرب، وعاد «ابن الزراد» هذا إلى القطيف ثم رجع وجاء إلى بغداد وجاء «سعد الدولة الكواهري» معه على هذا الأساس لمعاونته في إعداد ما يلزم للحملة من المؤن والعتاد، وانحدروا على أن يلحق بهم «سعد الدولة»، لتسمع العرب بوجوده هناك ، فيهابوه وينخرطوا في عسكره، ووصلوا إلى واسط وجاءهم «غداف البدوي» بمكاتبة تقدمت منهم إليه، واجتمعوا وتحالفوا وتعاهدوا على أن يكون

المغنم مقسوماً على أحد عشر سهماً، سهم للخليفة، وسهم للسلطان، وسهم لنظام الملك وسعد الكواهري، والبقية اربعة أسهم «لكجكينيا»، واربعة لأصحاب مهارش، وأقاموا مدة فلما علموا بوصول «سعد الدولة» إلى واسط آخذاً الطريق إلى البصرة خرجوا منها بعد أن وقع بينهم وبين الأشراف من وجوه ربيعة نزاع، واستعدوا بأربعمائة فارس من العرب والعجم سوى أتباعهم، والتقوا بغدّاف وجماعته وساروا قاصدين القطيف وهم يتوقعون أن المنتفق يسيرون معهم، وكانوا راسلوهم فوعدوهم باللحاق بهم[٢١]، وهناك قيل لهم : إن بطناً من العرب يعرف بقيس وقباث قد نزلوا على طريقهم طمعاً فيهم، فتحقق عندهم الخوف منهم ومن غدر البدو الذين معهم .

وطال مقامهم في الطريق فغلت أسعار الأطعمة عليهم حتى بلغت القوصرة من التمر خمسة دنانير وسبعة وأقل وأكثر، وكذلك الشعير والذرة، وخافوا من قيس وقباث أن يباغتوهم، فاجتمعوا وسَروا ليلاً ومعهم الدليل، فوصلوا بعد يومين إلى قباث وقيس فقاتلوهم طيلة يومهم ، فلم يظفروا بهم، فعملوا حيلة بأن جعلوا منجنيقاتهم وثقلهم وراء تل، وأمروا بضرب الطبول وضرب البوقات ونشر الأعلام حتى كأنهم نجدة قد وصلت وهاجموا «قيس وقباث» فغنموا أموالهم وحلتهم، وأجار «كجكينيا» النساء وسيّرهن إلى أهلهن في ظعنهن وجمالهن، فشكرت له قيس وقباث ذلك[٢٢]، وعرضت عليه الرغبة في خدمته والمسير معه وطلبت منه الخلع والهبات فبذل لهم ما التمسوه وشكر لهم ما قالوه، ووعدهم بما طمعوا فيه ورجّوه، وتعاهدوا وتواثقوا وجاء متقدمهم في نحو ثلاثمائة راكب على المطايا وفي أيديهم الحراب، وخلعوا عليه وعلى عشرين ونيف من أصحابه وعلى صاحب «ابن مهارش» وعلى خمسة رجال كانوا معه وضمنوا لهم رد اموالهم بعد فراغهم من حرب القرامطة ورجوعهم إلى البصرة، وسارت قيس وقباث معهم يبيعون لهم التمر والذرة بالثمن الذي يرجونه ويطلبونه من غير مقاولة ولا مراجعة إلى أن صاروا من القطيف على أربعة فراسخ، وراسلوا «ابن عياش» يخبرونه بوصولهم فوجدوه بخلاف ما قيل لهم، فقد كان نافراً مما ذكروا، فعلموا أن «ابن العياش» نافر من قدومهم وأرسل إليهم يقول إن الذي تم الاتفاق عليه مع «ابن الزراد» هو أن يقوم السلطان بتزويدي بمائتي فارس من العجم يعملون تحت قيادتي وبأمري

وأجريهم مجرى جندي، وأما أن يأتيني جيش مجهز بهذا الحجم والاستعداد بقيادتكم وإمرتكم فلا، واعلم أيها الحاجب «كجكينيا» اني لا آنس إلى مخالطتك ومشاركتك والاجتماع معك، ولا آمن لك وليست لدي الرغبة في الالتقاء بك، وبخاصة عندما فعلت بقبيلتي قيس وقباث ما فعلت، فقد أفسدت بهذا العمل نيات العرب عليك وعلي[٢٣]، ومضى في القول وهو يحذره ويبالغ في تهديده قائلاً : إنك بحضورك إلى هنا أصبحت كالسبع الذي في الأجمة وحولها الأعداء بحيث لا يمكنك المقام ولا العودة، فإن أنت سلّمت إليّ بعض من معك من الجند رددتك إلى البصرة سليماً، وقصدتُ أنا الأحساء وأعمالها، وأخذتها، وأقمت الخطبة بها، وجمعت اموالها، وبعثت بها إلى السلطان، ووفيت بما ضمنته فيها، وإن أبيت ذلك وأردت أن تكون أنت المقدم فهذه البرية بين يديك، فامض كيف شئت[٢٤] .

وجرت بين الطرفين مراسلات انتهت إلى طريق مسدود فاندلعت الحرب بينهم ثلاثة أيام وأسفرت عن قتل عدد كبير من الفريقين، ولجأ «ابن عياش» إلى الحيلة والخداع فكتب إلى العجم يتلطفهم ويظهر اللين معهم وفي الوقت نفسه اتصل بقبائل قيس وقباث وأغراهم بالمال والأمان، على أن يغدروا بالعجم ويخذلوهم وينصرفوا عنهم فاستجابوا له وانصرفوا عن العجم وقد أخذوا معهم جميع ما مع العجم من جمال بما عليها من مؤن وأموال، فسار العجم وراءهم ولم يدركوهم في حين خرج أهل القطيف إلى معسكر خصومهم وانتهبوه، فتضاعفت مخاوف العجم من «ابن عياش» واستبد بهم الرعب وحين أراد الله لهم الفرج مما هم فيه نزل عندهم «شبانة أبوالشبانات» وأقام معهم، ولولاه ماتوا جوعاً وعطشاً، فقام «كجكينيا» بالترحيب به وطيب نفسه ومنّاه ووعده وطلب منه ومن أصحابه إحضار الزاد ليشتروا منهم كيف اقترحوا، فأرسل «شبانة» ولده إلى أصحابه فاجتمعوا بهم، فصاروا يشترون الجلة من التمر بثلاثين ديناراً أو ثوب ديباج يساوي أكثر من الثلاثين، ويشترون منهم البعير بفرس، لأن الجمال أقوى من الخيل ولا يوجد لديهم زاد لها[٢٥] .

والمتأمل في دوافع هذه الحملة ونتائجها والأسباب التي حدت «بابن العياش» إلى رفضها ومقاومتها وصدها، يجد أن هذه الدوافع لم تكن الرغبة في نصرة الإسلام والعمل على تخليص إقليم البحرين من براثن السلطة القرمطية أو الوقوف إلى جانب من يسعى من زعامات المنطقة إلى تحقيق هذا الهدف، بل إن هذه الدوافع لا تتعدى الطمع في الحصول على المكاسب المادية، يكفي دليلاً على ذلك أن الغنائم المتوقعة قد تم تقاسمها وبيان نصيب كل طرف من هذه الجماعة فيها قبل البدء في الحرب، الأمر الذي دفع «ابن العياش» إلى اتخاذ زمام المبادرة في رفضها والتصدي لها خشية أن تتسع تلك المطامع فتشمل إزاحته عن كرسي الإمارة والاستيلاء على ما تحت يده فيكون كمن ذهب يطلب قرطين فعاد بلا أذنين .

أما «ابن العياش» فحين أحكم قبضته على حكم القطيف واشتدت شوكته اشرأب بآماله إلى الاستيلاء على جزيرة أوال، فلم يأل جهداً في هذا السبيل إلا أن المنية عاجلته قبل أن يصل إلى مراده فخلفه في الحكم ابناه «الحسن وزكريا»، وقد قام الأخير بالإغارة على جزيرة أوال واستولى عليها، ثم استدار لأخيه «الحسن» فقتله وبسط سلطته على القطيف وجزيرة أوال، ولم يزل قابضاً على زمام الحكم فيهما حتى تمت الإطاحة به أثناء صراعه مع الأمير «عبدالله العيوني»، كما سيأتي تفصيله بالصفحات الآتية فزالت بذلك إمارة «آل عياش» في نهاية العقد السابع من القرن الخامس الهجري بعد أن حكمت القطيف وجزيرة أوال زهاء اثني عشر عاماً .

****

الهوامش

(١) مخطوطة ديوان ابن المقرب: ص ٤٩١ .

(٢) مخطوطة ديوان ابن المقرب: ص ٤٩١ .

(٣) الخليفة العباسي أبو جعفر القائم بأمر الله تولى الخلافة من سنة ٤٢٢ هـ إلى سنة ٤٦٧ هـ .

(٤) المستنصر بالله تولى الحكم من سنة ٤٢٧هـ إلى سنة ٤٧٨هـ .

(٥) مخطوطة ديوان ابن المقرب: ص ٤٩٢ .

(٦) حمد الجاسر : مجلة العرب، عدد رمضان وشوال سنة ١٤٠١هـ، ص ١٦٤ .

(٧) مخطوطة ديوان ابن المقرب: ص ٤٧٨ .

(٨) محمد بن خليفة النبهاني : التحفة النبهانية في إمارات الجزيرة العربية، ص ٥١ .

(٩) مخطوطة ديوان ابن المقرب: ص ٤٩٣ .

(١٠) تذكر المصادر أنهما كمنا له عند عين عذاري، حيث كان يغتسل فيها مع خادم له، وعند خروجه قاما باغتياله، وقيل في رواية أخرى عند عين ثور .

(١١) هي ميناء الأحساء الرئيسية تستقبل السفن القادمة من مختلف الموانئ، وقد لعبت دوراً هاماً في التبادل التجاري منذ أقدم العصور، كما تعتبر البوابة الشرقية للجزيرة العربية والتي منها تنقل البضائع إلى نجد وسائر أقاليم الجزيرة العربية .

(١٢) حمد الجاسر : مجلة العرب، عدد رمضان وشوال سنة ١٤٠١هـ، ص ١٦٤ .

(١٣) مخطوطة ديوان ابن المقرب : ص ٦٢١ .

(١٤) عبدالفتاح الحلو : ديوان ابن المقرب، ص ٥٣٩ .

(١٥) حمد الجاسر : مجلة العرب، عدد رمضان وشوال سنة ١٤٠١هـ، ص ١٦٨ .

(١٦) ديوان ابن المقرب : ص ٥٣٩ .

(١٧) جاء هذا الاسم في بعض شروح ديوان ابن المقرب باسم «عباس» .

(١٨) السلطان جلال الدولة أبوالفتح ملكشاه ابن السلطان آلب آرسلان ، تولى السلطة سنة ٤٦٥هـ الموافق سنة ١٠٧٢م، وتوفي سنة ٤٨٥هـ الموافق سنة ١٠٩٢م .

(١٩) نظام الملك : هو أبوعلي الحسن بن علي بن إسحاق بن العباس ، الملقب بنظام الملك قوام الدين الطوسي .

(٢٠) مخطوطة ديوان ابن المقرب : ص ٤٨٦ .

(٢١) مخطوطة ديوان ابن المقرب : ص ٤٨٦ .

(٢٢) مخطوطة ديوان ابن المقرب : ص ٤٨٧ .

(٢٣) مخطوطة ديوان ابن المقرب : ص ٤٨٨ .

(٢٤) مخطوطة ديوان ابن المقرب : ص ٤٨٨ .

(٢٥) مخطوطة ديوان ابن المقرب : ص ٤٨٨ .

****

الفصل الخامس

انتفاضة «عبدالله بن علي العيوني» ضد القرامطة في الأحساء
وإطاحته بهم وتأسيس الدولة العيونية والاستيلاء على كامل إقليم البحرين

أ- بدء غارات «عبدالله العيوني»[1] على القرامطة واستعانته بالخلافة العباسية في حربهم:

لم يكن نجاح العبقسيين في انتزاع القطيف وجزيرة أوال من قبضة القرامطة إلا الفصل الأول في ملحمة الكفاح ضدّهم، فقد أخذت في الوقت نفسه جماعة من بني إبراهيم من عبدالقيس تعد المسرح لإتمام فصول هذه الملحمة، وقد كانت تقيم من زمن بعيد في الموضع المعروف بالعيون الكائن على مشارف واحة الأحساء فعرفت بنسبتها إليه فصار يدعى أفرادها بالعيونيين، وقد كان لهذا الموقع أهمية خاصة في استراتيجية العيونيين في حربهم ضد القرامطة، فهو لا يبعد سوى بضعة أكيال عن حاضرتهم مدينة الأحساء، كما يشرف على أهم الطرق المؤدية إليها مما يمكّن العيونيين من مراقبة تحركات خصومهم ورصد نشاطهم العسكري والتعرض للقوافل التجارية الخارجة من مدينتهم والعائدة إليها والإغارة عليها كلما دعت الحاجة.

من هنا وجد العيونيون بقيادة شيخهم «عبدالله بن علي بن محمد بن إبراهيم» أن الوقت قد حان للقضاء على سلطة القرامطة وتحرير ما تبقى تحت أيديهم من أراضي البلاد، شجعهم على ذلك ما منيت به الحياة في البلاد من شلل تام وما حاق بالقرامطة من خور وضعف، فقد صاروا عاجزين عن تحقيق الأمن والإصلاح بعد أن فقدوا مقومات البقاء والاستمرار .

ففي الجانب الاقتصادي أصبحوا في ما يشبه الحصار، فقد انقطعت عنهم الموارد المالية من الصيد والغوص على اللؤلؤ ورسوم الجمارك بعد خروج القطيف وجزيرة أوال من سلطتهم وتخريب ميناء العقير، كما أدى اضطراب حبل الأمن إلى تقلص دور القوافل التجارية من البر، كما قل الإقبال على الزراعة فتناقصت المحاصيل والغلات .

وفي الجانب الاجتماعي أصبحت القيم الشاذة والعادات الغريبة وما تبقى من ممخرقات القرامطة وخزعبلاتهم هي السائدة في المجتمع القرمطي إذ ذاك .

أما في الجانب السياسي فقد أفضى الوهن والعجز بالقرامطة إلى استقدام قبائل من أزد عُمان للاستعانة بهم، كما قدم عليهم بعض قرامطة اليمن فأشركوهم معهم في السلطة والنفوذ[٢] .

من هنا شرع الأمير «عبدالله العيوني» في وضع مطامحه موضع التنفيذ فبنى الحصن المعروف باسم «المحصنة» وملأه بالفرسان من العيونيين، وسار يشن منه الغارات على القرامطة ويراوحهم ويباكرهم بالقتال صباح مساء طيلة سبع سنين[٣] اشتبك معهم خلالها في عدة معارك كان أكثرها شراسة معركة الخندق التي دارت رحاها عند أسوار قصرهم، فقد سار إليهم الأمير «عبدالله» على رأس أربعمائة من فرسان عشيرته[٤]، وقد نزلوا لقتاله يتقدمهم جميع قادتهم البالغ عددهم ثمانين رجلاً كما حشدوا له جميع أنصارهم من قرامطة اليمن وعشائر الأزد[٥] وعامر ربيعة، ولم تنتهِ هذه المعركة بنصر حاسم لأي من الفريقين، إلا أن الأمير «عبدالله» قد نجح في تشتيت شمل رجال البادية وإخراجهم من البلد وإلجاء القرامطة إلى ملازمة حصونهم، وأحس الأمير «عبدالله» بالحاجة الماسة إلى من يقف بجانبه ويشد من أزره بالدعم والمساعدة في هذه المهمة الشاقة، فلم يشأ الاستعانة بأحد من سكان البلاد أو عشائرها لأنه حتى تلك الساعة لم يكوّن له رصيداً شعبياً يركن إليه، فهو لم يحقق بعد من النجاح والفوز ما يجعل الناس يدينون له بالولاء والطاعة، فعقد العزم على مراسلة حاضرة الخلافة العباسية والتماس المدد منها، فكتب في سنة ٤٦٥هـ الموافق سنة ١٠٧٣م إلى «ملك شاه السلجوقي» كتاباً شرح له فيه معاناة البلاد وعجز القرامطة الذين يقترب سلطانهم من الاحتضار، وأهاب به أن ينجده في العمل على محو سننهم وبدعهم وإقامة الدعوة للدولة الجلالية العباسية والخطبة باسمها في البحرين[٦]، فصادف هذا الطلب هوىً في نفس «ملك شاه» لما عُرف عنه من كراهية للإسماعيليين ومن يدور في فلكهم، فهب لنجدته بجيش قوامه سبعمائة فارس[٧] بخيولهم وعتادهم

بإمرة القائد السلجوقي «إكسك سلار»[٨] الملقب بـ «اريوبيك»، فقد سار هذا إلى الأحساء تحدوه لهفة عارمة للانتقام من «ابن عياش» بسبب ما مُني به القائد السلجوقي «كجكينيا» من أذىً شديد على يد «ابن عياش» كما تقدم .

وكان مسيره عن طريق مقطع حلوان[٩]، ونزل في طريقه بالبصرة فخسف بها جنده فنهبوا وأطلقوا مواشيهم ترعى زروعها، فعم أهلها الخوف والهلع، فأقفلوا الأسواق وسدوا الطرق وأبواب الدور وظلوا سجناء منازلهم فريسة للجوع والعطش، ثم خرج رجال منهم للتفاوض معه وإقناعه بالعدول عن هذه الممارسات المشينة، والرجوع إلى ما هو أليق به[١٠]، فقال ما يمكنني المسير إلى الأحساء وتلك الأعمال إلا أن تعطوني على ما عندي ألف جمل وقدراً كبيراً من الدقيق ومثلها شعيراً ومثلها تمراً وعشرة آلاف دينار أفرقها في أصحابي، فأعطي من ذلك ما قنع به وتنازل عن الباقي وسار بها في رجب، وقرر التوجه إلى القطيف أولاً للإيقاع «بابن العياش»، ولما وصلها فر «يحيى بن عياش» من بين يديه إلى جزيرة أوال فولّى وجهه شطر الأحساء ونهب ما ظفر به، ثم انضم إلى «عبدالله بن علي العيوني» واشترك معه في حصار مدينة الأحساء، وكان في هذه الأثناء يغزو العرب ويأخذهم حتى بعدوا عن البلاد، وانهزمت عامر ربيعة لمّا علمت بوصوله، وطال أمد الحصار فنشأت بسببه وبسبب ما لحق بالمزارع من تدمير وإهمال أزمة اقتصادية حادة، فتناقص الزاد وقلت الحنطة لانقطاع زرعها وفنيت البقر وندر وجود اللحوم[١١]، ولم يعد أمام السكان من الأطعمة سوى التمور وبعض السمك المجفف، فضاق القرامطة ومن معهم من أهل اليمن ذرعاً بهذا الحال فكتبوا إلى القائد السلجوقي «إكسك سلار» يعرضون عليه رفع الحصار عنهم مقابل مال كثير يدفعونه إليه، وطلبوا منه إمهالهم مقدار شهر أو أقل بعد رفع الحصار ليتفسحوا ويطمئنوا ويشتغلوا بتقسيط المال على من له ضيعة أو معيشة، فقبل منهم على أن يعطوه رهناً في ذلك، فأعطوه ثلاثة عشر رجلاً منهم، فرحل «اكسك سلار» يومئذٍ عنهم، فخرجوا إلى أماكن لهم كانوا يخبئون فيها الأطعمة كلما أحسوا بالخوف فيأخذونها عند الحاجة، وكانت عبارة عن آبار ومغارات وأماكن خافية في مزارعهم، فحملوا جميع تلك الأطعمة إلى داخل البلد وأحكموا إغلاق أبوابها ولم يعودوا يخشون

من الحصار لعلمهم أنه لن يطول بسبب قرب حلول فصل الصيف، وعجز العجم عن احتمال الإقامة في الحر بهذه الأراضي مع نفاد الزاد وقلة المؤن .

أما «اكسك سلار» فقد قام على الفور بإعدام بعض الرهائن واحتبس بعضاً ممن رأى فيه رأياً منعه من قتله، واستأنف فرض الحصار حول مدينة الأحساء، ولما حلّ الصيف ورأى ما يفعله الحر بجنوده وما لحق بهم من جوع وضجر أقعدهم حتى عن الخروج من مضاربهم ناهيك بالقتال والحرب ، استشار «عبدالله العيوني» في أمره فقال الأمير «عبدالله» تجعل عندي مائتي فارس وتمضي لشأنك ونحن نقضي الحاجة إن شاء الله[١٢]، ففعل وترك عنده مائتي فارس على رأسهم أخوه «البقوش» وانكفأ راجعاً إلى البصرة، وأخذ من العرب في طريقه أموالاً كثيرة يتقوى بها، فقد سلب جميع ما لدى عائذ، وقباث، والأحلاف، وكان مسير «اكسك سلار» إلى الأحساء في سنة ٤٦٧هـ .

أما الأمير «عبدالله» فقد ضيق الحصار على القرامطة ودارت بينه وبينهم عدة معارك انتهت بالظفر له، فدخل القصر وبسط نفوذه على البلاد وأصدر عفواً عاماً ولم يتعرض لأحد بأذى، وبذلك أرسى الأمير «عبدالله» أهم القواعد في بناء الدولة العيونية، وبعث «البقوش» رسولاً من قبله بكتاب لأخيه «إكسك سلار» يشرح له فيه أخبار المعركة وما أسفرت عنه من نصر حاسم للأمير «عبدالله العيوني»[١٣] .

وفي واسط التقى رسول «البقوش» بإكسك سلار وكان قد وصل إليها آخذاً طريقه إلى الأحساء على رأس جيش كثيف أعدّه الخليفة «المقتدي عبدالله بن محمد» لنجدة «عبدالله العيوني»، وكان «إكسك سلار» قد أوضح للخليفة ضرورة الرجوع إلى قتال القرامطة بالأحساء، فأصدر له بذلك توقيعاً خاصاً .

ب. نجاح الأمير العيوني في بسط سلطته على القطيف وأوال وتوطيد أركان الدولة العيونية:

إن نجاح الأمير «عبدالله العيوني» في الإطاحة بحكم القرامطة لم يزح جميع الصعاب عن طريق مساعيه نحو إنشاء الدولة الجديدة، فاعترضته مصاعب عدة كان

أجلّها شأناً موقف «الحسن وزكريا» ابني «يحيى بن العياش» من هذه الدولة الناشئة، فلم يكد الأمير «عبدالله العيوني» ينزع لباس الحرب مع القرامطة وأعوانهم حتى أخذت المخاوف من طموحات «عبدالله» تتسلل إلى نفوس أمراء القطيف، فأخذوا زمام المبادرة في شن الغارات على حواشي الأحساء بغية انتزاع الحكم من يد الأمير «عبدالله» أو إرهابه ومنعه من مجرد التفكير في التوسع وإعادة توحيد إقليم البحرين بانتزاع القطيف وأوال من تحت أيديهم[١٤].

وقد شد من أزرهم أن بعض أحفاد الأمير «عبدالله بن علي» وفي مقدمتهم المدعو بـ «أبي سعيد علي» قد أعلن التمرد والعصيان على جده والتجأ إلى «آل عياش»[١٥] ولم يتورع عن الخروج معهم والقتال إلى جانبهم، وحين لم تأت تلك الغارات بطائل ولم تحقق الأمل المرجو منها عرض «حسن بن العياش» على الأمير «عبدالله العيوني» مشروع صلح دائم، وبذل له في سبيل ذلك الأموال الطائلة من الذهب وعقارات النخيل والقبول به شريكاً له في حكم القطيف، ولكن الأمير «عبدالله العيوني» رفض هذا العرض[١٦] وأصر على مقاومة هجمات «ابن العياش» والتصدي لها في انتظار المعركة الحاسمة التي تتيح له الاستيلاء على كامل أقطار إقليم البحرين .

وكان الأمير «الحسن بن يحيى بن عياش» على ما يظهر شديد الخشية من طموحات أخيه «زكريا» ويتوجس منه خيفة، وربما بدا له منه ما يشير إلى تلك الهواجس لذا نراه شديد الرغبة في إقامة صلح دائم مع العيونيين، فلم يدخر وسعاً في التودد إليهم والتقرب منهم، فقد ذكرت المصادر أنه دائماً كان يتحدث عن إعجابه بالأمير «عبدالله» ويقول يوم أرى فيه «عبدالله بن علي» أحب إليّ من القطيف وجميع دخلها، كما كان يراسل بعض قادة العيونيين والبارزين منهم فيغريهم بالقدوم إليه في القطيف ويبذل لهم من الأموال والإقطاعات ما يُحَسِّن لهم النزول على رغبته ولكنه لم يظفر منهم بطائل فلم يستجيبوا لإغراءاته .

من أبرز هؤلاء الذين حاول ابن عياش استمالتهم «محمد بن حواري» فقد راسله بأن يجيء إليه القطيف وبذل له على ذلك من المال شيئاً كثيراً من الذهب والجوهر

والإقطاع والنفوذ فلم يجبه «ابن حواري» إلى ذلك. وكان «ابن حواري» قد اشتبك أكثر من مرة مع عساكر «الحسن بن عياش» فهزمها .

كما حاول استمالة قائد عيوني آخر هو «يوسف بن علي بن يوسف» حين وقع في أسره، فقد جاء في شرح مخطوطة الديوان أن «يوسف هذا قد التقى بخيل الأمير الحسن صاحب القطيف فطاردهم فطعنوه طعنة ألقته عن فرسه بعد جراحات كثيرة أوقعها فيهم، فتمكنوا من أسره وجاءوا به إلى الحسن فتلقاه بغاية الإكرام وهيأ له داراً وأمر له بطبيب يداوي جراحاته، فلما برئ عرض عليه المقام عنده وأن يدفع له ألف دينار ويقطعه من الأملاك ما يشاء ويمنحه من الصلاحيات الواسعة ما يمكنه من التحكم في البلاد وإيراداتها فأبى هذا العرض، حينئذٍ خلع عليه وأعطاه مالاً كثيراً وسيّره إلى الأحساء»[١٧] .

ومن هنا يمكن القول إن لجوء «الحسن بن العياش» إلى طلب الصلح مع الأمير «عبدالله» ومحاولة استمالة كبار العيونيين إليه جاء تحت ضغط ظروف قاسية وخطر أشد ضراوة كان يتعرض له إثر أزمة حادة نشأت بينه وبين أخيه «زكريا»، وإن «زكريا» قد عقد العزم على إزاحة أخيه عن الحكم وهذا ما تحقق فعلاً، فقد قام «زكريا» بقتل أخيه «الحسن» والانفراد بحكم القطيف وأوال، وعلى الفور عقد العزم على توجيه ضربة قاصمة إلى الأمير «عبدالله العيوني» فسار على رأس سرية من أتباعه فوافى ناظرة[١٨]، ومن هناك أغارت خيله على تلك النواحي، وعندما بلغ الخبر «عبدالله العيوني» ركب في جمع من أهله وعشيرته وجنده، وفي «ناظرة» دارت رحى القتال الشديد بين الفريقين وكانت الهزيمة من حظ «ابن العياش» فاكتفى من الغنيمة بالإياب في كوكبة من المنهزمين[١٩] ، إلا أن الأمير «عبدالله» سار يتعقبه ويستأصل خيله واحدة بعد الأخرى حتى وصل القطيف، وظن «زكريا» أنها لا تحميه ففر إلى جزيرة أوال فعبر إليه «الفضل بن عبدالله بن علي» وبعد قتال شديد تمكن «الفضل» من إلحاق الهزيمة بجموع «زكريا بن يحيى بن العياش» بعد أن قتل وزيره «العكروت» الذي سارت شجاعته مسرى الأمثال، واستطاع «زكريا بن يحيى» الفرار بالبقية الباقية من جنده

إلى العقير بعد أن سقطت مدينة أوال في قبضة الأمير «الفضل»، من ثم لحق «زكريا» بقوم من البادية، فأقام بينهم أياماً حتى حشد حشداً كثيراً وجنّد جنوداً من الأعراب وأغار على القطيف فتصدى له الأمير «عبدالله» وحمل على جموعه حملة صادقة فهزمهم وقتل حينئذٍ «زكريا بن يحيى بن العياش» وبقتله دانت جميع أراضي البحرين لملك «عبدالله بن علي العيوني»[٢٠] . وحول هذا يقول ابن المقرب :

وحـــولَ ابن يـحــيى لم تَـصــاهل جـيــادُنا
وقـــد كــان ذا بحــراً عُـبــاباً قلهــذمــا
اذال لـنـا الأمـــوالَ دُرّاً وعـــســـجــداً
وتِبْـــراً ونـخـــلاً يـانـعـاً ومُكمَّـــمــا
فــعــفنا سنيّــات العطـايا حــمــيّــةً
عليكم ونُسنا الشــرَّ حـــتى تَشــرّمــا
وحـــتى ملكتم ملكَـه واقــتــصــرتُمُ
مــقــاصــيــرَها اللاتي بناها فــاحكمـا
وقـــد كـــان يُزجي كلَّ يومٍ كـــتــيــبــةً
إليكم وجـــيـــشــاً ذا زهاءٍ عـــرمـــرمــا
وقـــاد إليـــه النـاسَ باسٌ ورغـــبـــةٌ
وعـــزٌّ(*) يُـنـاصـي يَـذْبُـلاً ويَـلَـمْـلـمــا
وســار إلـيـــه منكـمْ من قـــد علمـــتُمُ
وكـــان لـنـا لـو نبـــتـــغي ذاك سُلَّمـــا[٢١]

وفي التصدي لابن العياش يقول:

ولـم يُنْجِ ابن عــيّـــاشٍ بمهـــجـــتـــهِ
يمٌّ إذا مــــا يـراه الـناظرُ ارتســـمــــا
اتى مـــغـــيـــراً فـــوافى جَـــوٌ «ناظرةٍ»
فــعـــاين الموتَ منا دون مـــا زعـــمـــا

(*) في مخطوطة ديوان ابن المقرب (الرضوية)، وعزاً ، عدلت كما وردت في نسخة الحلو ، ص ٤٧٠ .

فـــــراح يـطـرد طـردَ الـوحـشِ لـيـس يَـرى
حـــبـلَ الســلامــةِ إلا الســوطَ والـقَــدَمـــا
فــانـصــاع نـحــو أوالٍ يـبـتــغـي عِـصَـمــاً
إذ لـم يـجـد في نـواحي الخـطّ مُـعـتـصَـمـا
فـــاقـــحـمَ الـبـــحـــرَ مـنـا خـلـفــه مَـلِكٌ
مـــا زال مـــذ كـــان للأهـوال مُـــقـــتــحِـمـــا
فـــحــــازَ مُـلْـكَ أوالٍ بـعــــدمـــــا تـرك «الـ
ـعَكْروتَ» بـالسـيـف للـبـوغـاءِ مُلـتـزِمــا[٢٢]

«عبدالله بن علي» وبنو عامر:

كان الأمير «عبدالله» على وعي تام بما ينبغي نهجه إزاء مراكز القوى إبّان العهد السابق، فعمد حال استكمال سيادته على البلاد إلى قطع العوائد المالية المرسومة لبني عامر من قبل القرامطة نظير مساندة هؤلاء المستمرة للقرامطة في حروبهم، وتطور تلك المساندة إلى النهوض بخفارة قوافل الحجيج وطرق التجارة في أواخر أيامهم، فأثار هذا الإجراء من «عبدالله بن علي» حفيظة بني عامر وسخطهم فعقدوا العزم على قتاله وحشدوا الحشود واستنفروا الموالين من مختلف القبائل، كما شجعهم على ذلك استغاثة القرامطة ومن معهم من أهل اليمن بهم، وكان الأمير «عبدالله بن علي» قد أعدّ للأمر عدته واتخذ لكل حالة لبوسها[٢٣]، فما أن علم بتحركاتهم حتى بادر إلى الخروج على رأس جيش مؤلف من أتباعه، كما سار معه «البقوش» بمن معه من السلاجقة، وفي فقور السهلة بين نهري سليسل ومحلّم، التقى الأمير «عبدالله» ببني عامر وقد أقبلوا في ألف من الخيل وعدد كبير من الرجال وهم يسوقون الإبل البرية المتوحشة أمامهم والرجال من ورائهم يستحثونها على التقدم لتسحق الجموع، فلما رأى الأمير «عبدالله» ما تفعله الإبل برجاله الذين لا يتجاوز عددهم أربعمائة مقاتل أمر الرماة بإمطار الإبل بالنبال، كما أوعز إلى أفراد جيشه بقرع الطبول ونفخ البوقات فنفرت الإبل وارتدت على أعقابها فدكت أصحابها، ثم أعقب ذلك بحملة صادقة أنزلت الهزيمة المنكرة

بصفوف بني عامر فقتل منهم خلقاً عظيماً ولم ينج من رؤسائهم غير «أحمد بن مسعر، وأبي فراس بن الشباس»[٢٤] وكان «أحمد بن مسعر» على فرس له شقراء جواد، فنزل في حلة المنتفق القريبة للبصرة وهو على صورة مزرية من المرض وسوء الحال، أما الأمير «عبدالله بن علي» فقد منّ على الحرم والذراري وأخلى سبيلهم ولم يمكن العجم منهم، وقد أصطفى من معسكرهم أربعة آلاف ناقة فيها فحولها ورعاتها ومن الخيل ما أراد، وترك بقية المغنم للعجم وسائر العسكر وذلك في سنة ٤٧٠هـ[٢٥] .

وفي رأفة الأمير «عبدالله» بالأطفال والمستضعفين والنساء وحمايتهم دلالة على ما كان يتمتع به من أخلاق فاضلة والتزام بقيم الإسلام وتعاليمه في الحروب.

وبعد الفراغ من بني عامر استدار للبقية الباقية من القرامطة فقاتلهم في موقع شمال الأحساء بين «باب الأسفار» وقصر الخندق فأنزل بهم هزيمة منكرة، وقام على الفور بنفي من ظل منهم على قيد الحياة مع ذراريهم إلى عُمان حيث تكرر منهم الغدر ونقض العهود أكثر من مرة، يقول ابن المقرب :

فاستنجدتْ عامراً من باسها فأتتْ
مُغذَّةً لا ترى في سيرها يَتَما

ذكورُ خيلهمُ الفٌ مُصتَّمةٌ
ورَجْلُهم يُفعم الوادي إذا زَحَما

وجَمْعُنا في مِئينٍ اربعٍ حضرتْ
عَداً ولكنها أعلى الورى قَدَما

....

ثم انتحينا لعوفٍ بعدما ورمتْ
انوفُها ففششنا ذلك الورما

دُسناهمُ دوسةً مِرِّيةً جمعتْ
اشلاهُمُ وضباعَ الجوِّ والرَّخَما

لم ينجُ غيرُ رئيسِ القومِ تحملهُ
خيفانةٌ كظلومٍ ريعَ تحت سَما

ثم انثنينا بجُـــرْد الخـــيل نَجنبـــهـا
نقـــائذاً وافـــانا الســـبيَ والنَّعَـــمـا[٢٦]

تمرد البقوش :

لم تكد الحرب بين الأمير «عبدالله» وبني عامر تضع أوزارها حتى قام «البقوش» بإعلان التمرد والعصيان ومحاولة انتزاع الملك من يد الأمير «عبدالله»، إلاّ أن الأمير «عبدالله» تمكن من إحباط هذه المحاولة بإلقاء القبض على قائدها «البقوش» وإيداعه السجن ثم قتله بيده، ولم تتضح الأسباب الكامنة وراء تمرد «البقوش» وقتله، وإن ذهب بعض الباحثين إلى القول إن سبب ذلك هو عدم اقتناع «البقوش» بما حصل عليه من المكاسب المالية فطمع في الحصول على شيء من النفوذ والمزيد من الأموال، وهنا أُضيفَ سبب آخر هو قيام الأمير«عبدالله» بحماية نساء المنهزمين حفاظاً على حرماتهن والحيلولة دون وقوعهن سبايا في أيدي العجم الأمر الذي ربما أدى إلى إغضابهم ودفعهم إلى التمرد والعصيان، ومهما يكن من شيء فإن حادث قتل هذا القائد لم يمر بسلام، فقد أزعج هذا التصرف بلاط الخلافة العباسية، فقدم ركن الدولة من بغداد على رأس قوة قوامها ألفا فارس للانتقام من الأمير «عبدالله»، وحين وصل الأحساء طوّقها بالحصار الذي دام عاماً كاملاً تمكن خلاله من تأليب جميع القوى المناوئة للأمير «عبدالله» واستمالة الكثير من رجال البادية إلى جانبه، حتى لم يبق مع الأمير «عبدالله» سوى أهل بيته والمقربين إليه، حينئذٍ طلب ركن الدولة من الأمير «عبدالله» تسليم قاتل «البقوش» في مقابل رفع الحصار عنهم، غير أن الأمير «عبدالله» أبى ذلك الطلب بشدة وأصر على بذل الدية فحسب .

وتختلف الروايات في شروح ديوان ابن المقرب عن الكيفية التي رحل بها ذلك الجيش، تقول إحداها إن الأمير «عبدالله» استرضاهم بالمال والإبل حتى رحلوا، في حين تقول رواية أخرى إنه لما اشتد الحصار على الأمير «عبدالله» ومن معه من أهله وأقاربه خرجوا من القصر فباغتوا الأعاجم بهجوم كاسح وأنزلوا بهم هزيمة منكرة، اضطرتهم إلى الرحيل عن البلاد، وتذكر رواية ثالثة أن الأمير «علي بن عبدالله» حين

رأى ما يعانيه والده وقومه من الشدة والعنت جراء ذلك الحصار آثر أن يحل بنفسه عقدة تلك الأزمة فقال أقودهم بنفسي سلامة لكم، وخرج خفية دون علم أبيه، وسلّم نفسه إلى «ركن الدولة» قائد ذلك الجيش[٢٧]، حينئذٍ أمر «ركن الدولة» برفع الحصار عن الأحساء، وسحب عسكره وعاد إلى بلاده وفي معيته «علي بن عبدالله» حتى إذا وصل بلاد كرمان أمر باحتجازه في إحدى سجونها، وأوصى بحسن معاملته، ومن هذا المنطلق بعث أمير كرمان إلى «علي» بجارية لتقوم على خدمته، فغشيها، فحملت منه وأنجبت ولداً سماه «جسّاساً»، وفي هذه الأثناء قام الأمير «عبدالله» بمحاولةٍ لفكّ أسر ابنه «علي»، فبعث إلى كرمان رجلاً من أهل الأحساء يدعى «عزيز بن محفوظ» من بني أمية ومعه مال كثير، فلما وصل إلى هناك أقام علاقة طيبة مع مسؤول السجن الذي فيه «علي»، وما زال يغريه بالمال حتى قال ذلك المسؤول: «هل لك حاجة وتُقضى إن شاء الله؟» فأخبره بمراده، فقام على الفور بالإفراج عن «علي» ودفع به إلى صاحبه، فعاد به «عزيز» إلى الأحساء، ومكث ابنه «جساس» هناك حتى شب عن الطوق، ومن ثم لحق بأهله في الأحساء وقد ظهرت منه شجاعة نادرة وسلاحه السيف والدبوس[٢٨]، وكان الأمير «عبدالله» بعد أن رحل الأعاجم عن الأحساء قد أصدر عفواً عاماً عن جميع من انحاز إلى جانبهم من الأهالي، وعكف على إصلاح أمور البلاد وتنظيم شؤونها[٢٩]، يصور ابن المقرب في شعره هذه الأحداث فيقول:

وسلْ بقارونَ هل فازت كتائبُهُ
لمّا أتتنا وهل كنّا له غُنَمَا

والشرسكيّةُ إذ جاءت تطالبنا
دمَ النُّفوسِ وفينا تَقْسِمُ القِسَمَا

بيتان عندهمُا كانت رعيّتُنا
عوناً علينا ضلالاً منهمُ وعَمَى

ففرّج اللهُ والبيضُ الحدادُ لنا
وعزّةٌ لم تكن يوماً لمن غَشَمَا

وأصبحت حاسدونا في قبائلنا
لحماً أقام لهم جَزّاره وضَمَا

لكن عـفـونا وكـان العـفـوُ عـادتَنـا
ولـم نؤاخـذ اخـا جُـرمٍ بما اجـتـرمـا

....

منّا الذي جـاد بـالـنفس الخطيـرة في
عـزّ العشيـرةِ حـتى اسـتـرحلَ العَـجَـمـا[٣٠]

أطماع الأعاجم في الأحساء :

لم يكن حادث تمرد «البقوش» وما نجم عنه من صراع مع الأعاجم في محاولاتهم غزو الأحساء نهاية أطماع هؤلاء في هذه البلاد، فلم يمض وقت يسير على حادث تمرد «البقوش» وما نجم عنه من محاولات غزو الشراكسة للأحساء وصدهم عنها، حتى قام أحد ملوك العجم بمحاولة غزوها مرة أخرى، وذلك أن ملكاً من ملوك العجم كان قاضي بلاد «قارون بك»[٣١]خرج على رأس جيش عظيم قاصداً الأحساء، وكان قد سبقه إليها أيضاً ملك آخر في عسكر كثير قادماً عن طريق البصرة من جهة حماد بكين، فلما وصلت الجيوش مع الأمراء في زحفها إلى العيون في الأحساء تصدى لهم «أبومقرب الحسن بن غرير بن عبدالله» فاشتبك معهم في مناوشات فتراجع إلى مدينة الأحساء، وصار كلما أدركته جماعة منهم عطف عليهم فردهم حتى سبقهم إلى البلاد وأنذر الناس فلاذ التجار وغيرهم بجميع ما يعز عليهم من أموالهم بالقصر، فتعقبتهم العجم فلم تظفر بهم حيث تحصنوا وأخذوا الأهبة لقتالهم[٣٢]، حينئذٍ قلّب الأمير «عبدالله بن علي» الراي بطناً وظهراً، حيث لم يكن لديه من القوة والجند ما يقدر به على صدهم بالقوة والقهر، فرأى أن لا سبيل إلى التخلص منهم إلاّ بالمكيدة وسعة الحيلة، فقابلهم بإظهار الطاعة والامتثال وبالغ في إكرامهم وحسن معاملتهم وأنزلهم على بساط الإكرام في منازل لائقة خارج أسوار البلاد، ولم يمكنهم من النزول في قصورها، وفي ذات الوقت شرع في التودد إلى قادتهم وأمرائهم، فوثقوا به واطمأنوا إليه فزين لهم غزو عُمان وأغراهم بما فيها من الذهب والفضة وثياب الكتان والإبريسم وسائر المتاعات، فانخدعوا بقوله وعقدوا العزم على المسير إلى عُمان وطلبوا منه تزويدهم بمن

يرشدهم إلى طريقها فوعدهم بذلك، وأرسل إلى قوم من «خارجة» المقيمة في رمال صحراء الربع الخالي، ولما حضروا بين يديه أوصاهم سراً أن يصطحبوا الأعاجم بدعوى إيصالهم إلى عُمان وألا يدخروا وسعاً في العمل على هلاكهم جميعاً في وسط الصحراء، فساروا معهم وحادوا بهم عن طريق عُمان، ولما توغلوا في تيه الصحراء ونفد ما معهم من الماء والمؤن وأظلهم الليل وناموا، انسلوا عنهم وتركوهم يواجهون مصيرهم المحتوم فهلكوا جميعاً، ولم ينج منهم إلا رجل واحد عاد به فرسه إلى الأحساء وهو لا يدري إلى أي جهة كان يتجه وذلك في سنة ٤٧٤هـ .

كان الأمير «عبدالله بن علي» قد تقدمت به السن كثيراً وأدركه الكبر والضعف وهدت قوته الهموم والأحزان، فقد مات كبار أولاده وعدد من كبار أنصاره في مقدمتهم: أخوه لأمه «أبو مفرج مالك بن بطال»، و«أبو يوسف علي يوسف»، و«أبو مقرب الحسن بن غرير بن ضبار بن عبدالله»، حينئذٍ تجددت أطماع بني عامر وقباث في بسط نفوذهم على البحرين والقيام بخفارتها، فصاروا يشنون الغارات على أطراف البحرين في مواسم نضج الثمار في القيظ وكان كبار آل إبراهيم وأهل الأحساء يتصدون لهم ويدفعونهم عن البلاد على مدى ستة أعوام، وفي العام السابع التقى بهم جيش الأحساء بقيادة «أبي فضل محمد بن حواري بن الفضل» أحد كبار آل إبراهيم في «فقور السهلة» ودارت بين الفريقين معركة طاحنة انتهت بهزيمة أهل الأحساء بعد سقوط قائدهم «ابن حواري» صريعاً في ساحة القتال إثر طعنة غادرة بيد رجل من قباث.

وفي اليوم الثاني شن الغزاة هجوماً على الأحساء وطردوا الأهالي من نخيلهم ودخلوا معهم في صراع انتهى بصلح يدفع بموجبه أهل الأحساء لبني عامر سهماً من ثلاثة أسهم من الثمار[٣٣] .

من صفات الأمير «عبدالله بن علي العيوني»:

يتحلى الأمير «عبدالله بن علي العيوني» بكثير من الأخلاق الفاضلة والمزايا الحميدة، منها رجاحة العقل والدهاء والقدرة على صد الجيوش، والتخلص من الأعداء

بالخطط المحكمة والتدبير السديد، وفي ما سلف من حديثه مع «القاروني» دليل على هذا الجانب من مناقبه. وكان من حميد عادات الأمير «عبدالله» أنه يركب إلى مصلى العيد في موكب مهيب، فكان يسير بين يديه خلصاؤه من ذوي القرابة، والشتر[٣٤]مرفوع على راسه، والأعلام حوله وأمامه، يقول «ابن لعبون»[٣٥]: وكان مع ذلك العز والعظمة عابداً، عالماً، صواماً، عفيفاً، رؤوفاً بالرعية، وكانت جميع أمور المملكة ترد إليه.

ومن أمرائه على المناطق ابنه «الفضل» وقد أسند إليه إمارة القطيف وجزيرة أوال، ويذهب بعض الباحثين إلى القول أن ابنه «الفضل» كان أميراً على القطيف فحسب، كما كان ابنه «علي» أميراً على جزيرة أوال، وهناك رواية تقول: إن الأمير «عبدالله» جعل «الفضل» أميراً على القطيف أولاً ثم ضم إليه إمارة جزيرة أوال بعد أن أعفى ابنه «علياً» من إمارتها وطلب منه العودة منها والإقامة إلى جانبه في الأحساء، أما ابنه «الحسن» فقد أسند إليه إمارة الأحساء، ولعله كان أميراً على بعض أجزائها، لأن في المصادر ما يشير إلى أن الأمير «عبدالله» قد عيّن أمراء من غير أبنائه على بعض المناطق، فقد جعل «سلطان بن داود بن النعمان»[٣٦] أميراً على شمالي الأحساء، وعين «أبا شكر المبارك بن الحسن بن غرير» أميراً على الرحلين[٣٧]، وجعل ابن المقرب الأول[٣٨] واسمه «الحسن بن غريف» الملقب بالحاشر في شيء من الإمارة .

وكان جميع هؤلاء يؤدون مهامهم في ظل إمرة الأمير «عبدالله» وتوجيهاته،ومن هنا يتبين أنه قسم البلاد في إطار التنظيم الإداري إلى ثلاث مناطق هي: الأحساء، والقطيف، وأوال، وأنشأ عدداً من الدواوين[٣٩] منها: ديوان الإمارة، وديوان الخزائن، وديوان الجند، وديوان الإقطاع، وقد أسند إدارتها إلى بعض الأمراء من رهطه، كما اتخذ للدولة الأعلام والرايات[٤٠]وإن لم تصلنا صفتها، وفي ما يتصل بالعملة – وهي إحدى مظاهر السيادة للدول – فلم نجد في المصادر ما يشير إلى قيام العيونيين بسك عملة خاصة بهم، بيد أن استعمالهم للدنانير الذهبية[٤١] المتداولة أيام العباسيين كان شائعاً، ولعلهم اكتفوا بتداولها رغبة منهم في الاحتفاظ للعباسيين بالولاء الاسمي الذي لايتجاوز التعامل بمسكوكاتهم، والدعاء لهم في الخطب على منابر البلاد.

أما الاسم الرسمي للدولة العيونية فقد جاء في المصادر متعدداً، فقد أطلق عليها اسم مملكة[٤٢]وسلطنة وإمارة كما نُعت حكامها بالملوك[٤٣]والأمراء، وأرى أن وسم هذه الدولة بالإمارة هو الاختيار الأفضل لمحدودية النطاق الجغرافي الذي تشغله سلطتها ولقربها من حاضرة الخلافة العباسية وحرص الأمراء العيونيين على التظاهر بالولاء الاسمي لهم وتوثيق العلاقة بهم.

وصفوة القول إن الإمارة العيونية قد استكملت على يد مؤسسها الأمير عبدالله بن علي كافة مقومات السيادة والاستقلال. وقد شملت الإمارة في عهده جميع أراضي البحرين من البصرة شمالاً إلى عُمان جنوباً، ومن الدهناء غرباً إلى الخليج وما يتبعه من جزر شرقاً .

وقد تضاربت الروايات في سنة وفاة الأمير «عبدالله بن علي» فقد جاء في مخطوطة الديوان أن حكمه دام ستين سنة، وذلك منذ أخرج القرامطة سنة ٤٤٠هـ، ولعل المراد سنة ٤٦٩هـ أو سنة ٤٧٠هـ حيث تمت له الإطاحة بحكمهم وتسلم مقاليد السلطة في الأحساء، فقد قطع المديرس بالقول إن حياته امتدت حتى سنة ٥٢٠هـ الموافق ١١٢٦م، وقد أمضى في الحكم مدة نصف قرن، وكانت وفاته في حدود سنة ٥٢٠هـ الموافق سنة ١١٢٦م[٤٤] .

ويفترض العمّاري[٤٥] أن وفاته في سنة ٤٨٤هـ الموافق سنة ١٠٩٠م، فقد انتقل الأمير «عبدالله العيوني» إلى جوار ربه في العقد الثاني من القرن السادس على وجه التقريب، بعد أن أمضى في الملك زهاء خمسين سنة حافلة بالأحداث الجسيمة والبطولات الفذة .

تلك الأحداث والبطولات التي جعلت من الأمير «عبدالله» واحداً من الرجال الذين أسهموا في الجهاد المبرور بإضافة الصفحات المشرقة إلى أمجاد بلاده وإعادة الوجه المشرق الوضّاء إليها، وكان له رحمه الله من البنين ثمانية وست بنات هم: «أبو محمد

الفضل، وابو منصور علي، وابوع لي الحسن، وابو غرير مقلد، وابو مسيب، وماجد، وضبار أو صبار، ومسعود» الذي توفي في حياة أبيه، يقول ابن المقرب :

ابوعليٌ وفضلٌ ذو الندى وابو
مُسيِّبٍ وهما تحت العجاجِ هُما

ومِسعَرُ الحربِ مسعودٌ إذا خمدتْ
وماجدٌ وابنُ فضلٍ خيرُها شِيَما

هُمُ بنوه فلا مِيلٌ ولا عُزُلٌ
ولا ترى فيهمُ وَهْناً ولا سَأَما(٤٦)

****

الهوامش

(١) العيون : قرية تقع على مشارف الأحساء، ياقوت الحموي : ج٤، ص ١٨٠ إلى ١٨١ .

(٢) مخطوطة ديوان ابن المقرب: ص ٤٧٨ .

(٣) مخطوطة ديوان ابن المقرب: ص ٤٧٨ .

(٤) مخطوطة ديوان ابن المقرب: ص ٤٧٨ .

(٥) مخطوطة ديوان ابن المقرب: ص ٤٧٩ .

(٦) مخطوطة ديوان ابن المقرب: ص ٤٨٣ .

(٧) مخطوطة ديوان ابن المقرب: ص ٤٨٣، وفي رواية أخرى ستة الاف فارس .

(٨) ويعرف أيضاً بـ «أرتق بن أكسب» إليه تنتهي ملوك الأرتقية، تركماني الأصل كان قد تغلب على الشام وملك القدس سنة ٤٨٤هـ .

(٩) مخطوطة ديوان ابن المقرب: ص ٤٨٣ .

(١٠) مخطوطة ديوان ابن المقرب: ص ٤٨٣ .

(١١) مخطوطة ديوان ابن المقرب: ص ٤٨٣ .

(١٢) مخطوطة ديوان ابن المقرب: ص ٤٨٣ .

(١٣) مخطوطة ديوان ابن المقرب: ص ٤٨٣ .

(١٤) مخطوطة ديوان ابن المقرب: ص ٤٩٠ .

(١٥) عبدالفتاح الحلو : ديوان ابن المقرب ص٤٧٠ .

(١٦) مخطوطة ديوان ابن المقرب: ص ٤١٦ .

(١٧) مخطوطة ديوان ابن المقرب: ص ٥٠٥ : ٥٠٦ .

(١٨) إحدى القرى الشمالية بالأحساء قريبة من بلدة الكلابية المعروفة .

(١٩) مخطوطة ديوان ابن المقرب: ص ٤٩٠ .

(٢٠) مخطوطة ديوان ابن المقرب: ص ٤١٥ .

(٢١) مخطوطة ديوان ابن المقرب : ص ٤١٥ ، ٤١٦ .

(٢٢) عبدالفتاح الحلو : ديوان ابن المقرب ص ٥٣٨، ٥٣٩ .

(٢٣) مخطوطة ديوان ابن المقرب: ص ٤٨٥ : ٤٨٧ .

(٢٤) مخطوطة ديوان ابن المقرب: ص ٤٨٦ .

(٢٥) مخطوطة ديوان ابن المقرب: ص ٤٨٦ .

(٢٦) عبدالفتاح الحلو : ديوان ابن المقرب، ص ٥٣٤ و٥٣٧ .

(٢٧) عبدالفتاح الحلو : ديوان ابن المقرب ص ٥٤٠ .

(٢٨) مخطوطة ديوان ابن المقرب: ص ٥٤٠ .

(٢٩) عبدالفتاح الحلو : ديوان ابن المقرب ص ٥٣٨ .

(٣٠) عبدالفتاح الحلو : ديوان ابن المقرب ص ٥٣٨، ٥٤٠.

(٣١) مخطوطة ديوان ابن المقرب : ص ٤٨٩ .

(٣٢) مخطوطة ديوان ابن المقرب: ص ٥٠٥ .

(٣٣) مخطوطة ديوان ابن المقرب: ص ٥٠٦، ٥٠٧ .

(٣٤) الشتر : كلمة فارسية تعنى المظلة .

(٣٥) أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري: أنساب الأسر الحاكمة في الأحساء، القسم الأول، ص ٦٣٠ .

(٣٦) مخطوطة ديوان ابن المقرب: ص ٥٠٧ .

(٣٧) مخطوطة ديوان ابن المقرب: ص ٥٠٥ .

(٣٨) الملا : تاريخ هجر، ج٢، ص ٥٨٤ .

(٣٩) مخطوطة ديوان ابن المقرب: ص ٤٤٩، ٥٠٠ .

(٤٠) عبدالفتاح الحلو : ديوان ابن المقرب ، ص ١٦٦وأنساب الأسر الحاكمة :القسم الأول، ص ٦٣٠.

(٤١) عبدالفتاح الحلو : ديوان ابن المقرب،ص ٥٤١ إلى ٥٤٥ .

(٤٢) عبدالفتاح الحلو : ديوان ابن المقرب، ص ٥٥٩، ومخطوطة الديوان ص ٥٠٩ .

(٤٣) عبدالفتاح الحلو : ديوان ابن المقرب، ص ١٦٣، ٥٢٥، ٥٥٦ .

(٤٤) المديرس : ص ٩٨ .

(٤٥) العماري : ص ٤٩ .

(٤٦) عبدالفتاح الحلو : ديوان ابن المقرب، ص ٥٣٤ – ٥٣٥ .

****

الفصل السادس

الإمارة العيونية من الازدهار إلى التمزق والانقسام

أ ـ إمارة «الفضل بن عبدالله بن علي العيوني» سنة ٥٢٠هـ الموافق سنة ١١٢٦م :

تبوأ «أبومحمد الفضل» سلطة الملك بعد وفاة أبيه «عبدالله» وفي أيامه عمّ الاستقرار والرخاء أرجاء البلاد، حيث أبدى عناية فائقة في إنعاش الحياة الاقتصادية وتفقد أحوال الناس وإصلاح شؤونهم، والعمل الدؤوب على حماية البلاد وصد الأعداء، وتقليم أظفار العابثين بالأمن وقطاع الطرق فأقبل الناس على الاشتغال بمصالحهم في الزراعة والتجارة وغيرهما من ألوان النشاط الاقتصادي، وبغية إصلاح أحوال المستضعفين من شعبه، فقد حمى لإبلهم مع إبله بعض المراعي في الأراضي الممتدة من ثاج إلى قطر، وفي ذلك يقول ابن المقرب :

منا الذي حاز من ثاجٍ إلى قطرٍ
وصيّر الرملَ من مال العدوّ حِمى[1]

وكان «الفضل» كثير التنقل بين بوادي مملكته ونواحيها لكبح جماح رجال البادية والقضاء على قطاع الطرق، يُذكر أنه خرج ذات يوم منفرداً إلى بعض المراعي من حماه ورأى أعرابياً يرعى إبله فيها ومعه آخر يقول له : ويحك ألا تخاف من الأمير «فضل بن عبدالله» على مالك ونفسك وأنت تعلم أن هذا المكان من حماه ؟، فأجاب الرجل مستبعداً معرفة الفضل بذلك رافعاً صوته :

متى يلتقي مَنْ نارُ «بردٍ» محلّهُ
وآخرُ سوديٌّ بعيدٌ مذاهبُهْ[2] ؟

فسمعه «الفضل» فقال: «الساعة يا أخا العرب» فبُهت الرجل وعد ذلك من غرائب الاتفاق، وإلى هذه الحادثة يشير ابن المقرب بقوله:

فلم يستتمُّ القولَ حتى إذا بهِ
يسايره والدهرُ جمٌّ عجائبُهْ
فقال له الآنَ التقينا فارعدتْ
فرائصُه والجهلُ مُرٌّ عواقبه
ومَنْ تلكمُ آباؤه وجدودُهُ
فمن ذا يسامي فخرَه او يُقاربه(٣)

ومما جرت به الألسنة كشاهد على كرم الفضل واهتمامه البالغ بأمور رعيته وأحوال الوافدين إلى بلاده وإقالة عثراتهم موقفه من التجار المنكوبين في مياه الخليج، وكان في حديثه معهم كما يذكر شارح ديوان ابن المقرب أن جماعة من التجار قصدوا البحرين فانكسرت بهم السفينة فتمكنوا من النجاة بعد أن غرقت أموالهم، وقد بعث الأمير «الفضل» بمن غاص على أموالهم فاستخرجوا أكثرها، وأعطى كل واحد من التجار مثل الذي كان قد فقد، وكان من بينهم رجل أعطاه مائة ألف دينار اشترى بها جواهر وصعد إلى البصرة، وعندما عرضها للبيع هناك استدعاه السلطان في البصرة وقال له: «أحضر لي أحسن ما عندك من الجواهر» ففعل، وصار السلطان يدفع للتاجر عما قيمته الفان الفاً، وعما قيمته ثلاثة آلاف الفين وأقل، فضحك التاجر فتعجب منه السلطان ثم قال التاجر: «ما أردته من هذا المال خذه بلا قيمة فإن هذا كله وغيره هبة لي من رجل عربي» فقال السلطان : «ويلك، ومن هذا العربي؟» فقال التاجر: «الأمير الفضل بن عبدالله بن علي العيوني» ملك البحرين، وقص عليه قصته من أولها إلى أخرها، فأمر السلطان في الحال بجام من شراب فأوتي به فقام واقفاً وأخذ يشرب وقال : «إن شربي هذا قائماً إنما هو إقرار للفضل بن عبدالله العيوني بالفضل على الكل بلا منازع»، وصار يشتري من التاجر بالثمن الذي يحدده، يقول ابن المقرب:

منّا الذي قامَ سلطانُ العراقِ لهُ
جلالةً والمدى والبُعدُ بينهما(٤)

وفي عهد «الفضل» اتسعت الدولة واتخذت مكاناً مرموقاً في العلاقات الخارجية، وكان قد أقر أخاه «علياً» أميراً على جزيرة أوال(٥) وأخاه «الحسن» أميراً

على الأحساء، كما اتخذ من مدينة القطيف مقراً لكرسي حكمه ثم نقله إلى جزيرة أوال وقد وافاه الأجل صريعاً على يد بعض خدمه في جزيرة تاروت سنة ٥٢٥هـ [٦].

وتذكر رواية أخرى أن وفاة «الفضل» كانت في حياة أبيه حين كان أميراً على جزيرة أوال والقطيف، وأن ابنه «أبا سنان» تسلم الحكم بعد وفاة جده «عبدالله بن علي»، ويمكن رفض هذه الرواية لولا إشارتان في مخطوطة الديوان يمكن القول معهما أن الأمير الفضل تولى مقاليد الملك في حياة أبيه.

وتختلف آراء الكتاب المعاصرين حول تولي «الفضل بن عبدالله» لمقاليد الملك وتاريخه ومدته، وتداخل هذه الولاية مع ولاية ابنه «أبي سنان محمد»، فالمديرس مثلاً يرفض هذه الولاية، ويُسقط «الفضل» من سلسلة الحكام المباشرين للملك في الأحساء، ويجعل وفاة «الفضل» في سنة ٤٨٤هـ الموافق سنة ١٠٩٠م، ووفاة أبيه في حدود سنة ٥٢٠هـ الموافق سنة ١١٢٦م .

أما العمّاري فيسجل ما يشوب هذه المعلومة من قصور فيقول متسائلاً[٧] :«كيف يضم مؤسس الدولة «عبدالله» أوال إلى حفيده «محمد بن الفضل» فيعزل ابنه «علياً» عن الإمارة مهما كانت مميزاته الخاصة»، والأمر الآخر أن تاريخ «الفضل» صريح الدلالة على سيادته على الحكم دون منازع، وأن أخويه «علياً والحسن» كانا منضويين تحت تلك السيادة كأمر لا بد منه حسب الأعراف القبلية، ثم يشير إلى غياب شخصية المؤسس «عبدالله» عن مسرح الأحداث طيلة أيام حكم «الفضل»، ويرجع التداخل بين «الفضل» وابنه إلى أنه ربما كان عيّن ابنه «محمداً» أميراً على القطيف بدلاً منه بعد توليه الحكم، وتفرغ هو لبسط سيادة الدولة على مناطق التهديد الخارجية أي البادية، فالديوان يذكر أنه كان لا يقيم ببلد، بل هو مرة في الأحساء ومرة بالقطيف ومرة بأوال في «الفلاة»، وكان بقاؤه في الفلاة أكثر ليقطع غوائل البوادي عن البحرين، ويعتبر قول ابن المقرب في «الفضل»:

همامٌ حمى البحرينَ سَبْعاً ومثلَها
سنينَ وسارت في الفيافي كتائبُهُ[٨]

نصاً قاطعاً على أن الحكم آل إلى «الفضل» وأنه كان يتجول في أرجاء إمارته على أساس أنها كل واحد، ولا يرى هناك تحديداً دقيقاً لسنوات حكم «الفضل»، ولكنّ ابنه «محمداً» تولى إمارة القطيف بعد سنة ٥٢٠هـ الموافق سنة ١١٢٦م، فهو يفترض أن وفاة «عبدالله» كانت سنة ٤٨٤هـ الموافق سنة ١٠٩٠م وليست وفاة «الفضل»، وأن حكمه امتد إلى سنوات طويلة حتى سنة ٥٢٠هـ، لذا فهو يرجح ما يذهب إليه في توليه الحكم بعد أبيه .

وإزاء هذه الروايات المتضاربة والآراء المختلفة فإنني أرى أن «الفضل» قد باشر ولاية الحكم فعلاً، والإشارات في شروح ديوان ابن المقرب واضحة الدلالة على ذلك، منها على سبيل المثال قول تاجر اللؤلؤ لسلطان البصرة في إجابته عن سؤاله حين سأله عمن وهبه اللؤلؤ ؟ قال التاجر :«الأمير الفضل بن عبدالله بن علي العيوني» ملك البحرين، كما أرجّح أن وفاة والده كانت في سنة ٥٢٠هـ أو بعد ذلك فقد نصت بعض روايات شروح ابن المقرب على أن مدة حكمه خمسون عاماً[٩]، ومن المعلوم أنه استصفى ملك البحرين في العام السبعين بعد الأربعمائة، فإذا أضفت إليها الخمسين عاماً التي هي مدة حكمه صارت تساوي خمسمائة وعشرين عاماً. وتذكر رواية في مخطوطة الديوان أن له في الحكم منذ أخرج القرامطة من الأحساء ستين عاماً[١٠]، وهذا يعني أن وفاته كانت في أواخر العقد الثالث من القرن السادس الهجري، أو ربما يكون المراد منذ خرج لقتال القرامطة وهو ما ذهبت إليه بعض الروايات من أنه شرع في الاستعداد لحرب القرامطة ومناوشتهم منذ عام واحد وستين بعد الأربعمائة، وقد جاء في المخطوطة المذكورة أيضاً أن الأمير «عبدالله» قد تقدمت به السن كثيراً وقد أدركه الكبر والضعف حتى أنه لم يعد قادراً على سل السيف من غمده[١١]وكان أولاده الكبار قد ماتوا آنذاك، ومن هنا يمكن القول أن ابنه «الفضل» قد تولى السلطة وباشر إدارة شؤون الملك .

أما تاريخ وفاة «الفضل» ومدة مكثه في الحكم فلا يمكن القطع بالقول فيها على وجه التحديد، فربما كان اغتياله في حياة أبيه سواءً في سنة ٥٢٠هـ أو قبلها، حينئذٍ لا

يكون المراد بقول ابن المقرب فيه «همامٌ حمى البحرين سبعاً ومثلها» أن مدة ملكه أربعة عشر عاماً، بل المراد أنه قام بمهام حماية البحرين وإدارة شؤون الملك هذه المدة وإن وقعت في عهد أبيه، فأعطى نشاطه ذلك الانطباع بأنه ملك البحرين، وأن الأربعة عشر عاماً هذه تمثل عدد سني حكمه، وربما تفسر هذه الإشارة غياب الأمير المؤسس عن مسرح الأحداث، كما تجعل انتقال السلطة بعد اغتياله إلى ابنه «محمد أبي سنان» مقبولة أيضاً جرياً على ما تقضي به تقاليد الحكم الوراثي من انتقال الحكم للابن بعد وفاة أبيه .

وصفوة القول أن عهد «الفضل» يعتبر عهد استتباب الملك وازدهار الحياة الاقتصادية والاجتماعية، فقد شمل حكمه كافة أجزاء بلاد البحرين، كما تمتع باحترام حكام البلاد المجاورة وإقامة العلاقات الطيبة معهم، وكان على جانب من الأخلاق الفاضلة في مقدمتها الشجاعة والكرم، وله من الأبناء: «أبوسنان محمد» الذي ولي الحكم بعده، و«أبوشبيب جعفر»، و«أبوفراس غرير»، وقد كانوا من أكثر الرجال ثراءً بالسيرة الحميدة في البطولات والجود .

ب - إمارة «أبي سنان محمد بن الفضل» من ٥٢٥- ٥٣٨هـ/ الموافق ١١٣٠ - ١١٤٣م:

تولى «محمد بن الفضل» مقاليد الملك خلفاً لأبيه وقد اتخذ بعد توليه عدداً من الإجراءات المهمة واللافتة للنظر، فقد نقل عاصمة الملك من الأحساء إلى القطيف، وجعل ابن عمه «أبا مقدم شكر بن علي» أميراً على الأحساء، وأسند إمارة جزيرة أوال إلى أخيه «غرير»، مما يعني أن عميه «الحسن وعلياً» لم يعودا يشغلان مهام الإمارة فيهما رغم أنهما كانا يزاولان هذه المهام منذ وقت بعيد، وإذا كان لنقله كرسي الحكم من الأحساء إلى القطيف بعض المعاذير باعتباره الإقليم الذي كان الأمير «محمد» قد تولى إمارته وقضى فيه سحابة عمره فإننا لا نجد أسباباً واضحة لتواري عميه عن مسرح القيادة الإدارية للدولة، وليس أمامنا سوى الاجتهاد في تلمس هذه الأسباب، وهي لا تخرج عن أحد احتمالين: الأول : أن يكونا غير راضيين عن انتقال مقاليد الملك لابن أخيهما «محمد» وهما على قيد الحياة، وإن كفاءتهما وقربهما من المؤسس يجعلهما

أكثر استحقاقاً في تَبوءِ عرش الإمارة مما يعني قصر الملك على بيت «الفضل» واستمراره فيه، لذا آثرا التخلي عن منصبيهما والابتعاد عن مجرى الأحداث، والاحتمال الآخر أن الأمير «محمداً» قد لمس في عميه عدم الارتياح من توليه فأوجس خيفة منهما وعمد إلى تنحيتهما عن عملهما كإجراء احترازي يحد من نفوذهما وقدرتهما على العمل ضده، وربما لاحظ أن موقف عمه «علي» أكثر ليناً فسعى للتودد إليه بتعيين ابنه «شكر» في إمارة الأحساء .

وفي الأحداث التالية ما يعزز رجحان هذا الاستنتاج، وعلى العموم فقد سار الأمير «أبوسنان محمد» في حكم البلاد سيرة أسلافه، فلم يدخر وسعاً في الحرص على استتباب الأمن والتيقظ الشديد لأطماع زعماء القبائل، ومن بين هؤلاء من حاول اختبار قوّته ومدى سيطرته وضبطه للأمور، من ذلك أن أحد زعماء العشائر ويدعى «حماداً النائلي» من الأخلاف، طمع في اغتصاب حكم الأحساء فسار لهذه الغاية على رأس جمع من عامة أهل الأحساء دانوا له بالولاء والطاعة، فأغاروا على البلاد ولازالوا يباكرونها ويراوحونها بالغزوات ثلاثين يوماً، وبعد مقتلة عظيمة تمكنوا من اقتحام الأبواب ودخلوا البلد، فتصدى لهم أميرها «أبومقدم شكر بن علي» وأبناء عمومته وكل من يحمل السلاح من وجوه قومه وجنده واغتنموا فرصة اشتغالهم بالنهب، فحملوا عليهم حملة صادقة سقط خلالها قتلى كثيرون وتعقبوهم حتى أخرجوهم من الجرعاء[١٢]، ويُحكى أنه وُجد فيهم موتى بلا ضرب سلاح، فبعد تلك الواقعة أيسوا من البلاد وبعثوا يطلبون الصلح، فصالحهم وسُمّي موضع المعركة بالخانس[١٣]، وإلى ذلك يشير ابن المقرب قائلاً:

منا الذي عــامَ حــربِ النائليِّ جــلا
يومَ السُّبَيْعِ ويومَ الخـانسِ الغُـمَـمـا[١٤]

وفي هذه الرواية دلالة واضحة على أن هذه المعركة جرت في زمن حكم «أبي سنان محمد بن الفضل» وأن «أبامقدم شكر بن علي» كان آنذاك أميراً من قبل

«أبي سنان» على الأحساء، ولم تقع في أيام ملك «أبي مقدم شكر بن علي»، وقد جاء في شرح الديوان أن ملك البلد يومئذٍ «أبوسنان» وهو نازل في القطيف ومولّيها «أبومقدم شكر بن علي» .

وإذا كان اليأس من اغتصاب الأحساء قد تسرب إلى نفس «النائلي»[١٥] وأتباعه، فإن «غفيلة بن شبانة» رئيس بني عامر لم ييأس من ذلك، فقد قام بمحاولة جريئة وجهها هذه المرة إلى الأمير «أبي سنان» مباشرة، وقد قابلها «أبوسنان» بكل شجاعة وإقدام، فكان من حديثه كما يقول شارح ديوان ابن المقرب : إن غفيلة أراد الحلول وقت القيظ على القطيف وفيها «أبوسنان» فبعث إليه «أبوسنان» بألاّ يحل على القطيف وإنما الأحساء تحتملك غير احتمال القطيف فأبى «غفيلة» إلا حلول القطيف، وأرسل إليه «أبوسنان»: إن حللت القطيف قاتلتك، فنزل رغم معارضة «أبي سنان» له، فحمل عليه «أبوسنان» ومن معه حملة هائلة فهزم «غفيلة» واستولى على حلته وقطع أطناب بيته ورمى بها على الأرض، فعطف «غفيلة» من بعد الهزيمة على قوم «أبي سنان» وقت اشتغالهم في النهب، فانكسر أصحاب «أبي سنان» ولم يثبت غيره، فحاطوا به فضربهم بالسيف حتى قتل منهم جماعة من جملتهم رجل شقه نصفين بضربة فسُمِّي «الشقّاق»، فانزاحوا عن وجهه وسار ولم يجسر أحد على تعقبه إلى أن وصل البلد، ورجع «غفيلة» بعد الواقعة إلى الأحساء، ونزل في كنف الأميرين «علي والحسن» عمي «أبي سنان»، كما حظي بالترحيب من أميرها «أبي مقدم شكر» مما يوحي بوجود تحرك عسكري منسق يعتزم القيام به ضد الأمير «محمد» بنو عامر الذين شدهم الحنين إلى استعادة نفوذهم وأعمامه الطامعون في انتزاع السلطة من قبضته، وإن محاولة «غفيلة» ومراغمته بالنزول في القطيف لم تكن إلا مقدمة لذلك التحرك، حيث أراد استدراجه وجره إلى مجابهة شاملة تتم فيها تصفية الحسابات، وبالفعل نجحت المحاولة بين الأمير «أبي سنان» من جهة وأعمامه وأنصارهم من جهة أخرى فتطور الخلاف إلى حد الصراع المسلح، حيث استحالت شكوك الأمير في أعمامه إلى يقين، فاتخذ زمام المبادرة لإجهاض محاولتهم التآمرية ضده والقضاء على الفتنة في مهدها، فسار على رأس جيش كثيف من أهل القطيف قاصداً الأحساء، وهناك وجد خصومه

وعلى راسهم أعمامه قد أخذوا الأهبة لقتاله ودحره فدارت بين الطرفين معركة طاحنة انتهت بالظفر لجيش الأحساء، حيث حاقت الهزيمة بعسكر القطيف، وخر الأمير «أبوسنان» صريعاً في أرض المعركة، كما قُتل من جيشه عدد كبير في طليعتهم أخوه «أبوشبيب جعفر» وذلك في سنة ٥٣٨هـ الموافق سنة ١١٤٣م، فانطوت بذلك صفحة من اكثر الصفحات إشراقاً في تاريخ الدولة العيونية لما اتسم به عهد «أبي سنان» من استقرار وأمن ورخاء وازدهار في الحياة الاقتصادية والأدبية، يوضح ذلك ما جاء في شعر ابن المقرب وشروحه من روايات، منها قول شارح ديوان ابن المقرب بصدد الحديث عن كرم «أبي سنان» أن عامله على جزيرة أوال جاء إليه بمال كثير من الذهب واللؤلؤ والجوهر، وكان في المجلس رجل من أهل العراق يعرف «بالثعلبي» وكان شاعراً فاضلاً أديباً فأمر الأمير بدفع ذلك المال كله «للثعلبي»، فقال العامل : هل تدري بقيمة هذا المال ؟ فقال : وكم ذلك ؟ فعد كثيراً وذكر قيمة جوهرة فيه بألف دينار فقال : ادفعوا إليه فما أراه كثيراً كما تقول ولو كان أكثر من هذا لكان أحب إليّ، فانشقت مرارة العامل من الغم فمات، يقول ابن المقرب :

منّا الذي مِن نَداه مات عاملُهُ
غمّاً وأصبح في الأموات مُخترَما[16]

وهكذا مات الأمير «أبو سنان محمد بن فضل بن عبدالله بن علي العيوني» بتدبير من عميه «أبي منصور علي بن عبدالله والحسن بن عبدالله بن علي» بعد حكم دام ثماني عشرة سنة أو يزيد، وقد كان لموته أثر بالغ الأسى في نفس الشاعر الثعلبي، فقد جاء إلى الأحساء في ملك الأمير «أبي منصور علي بن عبدالله العيوني» وخرج لزيارة قبر «أبي سنان» وحين صار القبر منه على مدى البصر نزل عن فرسه ومشى حتى بلغ القبر فانكب يبكي وقال:

عزيزاً ان أُعاتب فيكَ دهراً
قليلاً همُّه بمعنّفيهِ
وان القى الملوكَ ولستَ فيهم
وان اطا الترابَ وانتَ فيه

ثم التفت إلى قبر أخيه «أبي شبيب جعفر بن الفضل» بإزائه وقال :

أعـــــجـــــوبةٌ مـن عـــــجب الدهـــرِ
إطـبـــــــاقُ لـوحـين عـلـى بـحــــــرِ[17]

وكان أبو شبيب هذا كريماً ماجداً، من خبره بهذا الصدد أن ابن عمه أبا مقدم مات له فرس فلما بلغه ذلك بعث إليه أربعين جواداً خلفاً فيها، فأخذ أبو مقدم واحداً ورد الباقي، فأعادها أبو شبيب ثانية إلى ثلاث مرات والخيل تذهب وتجيء[18]، ثم نادى أبو شبيب في من عنده بنهبها وكل ما في الإسطبلات من الخيل، ومن حاز شيئاً فهو له فانتهبوها كلها، وكان كلما خرج من منزله أخذ معه شيئاً من الدنانير وفرقها على من يعترض طريقه من ذوي الحاجة، يقول ابن المقرب:

منا الذي انهبَ اصطبـــــلاتِه كـــــرماً
وَهْي الجـيـــادُ اللواتي فـــاتتِ القِـيَـمـــا
وكــــان إن سـار فـــالعِــقْــيــانُ تتـبـعـهُ
لســـائلٍ رُدّ أو مــســتــرفِـدٍ حُــرِمـــا[19]

ويُذكر من أولاد «أبي سنان» غرير وأبوالحسين أحمد، ومن أبرز عماله «محمد بن بدر بن مورق» فقد أسند إليه إمارة الرحل بعد الأمير مقرب بن الحسن[20]، وبموت «أبي سنان» بدأ النزاع يسري في كيان الدولة العيونية، وأخذت الفتنة تطل برأسها بين أفراد الأسرة الواحدة حتى كاد الأمر يخرج من أيديهم .

ج- الصراع بين الأمراء العيونيين وانقسام الإمارة إلى قسمين :

في أعقاب وفاة الأمير «محمد بن الفضل بن عبدالله العيوني» سارع أهل الأحساء إلى مبايعة الأمير «أبي المنصور علي بن عبدالله»، كما سارع أهل القطيف وأوال إلى مبايعة الأمير «الحسن بن عبدالله» وتعود أسباب ذلك إلى عدة أمور منها، اعتقاد القوم بأحقية بقاء السلطة في يد أبناء الأمير المؤسس، ورفض حصرها في سلالة الأمير «الفضل» لدرء ما قد يقع من صراع على السلطة بين أفراد الأسرة العيونية وما سينجم عن ذلك من زعزعة للأمن والاستقرار، إلا أن هذا التوجه لم يصل إلى حدّ المحافظة على

وحدة مناطق البلاد وتماسكها، بل آثر أهل كل منطقة أن يولّوا عليهم من أبناء الأمير «عبدالله بن علي» الأكثر قرباً منهم والأكثر حظوة عندهم، وهكذا جاء اختيار أهل الأحساء «لعلي» وأهل أوال والقطيف «للحسن» إذ من المعلوم أن كلاً من هذين قد أمضى معظم سني عمره ومهام أعماله في الجهة التي انتهت إليه رئاستها.

د - سير الأحداث في الإمارة:

يبدو أن كلاً من هذين الأميرين قد قنع بما تحت يده من أجزاء البلاد، ومن اللافت للنظر أن الأمير «الحسن» حين آلت إليه السلطة في القطيف وجزيرة أوال لم يتخذ من الأخيرة مقراً لكرسي حكمه رغم ما كان لها في نفسه من مكانة خاصة، حيث أمضى سحابة عمره للإقامة فيها وإدارة شؤونها، بل فضّل أن يجعل كرسي حكمه في مدينة القطيف، وقد يكون سبب ذلك رغبته في ترضية أهلها والتودد إليهم، وتضميد ما تركه رحيل محمد بن الفضل من جراح في نفوسهم وهم الأمراء الذين آثروا أن تكون هذه المدينة طيلة أيام حكمهم حاضرة الدولة وقاعدة الملك فيها، هذا إلى جانب حرص الأمير «الحسن» على مراقبة تحركات أخيه «علي» في البر والبحر، وتقاسم ولاء سكان البادية من القبائل وعدم الانعزال عنهم في جزيرة أوال .

فقد أشارت المصادر إلى ما يجري بين الأخوين من تنافس في استقطاب ولاء السكان والاستئثار بمودتهم، ومن ذلك على سبيل المثال ما جاء في شرح ديوان ابن المقرب، فهو يقول بهذا الصدد : إن سبعين رجلاً من «عبدالقيس» يُعرفون بالدياسمة(٢١) خرجوا من الأحساء حين ملكها «أبو منصور» خوفاً منه، فقصدوا الأمير «أبا الحسن» في القطيف، وحين بلغوا باب القصر أمر بإحضارهم عنده فصعدوا إليه وأشغلهم عنده بالحديث، وقد أمر لهم بدور و بساتين وأمتعة وأوانٍ وذهب وفرش وخدم وما يحتاجون إليه، وحضره ذات يوم أربعون شاعراً فأعطى كل واحد منهم فرساً وإلى ذلك يشير ابن المقرب بقوله(٢٢) :

مـنّـا الذي جـعـل الأقطاعَ من كـرمٍ
إرثاً تَوزّعـه الورّاث مُـقـتَـسَـمـا

وجـــــاد في بـعض يـوم وَهْو مـــــرتفِقٌ
بـاربـعين جـواداً تـعلك اللُجُـــــمـــــا

ويرى المديرس[٢٣]أن هذا الإجراء قد أثار حفيظة الأمير «علي» فسار «علي بن عبدالله» إلى أخيه معاتباً، فاستقبله «الحسن» أحسن استقبال، وفي محاولة لترضيته أقطعه بلدة الظهران، ويعارض العمّاري[٢٤]هذه الرواية فيقول : ونحن نميل إلى أن الأمير الذي أقطعه «الحسن بن عبدالله» الظهران هو «سليم بن مفلح» وليس «علياً»، إذ إن «علياً» كان أميراً على الأحساء حسب الرواية الأولى فكيف يقطعه «الحسن» ما هو جزء من ممتلكاته؟ وإنما الذي أُقطع هو «سليم بن مفلح» الذي يقول فيه :

وفي سُليمٍ لنـا عـــزٌ ومـــفـــتـــخَـــرٌ
ومُـــــفلِحٌ وهُمـا لـلـه دَرُّهُمـــــا[٢٥]

وتلتقي العبارة حول هذا الأمير «سليم بن مفلح» الذي كان أقطعه الأمير «أبوعلي» الظهران فنزلها وحرّم أن توقد بها غير ناره، مع العبارة: هناك أقطعه بلداً تسمى الظهران على ساحل البحر ذات نخيل وثمار، وحرّم أن توقد بها نار للضيافة غير ناره حتى مات، والفقرة الأخيرة حتى مات مما يدل على أنها في «سليم بن مفلح» وليست في «أبي المنصور علي»، وقول العماري إن الظهران جزء من الأحساء لا أساس له فهي جزء من القطيف[٢٦] .

ولم تكن العلاقة بين الأخوين خالية من التوتر والنزاعات فقد أشارت المصادر إلى بعض الوقائع التي جرت بينهما، منها وقعة في القطيف قُتل فيها الأمير «محمد بن بدر بن مورق» وكان فارساً شديد البأس قتله أحد أحفاد الأمير «الحسن بن علي» ويدعى الأمير «سباع بن سليمان بن الحسن بن علي بن عبدالله العيوني»[٢٧] .

ونظراً لما حل بالدولة العيونية من تمزق، فقد استغل حكام جزيرة قيس[٢٨]الفرصة وسعوا إلى بسط سيطرتهم على جزيرة أوال، فقد قام الملك «باكرزاز بن سعد بن قيصر»[٢٩]صاحب جزيرة قيس بالمسير حتى بلغ جزيرة أوال ورست مراكبه هناك وانحدرت جموعه لناحية سترة[٣٠]، وكانت أخبار هذه الحملة قد وصلت إلى الأمير «أبي

علي الحسن» فعدَّ العساكر من أهل القطيف وسيّرها بقيادة الأمير «أبي مقدم شكر بن علي»، وفي سترة التحم الجمعان في قتال مرير تجلت فيه شجاعة الأمير «أبي مقدم» حيث حمل على المغيرين كما يقول شارح ديوان ابن المقرب : حملة مهولة صبروا له فيها ساعة ثم انهزموا، فضرب فيهم بالسيف حتى جمد الدم على كفه وعلى ذراع يده وعلى قائم السيف، فما تخلصت يداه حتى سُخّن لها ماء وصُبَّ عليها فذاب الدم وانحلّ وتخلصت يداه، ولم يسلم من الغزاة إلا عدد قليل شردت إلى المراكب، وكان عدد القتلى من أصحاب المذكور «باكرزان» الفين وثمانمائة قتيل وأُسر يومئذٍ «نامسار» أخو الملك «باكرزان» فلما أُتي به إلى الأمير أطلقه وسيّره إلى قيس، يقول ابن المقرب:

ويومَ سُــــتْــــرةَ منا كـــان صـــاحـــبُـــهُ
لاقت بـه شـــامـــةُ والحــــاشكُ الرّقِــمـــا
الـفينِ غــــادر منهـم مَعْ ثـمــــانِ مِيءٍ
صـرعى فكم مُـرضَعٍ من بعـدها يَتُـمـا[٣١]

وقد انتقل الأمير «الحسن بن عبدالله بن علي العيوني» إلى جوار ربه في سنة ٥٤٩هـ الموافق سنة ١١٥٤م بعد أن أمضى في حكم القطيف وجزيرة أوال قرابة أحد عشر عاماً، وله من الأولاد ثلاثة هم: «شكر وعلي والزير»، ولم يكونوا مؤهلين لتسلم السلطة بعده لحداثة سنهم .

الانتقام «للفضل بن عبدالله بن علي»:

لم تكن مراجل الغيظ والغضب قد هدأت في نفوس «آل الفضل» بسبب مصرع الأمير «أبي سنان» على يد أعمامه وكذلك خروج السلطة من أيديهم، فوجدوا في وفاة «الحسن» وما تركه من فراغ في السلطة فرصة سانحة للانتقام واسترداد الحكم، فقفز «ابوفراس غرير بن الفضل» على عرش القطيف فملكها، ثم أعدّ جيشاً كبيراً من أهل القطيف زحف به إلى الأحساء وشرع في شن الغارات الخاطفة على أطرافها وأريافها ملحقاً بها أضراراً فادحة بغية إضعاف قوات عمه «علي» تمهيداً للإطاحة به، وسارت الرياح وفقاً لهواه، فحلت بالأحساء سنة عصيبة فقدوا فيها ثمارهم ومحاصيلهم

الزراعية من جراء مرض أصاب الزرع من ناحية والغارات المتوالية التي كان يشنها على البلاد الأمير «غرير» من ناحية أخرى، وحين لمس «أبو منصور» ما تعانيه رعيته من مشقة عظيمة أمر بفتح المخازن ليفرق ما بها على الناس، وصار يأمر لكل بيت بما يكفيه من حنطة وشعير حتى بلغوا موسم الحصاد(٣٢)، وعندئذٍ أمر منادياً ينادي في الناس أن جميع ما عليهم من حقوق للأمير قد أسقطها عنهم، وما زال يغدق عليهم العطايا حتى تحسنت أحوالهم المعيشية(٣٣)، ولعل «غريراً» قد وجد في هذه السنة فرصة مواتية كي يحسم المعركة لصالحه، فحشد جيشاً كبيراً من أهل القطيف ومن والاه من رجال البادية وزحف بهم على الأحساء فعاثوا فساداً في الثمار والزرع إسهاماً منه في تصعيد الأزمة الاقتصادية الحادة التي تواجهها البلاد، ثم التحموا مع جيش «أبي المنصور» في معركة طاحنة بموضع يسمى السليمات(٣٤)، وانجابت المعركة عن هزيمة جيش الأحساء وقُتل الأمير «أبو منصور علي» كما قتل معه أيضاً عمه «أبو مذكور بن بطال»، وبلغ عدد القتلى من عسكر «أبي منصور» مائتين والأسرى خمسمائة وعشرين.

وبعد هذه الحرب عاد «غرير» إلى القطيف وبايع أهل الأحساء «أبا مقدم شكر بن علي بن عبدالله العيوني»، وتزعم رواية أخرى أن الذي قام بقتل الأمير «أبي منصور علي» هو ابنه «المنصور» وأنه ولي الحكم بعده .

وقد أخذ المديرس(٣٥)بهذه الرواية، يقول بهذا الصدد : لا نعرف الأسباب التي حدت «بمنصور» لاغتيال أبيه غير أنه يظهر أن «علي بن عبدالله» قد عيّن ابنه «شكراً» ولياً للعهد وربما أثار ذلك حنق ابنه الأكبر «منصور» الذي كان يعتقد بأحقيته في تولي الحكم بعد أبيه فقام بقتل والده، وكان من أبرز رجال «أبي المنصور علي» «حواري بن رشيد بن حواري» فقد أسند إليه إمارة الرحل طيلة فترة حكمه(٣٦).

ورغم هذا الانتصار الكاسح الذي حققه «أبوفراس» على عمه «أبي المنصور» فإنه لم يظفر باستلام السلطة في الأحساء فكرّ راجعاً إلى القطيف ولم تطل مدة حكمه فقد وافاه الأجل بعد عام .

وقد تميز «أبوفراس» هذا بسمات عالية يتصدرها الكرم والجود وله في ذلك من النوادر والحكايات ما يربو على الخيال. يقول شارح ديوان ابن المقرب عن كرم «أبي فراس»: إن الثعلبي قدم عليه ذات يوم فأنشده شعراً نَوّه فيه بمناقبه ، فتقدم «أبوفراس» إلى صاحب خزانته وأمره أن يدفع إلى الشاعر جميع مفاتيحها ويتنحى عنها، وقد وهب له جميع ما فيها، وكتب له كتاباً للتصرف في جميع أملاكه عن معارضته، فقال الثعلبي: «بعض هذا غنىً وسعة، فقال له الأمير : «خذه بارك الله لك فيه ولا تراجعني في شيء من ذلك، فقبّل الأرض بين يديه وقال : «إني أسأل الأمير وأطلبه بالحاضرين من هؤلاء الأكرمين تمام ما أطلب، فقال : ما طلبك ؟ قال : أن آخذ من هذا المال لي ألف دينار ويكفيني فما زال به حتى أخذ أربعة آلاف دينار وشكر له ودعا وخرج من عنده .

وبعد وفاته تسلم مقاليد الحكم في القطيف «غرير بن المنصور بن علي بن عبدالله العيوني» وكان يلقب «بقوام الدين»، وكان كريماً شهماً، وقد تميّز بحب العلم وأهله، فقصده الشعراء والأدباء من أماكن بعيدة فوصلهم وبالغ في إكرامهم، ومن أهم الأحداث في عهده قيام حاكم جزيرة قيس في ١٣ من جمادى الأولى سنة ٥٤٩هـ بمهاجمة جزيرة أوال والاستيلاء عليها ونهبها ثم الانسحاب منها[٣٧] بعد زمن قصير من دخولها، ولعل غارته هذه كانت اختباراً لقوة العيونيين فقد وجد من أمارات القوة عندهم ما اقنعه أن استمراره في احتلال البحرين سيكلفه ثمناً باهظاً، فقنع بما يقنع به القراصنة وقطاع الطرق .

وبعد سبع سنين أمضاها «غرير» هذا في حكم القطيف وجزيرة أوال قتله ابن عمه «هجرس بن محمد بن الفضل العيوني»، وحل محله في حكمهما وذلك سنة ٥٥٦هـ الموافق سنة ١١٦٠م، بيد أنه لم يتمتع بالسلطة سوى سنة واحدة حيث وافاه الأجل في سنة ٥٥٧هـ الموافق سنة ١١٦١م .

وبعد أن ظل الحكم في القطيف وجزيرة أوال كرة تتقاذفها أقدام أسرتي «آل الفضل وآل منصور» ظهر في الميدان أبناء «الحسن بن عبدالله العيوني» فتسلم مقاليد

السلطة في هذين القطرين الأمير[٣٨] «شكر بن الحسن» بتأييد ومؤازرة من أخويه «علي والزير»، وفي أيامه حاول أمراء جزيرة قيس مهاجمة جزيرة أوال والاستيلاء عليها، وقد مكث في الحكم زهاء ثمانية عشر عاماً[٣٩]، وقد انتقل إلى جوار ربه سنة ٥٧٥هـ الموافق سنة ١١٧٩م، فقام مقامه في الحكم أخوه «علي بن الحسن» وقد تعرضت أثناء حكمه جزيرة أوال لخطر شديد، فقد سيّر «باكرزاز» أمير جزيرة قيس حملة عسكرية بقيادة «نامسار» فتصدى الأمير «الزير» للمهاجمين والتحم معهم في معركة قاسية انتهت بدحرهم وإنزال الهزيمة بهم، حيث خر أكثرهم في أرض المعركة ما بين قتيل وجريح، كما وقع من تبقى منهم على قيد الحياة في الأسر، وكان من بين الأسرى قائد الحملة «نامسار»، ولم تطل مدة حكم الأمير «علي» فسرعان ما دب الخلاف بينه وبين أخيه «الزير» الذي قام بالفتك به في جزيرة أوال في المسجد المعروف بـ «سبسب» حيث تسلم زمام السلطة بعده إلاّ أنه لم يمكث بها سوى أربعين يوماً فقد استقال منها، فحل محله أحد أفراد البيت العيوني ويدعى «مسيباً» غير أن هذا لم يتمتع بالحكم سوى شهرين فحسب، ولا تتحدث المصادر عن كيفية خروجه من الحكم ولا عن نهايته، إلاّ أن الحكم في القطيف وجزيرة أوال قد عاد إلى أبناء «الحسن بن عبدالله» مرة أخرى، حيث تسلم مقاليد الحكم فيهما «الحسن بن شكر بن الحسن بن عبدالله العيوني» وذلك في سنة ٥٧٧هـ الموافق سنة ١١٨١م، وقد وافاه الأجل صريعاً على يدي «شكر وعبدالله» ابني «منصور بن علي بن عبدالله العيوني».

هـ- الأوضاع السياسية في الأحساء:

في أعقاب قتل الأمير «علي بن عبدالله بن علي العيوني» في معركة السليمات تسلم مقاليد السلطة في الأحساء ابنه «أبو مقدم شكر بن علي» وكان يتمتع بالكثير من الصفات الحميدة والأخلاق الفاضلة، فقد كان إلى جانب ما يتميز به من الشجاعة سامي النفس، نبيل العاطفة، جواداً، بلغ من كرمه كما يقول شارح ديوان ابن المقرب: أنه مرت على الناس سنة مجدبة شديدة القحط فكانت الطيور في البلاد تجنح عن الصحراء، فأمر أن يوضع لكل نوع من الطير ما يناسبه من الغذاء، وينثر ذلك لها في الأمكنة التي تقع فيها ومنع الصيادين من صيدها، يقول ابن المقرب منوهاً بهذه السمة:

ومُطعِمُ الطيــــرِ عـــــامَ المحلِ فـــــاسمُ بـهِ
منا إذا صـرّ خِلْفُ الغـيـثِ فـانصـرمـا[٤٠]

وقد تقدم من حديثه مع النائلي أثناء إمارته على الأحساء من قبل ابن عمه «أبي سنان»، وما أبداه من شجاعة نادرة في معركة سترة[٤١] مع الملك «باكرزاز» ما عرف به محله في الشجاعة والجراة والإقدام، وقد توفي في سنة ٥٥٦هـ الموافق سنة ١١٦٠م تقريباً، وقد ولي الحكم بعده ابن أخيه «أبو ماجد محمد بن منصور بن علي بن عبدالله العيوني»، وكان «أبو ماجد» هذا على جانب من القوة والحزم فقد أشاع الأمن في ربوع البلاد، وأوقف تعديات عشائر البدو وحدّ من نفوذهم فأوغر ذلك صدورهم عليه، وعقدوا العزم على استعادة نفوذهم من خلال القيام ببعض الأعمال الإرهابية، فقد جاء في شرح ديوان ابن المقرب أن جميع العرب المناوئين للأحساء اجتمعوا وقصدوا «شبانة بن غفيلة»[٤٢] وهو يومئذٍ أمير عرب البحرين من عقيل وغيرهم، وشكوا إليه قلة إنصاف الأمير « أبي منصور» لهم وجراة أهل البلد عليهم في ذلك الزمان، فقال: نجازيهم حرباً نذلهم بها، ويقل أذاهم ونذيقهم بأساً يقع في قلوبهم، وارادوا رأي «شبانة» في ذلك فقال لهم : لا تعجلوا فأنا أنظر وأنتم تنظرون، وضرب لهم ميعاداً يراجعونه فيه، فاجتمعوا في الميعاد وقصدوا «شبانة» ولم يتخلف من ذوي الرأي أحد، فقال لهم «شبانة» حين رأى ميلهم للحرب عدّوا لي كم في الأحساء من فارس يعد عن كثير من الفرسان فعدّوا أربعين فارساً لا يطاق نزالهم، فقال «شبانة» و«أبو ماجد» عن أربعين مثل ما عددتم من عساكر «أبي منصور» لا نطمع أن نقف بين أيديهم ولا نقاتلهم فاصبروا حتى ينتهي الأمر[٤٣]، وطول مدة الأمير «أبي ماجد» ما حاربوا الأحساء ولا أغارت لهم عليها فرس، وكان «أبو ماجد» يقول : وددت أني أطارد خيل «عامر» إلى الليل ليوم كامل، ومات ولم يظفر بذلك منهم لذلهم عن حربه .

ومن الملاحظ أن هذه الحادثة قد وقعت في أيام جده «أبي المنصور علي» ولم تكن في أيام ملكه هو، وقول «شبانة»: اصبروا حتى ينتهي الأمر، فيه دلالة على أن مراكز القوى في البلاد وبخاصة رجال العشائر كانوا يوالون وضع الخطط للمؤامرة التي من

شأنها الإطاحة بالحكم العيوني، أو إضعاف مراكز العيونيين وسلطتهم للحصول من ورائهم على كل ما ترجوه هذه القوى من نفوذ ومال وهو ما أكدته الأيام القادمة، يقول ابن المقرب :

منا الذي منع الأعداءَ هيبتُهُ
حربَ البلادِ فما شدّوا له حُزُما[44]

وفي هذا البيت إشارة إلى قوة شخصية «محمد» وهيبته، بحيث تراجع البدو عن حربه والتمرد عليه على الرغم من سوء سيرته وعسفه حسب ما قيل عنه، ومن الأحداث التي جرت في عهده ثورة «ابني بطال» على ابنيه أميري الأحساء «فضل وفاضل»، فقد قتل واحداً وقطع يد الآخر ولم يظفرا بحكم الأحساء وهربا إلى عُمان، وكان ذلك سبب انتقال من انتقل من الموالك إلى عمان، وقد وافته المنية في سنة ٥٨٠هـ الموافق سنة ١١٨٤م .

مما مر يمكن القول إن الإمارة العيونية قد عانت كثيراً من تبعات الصراع على السلطة الذي تأجج أواره[45] بين سلالات ثلاثة من أبناء الأمير «عبدالله بن علي العيوني» هم: «الفضل، والحسن، وأبي منصور علي»، فقد بذل كل بيت من هؤلاء ما في وسعه للوصول إلى السلطة والانفراد بحكم البلاد أو ببعض أجزائها، غير آبهين بما أفضى إليه ذلك الصراع من خطر على أمن الدولة العيونية ووحدتها، وما تركه من آثار سلبية على العلاقات بين أفراد البيت المالك، وعلى سير الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في البلاد .

****

الهوامش

(١) عبدالفتاح الحلو : ديوان ابن المقرب، ص٥٤١، ثاج : مدينة أثرية تقع على بعد ١٠١ كيلومتر من الظهران شمالاً في منطقة تعرف بالجابرية، والرمل : موضع على طريق عُمان تسكنه قبيلة خارجة، مخطوطة ديوان ابن المقرب، ص ٥١ .

(٢) مخطوطة ديوان ابن المقرب: ص ٥١، نار برد : موضع بجزيرة أوال، سودي : نسبة إلى السوداء وهو موضع شرقي الهفوف .

(٣) مخطوطة ديوان ابن المقرب: ص ٥١ – ٥٢ .

(٤) عبدالفتاح الحلو : ديوان ابن المقرب، ص ٥٤٠ .

(٥) د.علي عبدالعزيز الخضيري : علي بن المقرب العيوني حياته وشعره، مؤسسة الرسالة، بيروت، ص ٣٣ .

(٦) د. علي عبدالعزيز الخضيري : علي بن المقرب العيوني حياته وشعره، مؤسسة الرسالة، بيروت، ص ٣٥ .

(٧) د.فضل بن عمار العماري : ابن مقرب وتاريخ الدولة العيونية في بلاد البحرين، مكتبة التوبة، ص ٤٨ .

(٨) عبدالفتاح الحلو : ديوان ابن المقرب، ص٥٧ .

(٩) مخطوطة ديوان ابن المقرب : ص ٦٢٢ .

(١٠) مخطوطة ديوان ابن المقرب: ص ٦٢٢ .

(١١) مخطوطة ديوان ابن المقرب: ص ٥٠٦ .

(١٢) الجرعاء : كانت في صدر الإسلام سوقاً لبني تميم .

(١٣) الخانس : أحد بساتين الأحساء قرب البطالية إحدى قرى الأحساء .

(١٤) عبدالفتاح الحلو : ديوان ابن المقرب، ص ٥٤٦ .

(١٥) عبدالفتاح الحلو : ديوان ابن المقرب، ص ٥٤٦ .

(١٦) عبدالفتاح الحلو : ديوان ابن المقرب، ص ٥٤١ .

(١٧) عبدالفتاح الحلو : ديوان ابن المقرب، ص ٥٤٢ .

(١٨) عبدالفتاح الحلو : ديوان ابن المقرب، ص ٥٤٢ – ٥٤٣ .

(١٩) عبدالفتاح الحلو : ديوان ابن المقرب، ص ٥٤٢ – ٥٤٣ .

(٢٠) مخطوطة ديوان ابن المقرب : ص ٥٠٧ .

(٢١) مجلة الوثيقة: عدد٣٥، رمضان سنة ١٤١٩هـ، يناير سنة ١٩٩٩م، السنة الثامنة عشرة، يذهب عبدالخالق إلى القول إنهم الدياسمة ويذكر أن هؤلاء بطن من عبد القيس ونسبتهم إلى ديسم بن الدماض .

(٢٢) مخطوطة ديوان ابن المقرب : ص ٤٩٨ .

(٢٣) المديرس : إقليم البحرين في العصر العباسي، مخطوطة رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي، كلية الآداب، جامعة الملك سعود سنة ١٤٠٤هـ، ص ١٠٥ .

(٢٤) د.فضل بن عمار العماري : ابن مقرب وتاريخ الإمارة العيونية في بلاد البحرين، ص ٥٥ .

(٢٥) عبدالفتاح الحلو : ديوان ابن المقرب، ص ٥٥١ .

(٢٦) كانت القطيف تعرف بالخط والظهران طرفها الجنوبي، ص ٦٣٨ . عبدالفتاح الحلو : شرح ديوان ابن المقرب ص ٦٣٨ .

(٢٧) مخطوطة ديوان ابن المقرب: ص ٥٠٧ .

(٢٨) تقع جزيرة قيس في بحر عُمان، وهى مدينة حسنة مسورة وبها بساتين عامرة بالزراعة والمباني، وتعد مرفأً تجارياً مهماً تستقبل المراكب القادمة من الهند وفارس . القزويني : أثار البلاد وأخبار العباد، ص٢٤٣ .

(٢٩) عبدالفتاح الحلو : ديوان ابن المقرب، ص ٥٥٠ .

(٣٠) عبدالفتاح الحلو : ديوان ابن المقرب، ص ٥٥٠ .

(٣١) عبدالفتاح الحلو : ديوان ابن المقرب، ص ٥٥٠ .

(٣٢) عبدالفتاح الحلو : ديوان ابن المقرب، ص ٥٤٣ .

(٣٣) عبدالفتاح الحلو : ديوان ابن المقرب، ص ٥٤٣ .

(٣٤) عبدالفتاح الحلو : ديوان ابن المقرب، ص ٥٤٣ .

(٣٥) المديرس : ص ١١٢ .

(٣٦) مخطوطة ديوان ابن المقرب : ص ٥٠٧ .

(٣٧) مخطوطة ديوان ابن المقرب : ص ٦٢٢ .

(٣٨) مخطوطة ديوان ابن المقرب : ص ٦٢٢ .

(٣٩) عبدالفتاح الحلو : ديوان ابن المقرب، ص ٦٢٢ .

(٤٠) عبدالفتاح الحلو : ديوان ابن المقرب، ص ٥٤٤ .

(٤١) عبدالفتاح الحلو : ديوان ابن المقرب، ص ٥٥٠ .

(٤٢) عبدالفتاح الحلو : ديوان ابن المقرب، ص ٥٤٦ – ٥٤٧ .

(٤٣) عبدالفتاح الحلو : ديوان ابن المقرب، ص ٥٤٧ .

(٤٤) عبدالفتاح الحلو : ديوان ابن المقرب، ص ٥٤٧ .

(٤٥) المديرس : ص ١١٤ .

****

الفصل السابع

العيونيون في دور النهوض

أ- نجاح الأمير «شكر بن منصور بن علي بن عبدالله العيوني» في توحيد بلاد البحرين:

تسلم الأمير «شكر بن منصور بن علي بن عبدالله العيوني» عرش الأحساء ودامت فترة حكمه من سنة ٥٨٠هـ إلى سنة ٥٨٧هـ الموافق سنة ١١٨٤م إلى سنة ١١٩١م، تولى الحكم بعد أخيه «أبي ماجد محمد»، وكان كريماً عادلاً قام فور توليه الحكم بإسقاط جميع الضرائب والإتاوات التي كان يفرضها الحكام قبله على الرعية حتى أرهقتهم وأثقلت كواهلهم[١]، يقول ابن المقرب منوهاً بجوده في هذا السبيل:

منا الذي حطَّ زهداً عن رعيَّتهِ
كلَّ المكوسِ فأضحى الجورَ منحسما[٢]

كما كان عالي الهمة، بعيد الطموح، آلمه أن يرى الإمارة العيونية ممزقة الأوصال في شكل كيانات متفرقة، فعقد العزم على توحيدها، فكلف أخاه وعضده الأيمن «عبدالله»[٣] للنهوض بهذه المهمة فأعدّ جيشاً سار به «عبدالله» إلى القطيف وأوال فاستولى عليهما بعد أن قتل أميرهما «الحسن بن شكر بن الحسن بن عبدالله العيوني»، وتذكر بعض المصادر أنه لم يتورع عن الاستعانة في حملته هذه بعساكر من جزيرة قيس، ومهما يكن من أمر فقد استطاع توحيد جميع اقاليم البحرين تحت سلطته وقد اتخذ من الأحساء مقراً لكرسي حكمه .

ب- إمارة «محمد بن أبي الحسين أحمد بن الفضل بن عبدالله بن علي العيوني»[٤]

وقد تولى الحكم من سنة ٥٨٧ – ٦٠٥هـ، الموافق سنة ١١٩١ – ١٢٠٨م، ويمثل الأمير «محمد بن أبي الحسين أحمد» هذا واسطة العقد بين ملوك الدولة العيونية وأمرائها بعد مؤسسها الأول «عبدالله بن علي»، فقد تمكن بما يتحلى به من همة عالية

وشجاعة فذة من إعادة بناء الدولة وتوحيدها بعد أن أوشكت الحرب والمنافسة على السلطة أن تهوي بها في قرار سحيق، وقد بلغت في عهده أوج عزتها ومنعتها فشمل نفوذه نجداً وأجزاءً من عُمان وأطراف العراق وبادية الشام[٥]، واتخذ له وزيراً من أهالي القطيف يدعى «الحاج علي بن الفارس الكازاروني»، وقد ارتبط هذا الأمير بعلاقات مودة مع الخلافة العباسية[٦] ممثلة في الخليفة العباسي «الناصر لدين الله»، وكان الأمير «محمد» قبل توليه حكم البلاد قد لعب دوراً في الصراع على السلطة في أوال والقطيف حيث حكمهما قرابة عام[٧]، وقد عز عليه ما آلت إليه الأوضاع في الإمارة من تدهور وانحطاط نتيجة الفتن الداخلية وخطر التهديد الخارجي، فقرر انتزاع السلطة وتوحيد البلاد، ورأى أن تكون نقطة البداية لهذه المهمة من القطيف وتم له ما أراد في اليوم المعروف «بيوم صفوا»، ومن حديث ذلك اليوم المشهود كما يذكر شارح ديوان ابن المقرب ما ملخصه أن الأمير «الحسن بن شكر بن الحسن» بعد أن تمت له السيطرة على البلاد بعد خروج الأمير «ابن أبي الحسين» منها قد أقطع رجال البادية كثيراً من الأراضي والأملاك[٨]، وكان يقيم بـ «صفوا» منهم أولاد «شبانة» وانضم إليهم «عمران بن الجحاف» وهو يومئذٍ شيخ الجحافقة، وكان فارساً مشهوراً، وأراد «محمد بن أبي الحسين» النزول بـ «صفوا» وفي صحبته «عميرة بن أبي سنان بن غفيلة» وشرذمة من القديمات، فأوجس الأمير «الحسن بن شكر» ومن معه من الشبانات والجحافقة خيفة من قدوم الأمير «محمد بن أبي الحسين» ومن معه، فقرروا صدهم عنها، وجمع الأمير «الحسن» لذلك عساكر القطيف وفرسانها ورجالها وعجمها وأظهر العدة والسلاح، كما استنفر آل شبانة وآل الجحاف وجميع من يدعى من القديمات ومن ينزل عليهم، وأقبلوا في صد «محمد بن أبي الحسين» و«عميرة بن أبي سنان» و«زيد بن عقبة الحارثي» عن ذلك المنزل ونهبوا بيوتهم، ولما وصلوا صفوا[٩] خرج عليهم «عميرة» بجمع لم يكن بكثير وقد أخرجت الشبانات والجحافقة جملاً وجعلت عليه قبة[١٠] وثياباً وجعلوا بالقبة «طريفة بنت شبانة» وجرى بين الطرفين مناوشات، وحين أدرك الأمير «محمد» أن القتال لا يسير في صالح أصحابه باشر القتال بنفسه وحمل على الأمير «الحسن بن شكر» وأصحابه حملة صادقة لم يثبت منها في ساحة القتال إلا أولاد «شبانة» فضاربهم وضاربوه[١١]، ولم يزل الأمير يطردهم حتى دفعهم

عن الجمل الذي عليه الهودج وأخذوه وعليه المرأة فدفعها إلى أصحابه، وبذلك تمت للأمير «محمد» السيطرة على القطيف، وإجبار المنهزمين على الإقامة بالبلد وحصرهم فيها، وحديث يوم صفوا في هذه الرواية واضح الدلالة على أن «محمد بن أبي الحسين أحمد» قد استرد الملك من يد «الحسن بن شكر بن الحسن بن عبدالله العيوني»، ولعل بسط سلطته على مناطق البحرين كافة كان تدريجياً، حيث تذكر إحدى الروايات أن نهاية حياة «الحسن بن شكر» كانت على يد «عبدالله بن منصور» وأخيه «شكر»[١٢]، وأن «عبدالله» حكم بعده سبع سنوات وقد استقدم بعض العساكر من جزيرة قيس، مما أرغم أكثر أهل أوال على الرحيل عنها إلى القطيف[١٣] بعد معركة دارت رحاها في البحرين شرقي أوال وكانت تعرف بوقعة «ابن الجياش».

وللتوفيق بين هذه الرواية والرواية السابقة نرجح احتمال أن «حسن بن شكر» بعد هزيمته في يوم صفوا قنع بالسيطرة على بعض نواحٍ من البحرين بينها أوال إلى أن لقي مصرعه على يد «عبدالله بن منصور» وأخيه «شكر»، لكن «عبدالله» هذا قبل تصفية حكمه كان قد دخل في صراع مع «محمد بن أبي الحسين»، يؤيد ذلك استعانته بعساكر من جزيرة قيس ونزوح أكثر أهالي أوال إلى القطيف، ولعل «عبدالله» قد سار إلى أخيه في الأحساء حيث دخلا مع «محمد بن أبي الحسين» في صراع حتى ظفر «محمد» بهما فقتلهما وتمكن من فرض سيطرته على الأحساء سنة ٥٩٩هـ، فثبت قدميه في ملك القطيف ومن ثم بسط سيطرته على جميع أراضي البحرين، كما دانت لنفوذه نجد وبادية الشام[١٤] فاستطاع بذلك أن يرقى بالدولة العيونية إلى أقصى غاية مجدها وسؤددها، وقد أرسى دعائم الأمن والاستقرار، كما ارتبط بصلات وثيقة مع الخليفة العباسي «الناصر لدين الله» حيث كان ذلك الخليفة يجله ويقربه، فعهد إليه بخفارة قوافل الحجيج وفرض له في كل عام من بغداد ألفاً ومائتي ثوب من عمل مصر، كما فرض له من البصرة كل سنة ألفين وخمسمائة حملٍ من التمر والحبوب مدة حياته[١٥]، يقول ابن المقرب :

منّا الذي كلَّ عامٍ بالعراق لَهُ
رسمٌ سنيٌ إلى أن ضُمِّنَ الرُّجَما[١٦]

وتوطدت العلاقات وازدادت رسوخاً بين الخليفة في العراق وملك البحرين بفضل النجاح الباهر الذي أحرزه الأخير في توفير الحماية الكافية لقوافل الحجيج بعد القضاء التام على قطاع الطرق، فكان يتعقبهم ويُوقع بهم أينما كانوا حتى أمن الناس غوائلهم .

يقول شارح ديوان ابن المقرب : كان في زمانه قد أخذ على أيدي مفسدي العرب حتى صار الراكب يسير إلى عُمان من الأحساء وإلى العراق ونجد وإلى الشام فلا يفزعه أحد، وكذلك القافلة أين أدركها الليل باتت لا تخاف من أحد، وإلى هذا يشير ابن المقرب بقوله :

منا الذي أصحبَ المجتازَ من حلبٍ
إلى العراق إلى نجدٍ إلى أدَما[17]

وقد كان لهذه القوة والنفوذ أبلغ الأثر في حمل الخليفة «الناصر» على توثيق الصلة بالأمير «محمد» وإقامة العلاقة الطيبة معه التي أملتها المصالح السياسية والعسكرية بين الطرفين، ومما يشير إلى متانة تلك العلاقة أنه لما سار بنو الجراح ومعهم «دهمش بن سند بن أجود» وبعض قبائل العرب والشام إلى أراضي بني عقيل واعترضوا الحجيج ونهبوا أموالهم في سنة ٥٩٨هـ الموافق سنة ١١٠١م، بعث الخليفة العباسي رسولاً إلى البحرين ليطلع الأمير «محمد بن أبي الحسين» على ذلك واستحثه على التصدي لدهمش ومن معه والإيقاع بهم، فسار الأمير «محمد» على رأس جيش كثير من قبائل البحرين إلى العراق وانضمت إليه قبائل خفاجة والمنتفق وعبادة والتقى بـ «دهمش» وجموعه بظاهر الكوفة، ودار بين الطرفين قتال مرير انتهى بالظفر لـ «محمد» فناشده المنهزمون بالقرابة والرحم حيث تجمعهم «ربيعة» فأجارهم جميعاً ولم يُجر «دهمشاً»، فاعتصم «دهمش» في مشهد «علي» كرم الله وجهه إلا أن الأمير «محمد» فرض حول المشهد حراسة مشددة، كما عسكر بجموعه على مقربة منه، وقد ضُربت له هناك القباب الحمر وما زال مقيماً حتى ظفر بـ «دهمش» وبعث به إلى الخليفة الذي استتابه وعفا عنه، ولهذه الحادثة يشير ابن المقرب بقوله :

منا الذي ضُربتْ حُمْرُ القِبابِ لَهُ

بالمشهدين وأعطى الأمنَ وانتقما

لولا عياذُ بني الجرّاحِ منه بهِ

لصاحبتْ دَهْمَشاً أو الحقتْ نَرِما[18]

ومن أخباره بهذا الصدد إيقاعه ببني مالك على ماء الدجاني لخروجهم عن طاعته حيث قتل منهم خلقاً عظيماً، كما هلك أكثرهم جوعاً وعطشاً، وغنم أموالهم وذلك سنة ٥٩٩هـ الموافق سنة ١٦٠٢م، وقد كانت هذه الواقعة بداية النهاية لهذه القبيلة حيث حلت بأرضها بعد حين سنة جدب وشدة، فسارت قاصدة العراق ونزلت بموضع يدعى النجعة وهناك هبت عليهم ريح شديدة باردة أفنت جميع مواشيهم كما قضت على أكثرهم، وتفرق ما تبقى منهم في قرى العراق فلم تقم لهم بعد ذلك قائمة، كما أوقع بقبائل عنين وإمارة «بني ربيعة» و«طي» و«زبيدة» وعرب الشام، حيث انحدروا صائلين على قبائل قيس عراقيها ونجديها وبحرانيها فاستنجدت قيس بالأمير «محمد بن أبي الحسين»، فنهض من الأحساء بجموعه وعساكره وسار لا يلوي على شيء حتى بلغ تلك القبائل فهاجمهم وأنزل بهم هزيمة منكرة أسفرت عن قتل وأسر عدد كبير منهم، كما غنم منهم أموالاً كثيرة[19]، وقد بلغ من هيبة الأمير «محمد» وامتناع جانبه حداً جعل القبائل لا ترد له رأياً ولا تنقض له عملاً، فكان بعد الفراغ من المعركة يقف على تقسيم الغنائم فيعطي من يريد ويمنع من يريد، فيمنح هذا من كسب ذاك فلا ينكر أحد عليه ذلك، يقول ابن المقرب :

منا الذي ركز الرمحين ضاحيةً

وجَوّزَ العربَ العرباءَ بينهما

حتى احتوى ما اصطفاه من عقائلها

غصباً وهان عليه رَغْمُ من رَغِما[20]

وكان إلى جانب ما يتسم به من صفات الشجاعة والحزم كريماً، حليماً، محباً للعفو، ميالاً إلى السلام، لا يلجأ إلى الحرب إلا إذا وجدها آخر الدواء، لا يحقد ولا ينتقم فإذا اقتدر عفا ، وإذا عاهد وفى، وإذا أعطى أجزل العطاء، كثير العدل، شديد

الإنصاف حتى مع الخصوم والأعداء، يقول شارح ديوان ابن المقرب : كان «محمد» ذا حصافة ورأي في تفهم المسائل القضائية، فكف أذى الظلمة والمعتدين حتى بعد تمكنهم واستبدادهم، يقول ابن المقرب في تصوير ما يتحلى به الأمير «محمد» من الأخلاق الكريمة والقيم النبيلة :

وكم راجلٍ امسى بنعماه فارساً
وكانت صفايا ماله المعزُ والضّانُ
وكم من حريبٍ راح نَهْباً سوامُهُ
فراح عليه للكآبة عُنوان
فلما اتاه شاكياً من زمانهِ
غدا من عطايا كفّه وَهْو جذلان
وكم مُذنبٍ قد خاف منه عقوبةً
تلقّاه منه حسنُ صفحٍ وغفران
وكم من قَبيلٍ راح يزحف بعضُهُ
ببعضٍ وقد شُبّتْ بواديه نيران
تلافاه منه حسنُ رايٍ وسطوةٍ
فراح وقد ماتت حُقودٌ واضغان[٢١]

وكان شديد اليقظة لما يتهدد البلاد من الأخطار في الداخل والخارج، فلم يدخر وسعاً في بناء القوة اللازمة لحمايتها وتأمين طرق الحجيج والقوافل التجارية، فاعتنى بإعداد الجيوش الضاربة وزودها بكل ما يلزمها من الخيل والعتاد الحربي، فأسهم ذلك في إشاعة الأمن والاستقرار في أرجاء البلاد، ونعم الجميع بحياة الدعة ورغد العيش، يصف ابن المقرب ما كانت عليه البلاد في عهده فيقول :

كانت به البحرينُ جنّةَ مأربٍ
ايامَ بهجتها وطيبِ حياتها[٢٢]

إن هذه المكاسب الكبرى التي استطاع الأمير «محمد» توفيرها للبلاد وأهلها لا بد أن تكون قد افقدت الانتهازيين وأرباب المصالح الذاتية الكثير من امتيازاتهم، فعملوا

جاهدين على الإطاحة بالأمير «محمد» والعودة بالبلاد إلى حياة المعاناة والصراعات من جديد ليتمكنوا من استعادة نفوذهم وتحقيق مآربهم في استغلال موارد الدولة وتوجيه سياستها، والسيطرة على دوائر الحكم فيها .

ج- اغتيال الأمير «محمد بن أبي الحسين أحمد»:

كان الأمير «محمد بن أبي الحسين أحمد» رغم ما يتمتع به من صفات كريمة وما أضافه إلى أمجاد الأسرة العيونية من صفحات مشرقة، هدفاً لمؤامرة غادرة أسهم في نسج خيوطها «غرير بن حسن بن شكر بن علي بن عبدالله العيوني» مع «راشد بن عميرة» صهر الأمير «محمد» نفسه، حيث اتفقا على الفتك بالأمير «محمد» والتخلص منه وتسليم السلطة لـ «غرير» في مقابل حصول «راشد بن عميرة» على جميع الأموال الخاصة بالأمير «محمد»، وما زال «ابن عميرة» يتحين الفرصة المواتية لوضع خطة المؤامرة موضع التنفيذ حتى تمكن من اغتيال الأمير «محمد»، فانتقل الحكم بالقطيف إلى «غرير» وآلت كافة أموال الأمير السابق إلى «ابن عميرة»، وهكذا انتقل الأمير «محمد» إلى جوار ربه بعد أن أمضى في الحكم ثمانية عشر عاماً من سنة ٥٨٧هـ إلى سنة ٦٠٥هـ الموافق سنة ١١٩٠م إلى سنة ١٢٠٨م وله من الأولاد ثلاثة هم «فاضل، وعلي، وماجد»، وقد تم دفنه في القطيف على تل بإزاء شط العذار، يقول ابن المقرب :

على جدثٍ أضحى به المجدُ ثاوياً
بحيث يَرى شطُّ العَذارِ مُقابلَهْ[٢٣]

ولا شك أن نبأ هذا الحادث الجلل قد وقع على الشاعر علي بن المقرب وقوع الصاعقة، فبكاه ورثاه بعدة قصائد، منها قوله ذاكراً هذا الحدث الجلل :

إن نبكِ مصرعَه اسىً فلقد بكتْ
جزعاً عليه الجنُّ من ستراتها[٢٤]

ويقول :

لعمري لئن كان الأميرُ محمَّدٌ
قضى وأُصيبتْ يومَ نحسٍ مَقاتلُهْ[٢٥]

ويقول :

خابت ظنونُ رجالٍ بايعوا وسعَوْا
في قتله وهفتْ أحلامُهم وعَمُوا[٢٦]

ويورد شارح ديوان ابن المقرب تفاصيل المؤامرة على الأمير «محمد» فيقول : وكان من الأمر أن الأمير «غرير بن حسن بن شكر بن علي» حالف «راشد بن عميرة بن سنان بن غفيلة» وهو يومئذٍ شيخ عقيل بالبحرين على أن يقتل الأمير «محمد بن أبي الحسين» صاحب القطيف، ويتولى «غرير بن حسن» مكانه ويكون لـ «راشد بن عميرة» كل ما للسلطان في القطيف من أرض ونخل وعدة بساتين من أوال مسماة، وعدة مراكب من مراكب البحرين مما يكون للصيد ومما يكون للغوص، وعدة ألوف دنانير تكون رسماً كل سنة[٢٧] وفضة وثياب منها لراشد وأشياء غيرها، ويفرق التالي على عشيرته وأصحابه وقومه ومن أراد له ذلك من أهل البلد، فقتله على ذلك الشرط، ووفى له «غرير بن حسن» بجميع ذلك، ولم يبق للسلطان في جميع بساتين القطيف وأرضها قليل ولا كثير، يقول ابن المقرب :

أخذوا من الأحسا الكثيبَ إلى محا
ديثِ العيونِ إلى نَقا حلوانِ[٢٨]
والخطُّ من صفواءَ حازوها فما
ابقَوْا بها شبراً إلى الظهران
والبحرَ فاستولوا على ما فيه مِنْ
صيدٍ إلى دُرٍّ إلى مرجان
وأمضُّ شيءٍ للقلوب قطائعُ
بالمروزان لهم وكرزْكان[٢٩]

ورغم أن «غرير» قد تسلم مقاليد السلطة في القطيف فإن الأمور لم تجر على ما يشتهي ويحب، فقد نهض أبناء الأمير «محمد» وأكبرهم «الفضل» للعمل على الانتقام لوالدهم واسترداد الملك من «غرير»، ونجح «الفضل» في إعداد جيش كثيف من

الأنصار والموالين، وسار إلى بغداد فطلب المدد من الخليفة «الناصر لدين الله» فأمده بالمال والمنجنيقات وبالرجال المدربين على الأسلحة المتنوعة، بينهم قوم يرمون بالسهام، وآخرون يزرقون بالنفط(٣٠)، فانحدر من بغداد وسار إلى القطيف، وسار معه خاله «الحسين بن المقداد بن سنان» بمن تبعه من عامر وغيرها وحاربوها معه، فحالفه قوم من أهلها فملكها بعد حرب أشهر، وكان ابن المقرب قد ساهم في نقل المؤن من بغداد إبّان تلك الحملة، وقد مدحه الشاعر ابن المقرب بقصائد عديدة من ذلك قوله :

رمــاحُ الأعــادي عن حِـمــاكَ قِـصــارُ
وفي حــدّها عــمّن تروم عِــثــارُ(٣١)

وقوله :

الا رحلتْ نُعْمٌ واقــفــر نَـعــمــانُ
فـبُحْ باسـمـهـا إن عـزَّ صـبـرٌ وسُلْوانُ(٣٢)

وقوله :

ســائـلْ ديـارَ الحـيِّ مـن مــاوانِ
مـا احـدثتْ فـيـهـا يدُ الحَـدَثانِ(٣٣)

ويقول فيها مخاطباً النازحين عن الأوطان ويناشدهم العودة للعيش في كنفه وعدله :

يـا هـاجــرَ الأوطـانِ في طـلـب الـغـنـى
هـلاّ انـخـتَ بـربـعــه الـفَــيْـنـان(٣٤)

ويقول:

وإن سلمتْ نفسُ الأمــيــرِ مــحــمّـدٍ
شكتْ من ســراياه عُــمــانُ وعَــمّــانُ(٣٥)

ويخاطبه مستعملاً كنية «أباعلي» فيقول :

اعـنـي الأمــيــرَ ابـاعـليٍّ ذا الـعــلا
مُــردي العِــدى ومُــقَطِّر الاقــرانِ(٣٦)

ويقول :

وبني لبيد كلُّها فاجتاحها
بدَراكِ غارات وحُسنِ طعان

واتتْ إليه بالخراج مطيعةً
خوفاً من الغارات أهلُ عُمان[٣٧]

....

فاسلمْ وعِشْ يا باعليُّ ما دجا
ليلٌ وناح الوُرْقُ في الأغصان

****

الهوامش

(١) عبدالفتاح الحلو : ديوان ابن المقرب، ص ٥٥٢ .

(٢) عبدالفتاح الحلو : ديوان ابن المقرب، ص ٥٥٢ .

(٣) عبدالفتاح الحلو : ديوان ابن المقرب، ص ٥٥٢ .

(٤) د .علي عبدالعزيز الخضيري : علي بن المقرب العيوني حياته وشعره، ص ٣٨ .

(٥) المديرس : مخطوطة ماجستير، ص ١١٨ .

(٦) د. علي عبدالعزيز الخضيري : علي بن المقرب العيوني حياته وشعره، ص ٣٩ .

(٧) مخطوطة ديوان ابن المقرب: ص ٦٢٢ .

(٨) مخطوطة ديوان ابن المقرب: ص ٥٦٩ .

(٩) مخطوطة ديوان ابن المقرب: ص ٥٦٩ .

(١٠) مخطوطة ديوان ابن المقرب: ص ٥٦٩ .

(١١) مخطوطة ديوان ابن المقرب: ص ٥٦٩ .

(١٢) مخطوطة ديوان ابن المقرب: ص ٦٢٢ .

(١٣) مخطوطة ديوان ابن المقرب: ص ٦٢٢ .

(١٤) عبدالرحمن مديرس المديرس : ص ١١٨ .

(١٥) عبدالفتاح الحلو : ديوان ابن المقرب، ص ٥٤٩ .

(١٦) عبدالفتاح الحلو : ديوان ابن المقرب، ص ٥٤٩ .

(١٧) عبدالفتاح الحلو : ديوان ابن المقرب، ص ٥٤٨ .

(١٨) درم : رجل من العرب قُتِل فلم يطلب بثأره فصار يضرب به المثل لمن يُقتل ولا يؤخذ له ثأر، ويعني بالمشهدين : مشهد علي كرم الله وجهه ومشهد ابنه الحسين رضي الله عنه .
مخطوطة ديوان ابن المقرب : ص٥٠٢ .

(١٩) عبدالفتاح الحلو : ديوان ابن المقرب، ص ٥٤٩ .

(٢٠) عبدالفتاح الحلو : ديوان ابن المقرب، ص ٥٤٩ .

(٢١) عبدالفتاح الحلو : ديوان ابن المقرب، ص ٥٩٣ .

(٢٢) عبدالفتاح الحلو : ديوان ابن المقرب، ص ١١٠ .

(٢٣) عبدالفتاح الحلو : ديوان ابن المقرب، ص ٣٣١ .

(٢٤) عبدالفتاح الحلو: ديوان ابن المقرب : ص ١١٠ .

(٢٥) عبدالفتاح الحلو: ديوان ابن المقرب : ص ٣٣٢ .

(٢٦) عبدالفتاح الحلو: ديوان ابن المقرب : ص ٥٢٤ .

(٢٧) مخطوطة ديوان ابن المقرب : ص ٥٩٨ .

(٢٨) عبدالفتاح الحلو : ديوان ابن المقرب، ص ٦٣٨، ٦٣٩ .

(٢٩) عبدالفتاح الحلو : ديوان ابن المقرب، ص ٦٣٩ .

(٣٠) مخطوطة ديوان ابن المقرب : ص ٥٩٩ .

(٣١) عبدالفتاح الحلو: ديوان ابن المقرب، ص ٢٠٧ .

(٣٢) عبدالفتاح الحلو: ديوان ابن المقرب : ص ٥٨٦ .

(٣٣) مخطوطة ديوان ابن المقرب : ص ٥٦٤ .

(٣٤) عبدالفتاح الحلو : ديوان ابن المقرب، ص ٦٢٢ .

(٣٥) مخطوطة الديوان : ص ٥٤١ .

(٣٦) عبدالفتاح الحلو : ديوان ابن المقرب، ص ٦١٩ .

(٣٧) عبدالفتاح الحلو : ديوان ابن المقرب، ص ٦٢٢، ٦٢٣.

****

الفصل الثامن

الدولة العيونية في دور الانحلال

أ- سير الحكم في القطيف بعد الأمير محمد بن أبي الحسين أحمد:

على إثر اغتيال الأمير «محمد بن أبي الحسين أحمد» والقضاء على قاتله، انشطرت الدولة العيونية إلى إمارتين: الأولى في القطيف وأوال، وكان أول الأمراء المستقلين بها الأمير «فضل بن محمد»، والثانية في الأحساء وكان أول الأمراء في هذه الحقبة «ماجد بن محمد».

إمارة «الفضل بن محمد بن أبي الحسين أحمد» من ٦٠٦هـ - ٦١٦هـ الموافق ١٢٠٩م - ١٢١٩م:

رغم نجاح الأمير «الفضل بن محمد» في الثأر لأبيه من «غرير» واستعادة حكم البلاد، فإنه لم يوفق في انتهاج سياسة والده الحازمة تجاه مراكز القوى ومصادر التهديد لدولة العيونيين على الصعيدين الداخلي والخارجي، ففي الحقل الداخلي أفسح المجال لقوة بني عامر بالتنامي ولنفوذهم بالاتساع لما كان يتّبعه معهم من سياسة متسامحة، وكرم عظيم، فأصبح زعماؤهم في جملة الصفوة المقربين إليه حتى أصبح طوع بنانهم لا يرد لهم طلباً ولا يمنعهم من أمر، فأغدق لهم الهبات وأجزل لهم العطايا، كما أقطعهم الأراضي الشاسعة والعيون الجارية بما تسقيه من نخيل باسقة وحدائق وارفة الظلال، وقسّم عليهم جميع مساكر الأسماك، وكذلك المراكب التجارية وسفن الغوص بمن عليها من الغاصة، وصفوة القول إن بني عامر حصلوا على كل ما يرجونه، يقول ابن المقرب :

لم يبقَ مالٌ تَتّقون به العِدا

لربيعةٍ فيها ولا قحطانِ[1]

وأما في الحقل الخارجي فقد كانت المصيبة أنكى والمرارة أشد، حيث أصبحت البلاد غرضاً هيناً لغارات ملك جزيرة قيس «غياث الدين شاه بن تاج الدين جمشيد» المتكررة على البلاد حتى تمخضت تلك الغارات عن معاهدة صلح مشينة اضطر الأمير «الفضل» إلى توقيعها مع هذا الملك .

المعاهدة بين «الفضل بن محمد» و«غياث الدين شاه بن تاج الدين جمشيد»:

نصت بنود المعاهدة المذكورة على أن يكون لملك جزيرة قيس جزر: أكمل، والجارم، والطيور، وسماهيج، وجميع مساكر الأسماك، مضافاً إليها مقاسم تاروت الحسيني و«الحساسي»، والقصر، وبستان القصر، وبستان المشعري، ودالية الدار، والفايدية، ونصف طراز الغاصة من مقاسم القطيف، وخمسة وثلاثون بهاراً عوضاً عن بستان المصفاة الذي بالأحساء، وخمسمائة دينار تدفع له كضريبة سنوية، وأن تكون المقاسم والخراج والحلقة وطراز الغاصة والطيور والعشور مناصفة بين ملك قيس وملك العرب «الفضل بن محمد».

ولا شك أن هذه المعاهدة الجائرة تشير بوضوح إلى بداية النهاية لدولة العيونيين كما تعكس مجمل الأوضاع المتردية في هذه الدولة وعجز القائمين عليها عن توفير أقل قدر ممكن من الكرامة والمنعة لها، وازدادت الأحوال سوءاً فتفاقم الجور، وعمت الفوضى أرجاء البلاد وأوشك نجم الدولة أن يغور خلف سحب الفتن الداكنة لولا أن تمت الإطاحة به وإزالته عن العرش[٢] .

وكان «الفضل بن محمد» قد أمضى في الحكم عشرة أعوام[٣]، وعلى الرغم من فشله في تسيير دفة الحكم وما نجم عن ذلك من أوضاع سيئة في أيامه، فقد تمتع بعدة صفات من أبرزها الشجاعة والكرم والعفة والحرص على صلة الرحم .

وكان الشاعر ابن المقرب قد تغنى فيه بهذه الصفات في الأيام الأولى من ملكه، من ذلك قوله :

والواهبِ الهجماتِ عفواً واللُّها

في عامها الأحوى وفي لزباتها

والمكرمِ الجـــاراتِ عن شــــرّ الخَنا

إن دبّـتِ الـنّـوْكى إلى جـــــاراتـهـــا

والقـــائدِ الجُــرْدَ العِـــتـــاقَ إلى الوغى

يخـــرجنَ كـالعُـقـبـان تحت كُـمـاتـهـا

والطاعنِ الفـــرســـانَ كلَّ مَــريشـةٍ

مـــخلوجـةٍ والخــيـلَ في لَبّــاتـهـــا

والخـــائضِ الغـــمـــراتِ حـــتى ينجلي

بحـــســـامـه مـــا ثار من هَبَـــواتـهـا

والســـــالبِ المَلِكَ المعظّمَ تاجَــــهُ

ومــــذيقِه المكروهَ من كـــاســـاتـهـــا

والواصلِ الرحمَ الـتـي اوصى بهـــا

ذو العـــرشِ في الآيات من سُــوراتهـــا[٤]

ويشير شعر ابن المقرب إلى أن «الفضل» هذا قد استطاع أن يبقى على علاقة طيبة مع الخلافة العباسية، كما اتسعت دائرة علاقاته الخارجية لتشمل أقطاراً مجاورة أخرى، يمكن ملاحظة ذلك في قول ابن المقرب :

وجــرتْ اوامــرُكَ الشــريفــةُ في قُــرى

كـــســـرى وســـابورِ المليك وقَـــيْـــسَـــرِ[٥]

نهاية حكمه :

بعد عشرة أعوام أمضاها في الحكم قام بنوعقيل بإرغامه على التنازل عن الحكم والخروج من القطيف وأوال وأقاموا مكانه في حكمهما ابن عمه «أباشكر مقدم بن ماجد».

إمارة «أبي شكر مقدم بن ماجد بن محمد بن أبي الحسين أحمد» من ٦١٦-٦٢٠هـ الموافق ١٢٢٠م - ١٢٢٤م:

كان «مقدم» هذا محمود السيرة في حكمه، فقد ساد الاستقرار والأمن ربوع البلاد في أيامه وبدت الحياة في النشاط الاقتصادي، فكثر الإقبال على الزراعة

وانتعش التبادل التجاري بين بلاد البحرين والأقطار المجاورة كالعراق وفارس بل تعدى ذلك إلى مصر وسواحل إفريقيا، يقول ابن المقرب متغنياً بالحياة في الدولة العيونية آنذاك :

يا طيبَ دولته التي أيامُها
شِيَةُ الزمانِ وغُرَّةُ الأيامِ(٦)

ولكن ابن المقرب شديد الخشية من أن تكون هذه الحياة سحابة صيف لا تلبث رياح أطماع المحيطين بالأمير حتى تبددها من سماء البلاد، فغمره بسيل من النصائح مركزاً على وجوب التسلح بالحزم والشجاعة في اتخاذ القرار وسرعة التنفيذ واتخاذ الحيطة والحذر من الوقوع في شراك جلساء السوء، يقول بهذا الصدد :

واحسبْ لشرَّ العدى من قبل موقعهِ
فربما جاء أمرٌ غيرُ مُحتسَبِ
وغَرَّ على المُلْكِ من لعب الرجالِ بهِ
فالملكُ ليس بثبَّاتٍ على اللَّعِبِ
وارفعْ وضعْ واعتزمْ وانفعْ وضُرَّ وصِلْ
واقطعْ وقُمْ وانتقمْ واصفحْ وخُذْ وهَبْ
واحذرْ تؤخِّرْ فِعلاً صالحاً لغدٍ
فكم غدٍ يومُه غادٍ فلم يَؤُبِ(٧)

وكان من حسن طالعه وجود بطانة صالحة تعينه على أداء مهامه وتشد من أزره، من بينها ابن عمه «فاضل» و«أبو قناع» شيخ بني الحارث من بني عامر، ولم يفت ابن المقرب أهمية وجود هؤلاء في معيته وما لهم من أثر في انتهاج سياسته الراشدة فأوصاه بضرورة التمسك بابن عمه «فاضل» وإطلاق يده في إدارة الملك، والاستعانة به في حل الأزمات وإيكال حماية البلاد والتصدي للأعداء إليه لما يتصف به من جرأة وشجاعة وإخلاص، فيقول ابن المقرب بهذا الصدد :

وابسُطْ يَديْ «فاضلٍ» في الأمر تُكْفَ بهِ
ما ناب وارمِ العدى عن قوسه تُصِبِ

فـــفـــاضلٍ غـــيـــرِ خَـــوّارٍ ولا وكِـلٍ

فـــي الـــكـــائـــنـــات ولا وانٍ ولا وَعِـــبِ[8]

وقد توفي «أبوشكر مقدم» في سنة ٦٢٠هـ الموافق سنة ١٢٢٤م .

إمارتا «فاضل وجعفر ابني معن بن شديد بن جعفر بن الفضل بن عبدالله بن علي العيوني»:[9]

بعد وفاة الأمير «أبي شكر مقدم» قام مقامه في ملك القطيف وجزيرة أوال الأمير «فاضل بن معن»، ويبدو أن توليه مقاليد السلطة جاء حسماً لأزمة سياسية حادة كادت تؤدي إلى ضياع الملك جراء صراع نشب بين الأمراء العيونيين، وأن شيخ بني الحارث من بني عامر الملقب «بأبي قناع» كانت له اليد الطولى في وصول «فاضل» إلى سدة الحكم وإطفاء جذوة ذلك الصراع، يقول ابن المقرب مشيراً إلى أهمية تولي «فاضل» ويوصيه بعدم التفريط في علاقته «بأبي قناع» تقديراً لدوره المتميز في حماية الملك والذود عنه:

لو لم يقم في الـمُلْك ضـــاع ولم يعـــدْ

عُـــمْـــرَ السنين ومُـدّةَ الأعـوامِ

....

واشـــددْ يـداً بـأبـي قِـنـــاعٍ إنّـهُ

نـعمَ المحـــامي دونهـــا والحـــامي

واشكرْ له الســـعيَ الذي انقـــادت بهِ

لكَ وُلْدَ ســـامٍ حـــيث شـــئتَ وحـــام

وارضَ الذي يرضـى وقـــدّمْ امـــرَهُ

واطـعْـــه طاعـــةَ مُـــقْـــتَـــدٍ لإمـــام[10]

ويُستشفّ من شعر ابن المقرب أن «فاضلاً» هذا كان على جانب من الأخلاق الفاضلة كالشجاعة والكرم والوعي بمسؤوليات الحكم والنهوض بتبعاته، كما ظل على علاقة طيبة «بأبي قناع» حتى وافاه الأجل سنة ٦٢٦هـ الموافق سنة ١٢٣٠م، فتولى مقاليد السلطة بعده أخوه «جعفر بن معن» بضعة أشهر[11]، حيث انتزع منه السلطة في أواخر ذلك العام ابن عمه الأمير «محمد بن مسعود بن أبي الحسين أحمد»[12].

ب ـ سير الحكم في الأحساء بعد الأمير «محمد بن أبي الحسين أحمد»:

تتفق الروايات التاريخية على أن الحكم في الأحساء قد انتقل في أعقاب وفاة الأمير «محمد بن أبي الحسين أحمد» من بيت «آل الفضل» إلى بيت «آل أبي منصور»، وتختلف في أول من تقلد منصب الإمارة من أفراد هذا البيت، فإحدى الروايات تسمي لهذا المنصب «علي بن الحسن بن عبدالله بن علي»، في حين تصرح رواية أخرى بأنه «محمد بن ماجد»، وهناك قرائن تحملنا على الاعتقاد بأنه «ماجد بن محمد أبومحمد» المذكور سلفاً، وأن «محمداً» هذا تقلد السلطة في الأحساء بعد أبيه، ومنه انتزع السلطة عمه «مسعود» بعد أن قام بقتله.

وتمثل فترة حكم الثلاثة هؤلاء صفحة قاتمة من تاريخ العيونيين لسوء سيرتهم في الحكم، وما نجم عن ذلك من خراب البلاد وتسلط رجال البادية على مقدراتها .

ومن القرائن التي تجعلني أرجح اعتبار «ماجد» أسبق هؤلاء في تولي السلطة بالأحساء في هذه الفترة كون تقلد الأمراء المذكورين للسلطة في الأحساء من الأمور الثابتة، وأن شعر ابن المقرب وشروحه نصت على ذلك، وليس من المنطق حينئذٍ أن تأتي ولاية «محمد» الابن سابقة لولاية أبيه خاصة إذا علمنا أن بين هذين ولاة آخرين، حيث نصت شروح الديوان على انتقال السلطة من «محمد بن ماجد» إلى عمه «مسعود» ومن «مسعود» إلى «علي بن الحسن بن عبدالله بن علي»، بل إن الشاعر نفسه نص صراحة على اعتبار ولاية «ماجد بن محمد» كانت بداية ظهور الخراب في البلاد والتفريط في ممتلكات أهلها :

كم للعشيرةِ مذ تولّى ماجدٌ
من سابقٍ بِغَثمٍ ومن بستانِ[١٣]

كما جاء عن شارح ديوان ابن المقرب في سياق حديثه عن محنة الشاعر على يد الأمير «محمد بن ماجد» قوله : «وكان «ماجد بن محمد أبومحمد» هذا أيضاً قد فعل مع «مقرب بن منصور بن علي بن مقرب» هذا كفعل ابنه في أخذ المال وغيره»[١٤]، وفي

هذه العبارة إشارة واضحة إلى أن «ماجد بن محمد بن علي» تولى حكم الأحساء قبل ابنه «محمد»، وفي ذلك ما يجعلنا مطمئنين إلى القول بأن حكم الأحساء آل إليه إثر اغتيال الأمير «محمد بن أبي الحسين أحمد» مباشرة .

إمارة «ماجد بن محمد بن علي بن عبدالله بن علي العيوني» من ٦٠٥هـ - ٦١٥هـ الموافق ١٢٠٨م - ١٢١٨م:

في أعقاب اغتيال الأمير «محمد بن أبي الحسين أحمد» تولى مقاليد السلطة في الأحساء «ماجد بن محمد بن علي» وكان ذلك على ما يظهر بسعي واختيار من الأهالي، ولعل أسباب هذا الاختيار تعود لرغبة هؤلاء في العودة إلى أمرائهم السابقين من بيت «أبي منصور علي بن عبدالله بن علي العيوني»، حيث كانت إمارة الأحساء في هذا البيت منذ اغتيال «أبي سنان محمد بن الفضل بن عبدالله العيوني» إلى أن قام الأمير«محمد بن أبي الحسين أحمد» بتبوء عرش البلاد وتوحيدها في سنة ٥٨٧هـ، ويبدو أن العاطفة وحدها هي التي قادت الأهالي إلى هذا الاختيار دون أي اعتبار آخر، فلم تكن في هذا الأمير من مقومات القيادة ما يجعله جديراً بثقتهم في قدرته على تحمل هذه المسؤولية، فلم يحسن تدبير شئون الملك وتوفير الحياة الآمنة المطمئنة لرعيته بل ما حدث على العكس من ذلك، فقد أخذ الخلل والخراب يتسلل إلى أجهزة السلطة والأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية في البلاد بسبب ضعفه واستسلامه للبطانة الفاسدة ورغبات شيوخ البادية .

يصف شارح ديوان ابن المقرب[١٥] حالة البلد في عهده فيقول : «إنه حين ملك استخفَّ بأهل الأحساء استخفافاً عظيماً وأخذ في سفك دمائهم واستباحة أموالهم حتى تعدى حد الجور، ومال إلى البدو ميلاً عظيماً حتى بلغ من ميله إليهم ومحبته لهم أن أعطاهم جميع ما للسلطنة من مال وعقار وكراع ولامة حرب وأكثر أملاك أهل البلد والمشهور من سلاحهم، حتى بلغ من ميله إلى البدو ومحبته لهم ما حُكي عن أنه سمع في ذات يوم رغاء بعير فقال اللهم حيٍّ راكبه، فقال له بعض من في حضرته : أتعرف راكبه ؟ فقال : أعرف أنه بدوي، وكان قد قرّب عدة رجال من أوباش أهل الأحساء

وفيهم من يُعرف بقلة النخوة والحمية وعظم الحمق، فصار الرجل منهم يبيع البستان من بساتين أهل الأحساء الذي يساوي مائتي دينار أو أقل أو أكثر على البدوي بدينار وبدينارين وبثوب وبجزور وما أشبه ذلك، فلا يُعترض عليه ولا يُسأل عما فعل ويُمضي البيع، وربما استغاث الرجل حينما يباع بستانه فيُستخف به ويناله من الهوان أكثر من بيع البستان، وكلما اشترى أهل البلد من الخيل ما يعينهم على حماية أنفسهم وبلادهم وثب عليهم فما يحول الحول إلا وقد أعطاها البدو، فعل ذلك مراراً عدة فلم يزل ذلك دأبه ودأب أصحابه في أهل البلد مدة عشر سنين[١٦]، ثم ينهي هذه الرواية بالقول إن أهل الأحساء حينذاك بعثوا للأمير «علي بن الحسن بن عبدالله بن علي» فسار إليهم فأدخلوه البلد وحاصروا «ماجد بن محمد» في القلعة حتى أخرجوه منها وملكها «علي ابن علي»[١٧]، ونهاية حكم الأمير «ماجد» على هذه الصورة التي تعرضها هذه الرواية لا يمكن قبولها لأسباب منها : ثبوت تولي ابنه «محمد» لمقاليد الحكم في الأحساء قبل استقدام «علي» لحكم البلاد واستبعاد حدوث ولايته قبل ولاية أبيه .

ثم إن هذه الرواية تعارض رواية أخرى نص فيها الشارح نفسه على أن تلك المراسلة «لعلي» واستقدامه للحكم في الأحساء كانت في عهد الأمير «أبي القاسم مسعود»[١٨]، فالتعارض بين هاتين الروايتين وما أسلفناه من القول في حق ولاية «محمد ابن ماجد» تجعل هذه النهاية لحكم الأمير «ماجد» أمراً غير مقبول إلا إذا ثبت أن الأمير «علياً» هذا قد استُقدم لحكم الأحساء مرتين، مرة لإخراج الحكم من «ماجد»، وأخرى لإخراج الحكم من «أبي القاسم مسعود» وهذا ما لم يقل به أحد أو يقم عليه دليل .

من هنا يمكن القول إن ولاية «ماجد» انتهت إما بوفاته أو بخلعه وإحلال ابنه «محمد» في مكانه .

إمارة «محمد بن ماجد بن محمد بن علي»:

تولى «محمد» هذا مقاليد السلطة في الأحساء بعد أبيه وينص شارح الديوان على أن أهل البلاد قد اختاروه لشغل هذا المنصب، وليس هناك أسباب واضحة تبرر هذا الاختيار مع ما نعلمه من سوء سيرة أبيه في الحكم وما حل بالبلاد في عهده من ويلات .

وفي ضوء الاجتهاد لتلمس تلك الأسباب يمكن القول إن ذلك الاختيار تم من قبل رجال أبيه وأعوانهم لأن تثبيته في الحكم يضمن استمرار نفوذهم وسيطرتهم، وبخاصة أنه كان آنذاك صغير السن مما يمكنهم أكثر من إحكام السيطرة عليه وتوجيهه وفق أهوائهم، أو أن في شخصيته من سمات النجابة والصفات الحسنة ما يوحي باختلافه عن أبيه فتم اختياره على هذا الأساس خاصة أن إخراج السلطة من «آل منصور» وإسنادها إلى آخرين ربما يجلب المزيد من المشاكل والصعوبات بسبب هيمنة محاسيب هذا البيت، كما أن خوض تجربة جديدة مع شخص غير مضمون لا يكون الإقدام عليها بالأمر السهل لذا تم تقليد «محمد بن ماجد بن محمد بن علي» إمارة الأحساء، وربما كان جديراً بهذا المنصب لو استعان بمن يثري تجربته الجديدة بالعلم والخبرة في أداء مهامه وتوجيه سياسته لما فيه خير دولته ورعيته .

ولكن ما حدث عكس ذلك تماماً فقد أحاطت به بطانة سيئة من المرتزقة والانتهازيين ربما من جلساء أبيه أو أمثالهم من الذين لا يهمهم سوى تحقيق مصالحهم الذاتية، ولكي يحكموا قبضتهم عليه فقد سعوا إلى إفساد علاقته بأقاربه وأهل بيته والمخلصين من أبناء شعبه، فساءت سيرته وتفاقم الجور في أيامه وكان الشاعر علي بن المقرب في طليعة ضحايا هذا الجور، فقد قام الأمير «محمد بن ماجد»[١٩] هذا بالقبض على الشاعر وزج به في السجن وألحق بأهله غاية الأذى وصادر جميع أملاكه وجميع ما في يده من ذهب وفضة ورقيق ومواشٍ وعقار، ثم أودعه السجن مكبلاً بالقيود والأغلال وأفرج عنه بعد زمان دون أن يُعيد إليه من أمواله كثيراً ولا قليلاً، فأقام في الأحساء مدة يعاني من ضيق ذات اليد وقسوة الغُبن من قومه وأقاربه[٢٠]، وحين ضاق بالإقامة في الأحساء ذرعاً سافر إلى العراق فمكث هناك بضعة أشهر ثم عاد إلى الأحساء، وسعى لاسترضاء أميرها واستعطافه لإزالة ما في نفسه عليه من الحنق فمدحه بالقصيدة التي مطلعها «قفوا عن يمين المنحنى أيها الركب»، وقد أسبغ عليه في هذه الفترة جُملة من الفضائل والقيم التي لم تكن فيه أبداً إما بدافع الرغبة في استدرار عطفه والتقرب إليه، أو بغية ترغيبه في اتباع تلك الصفات والتحلي بها بطريقة مقبولة لا تحمل مرارة النصح المباشر والتوجيه الصريح،

من تلك الفضائل تذكيره بما عليه من واجب البر بأسرته ورعيته والحرص على توفير الحياة الكريمة لهم وتوحيدهم وإزالة أسباب الفرقة بينهم وتحقيق الأمل المرجو منه في إحياء أمجاد الأسرة وإصلاح شؤون البلاد، ولم يخف خشيته عليه من شرور جلساء السوء الذين طالما استغلوا حداثة سنه وقلة خبرته فلم يُقصّروا في خداعه وتضليله خدمة لأهوائهم وتحقيق مطامعهم، ومما جاء في تلك القصيدة قوله :

همامٌ علتْ هِمّاتُه فكأنما
يحاول أمراً دونه السبعةُ الشهبُ
علا كلَّ باعٍ باعُه وتواضعتْ
لعزّته وانقادتِ العُجْمُ والعُرْب
سما للعُلا من قبل تبقيلِ وجههِ
فأدركها والمأثراتُ له صحب
....
أتاني من الأنباء عنه غرائبٌ
فلذّتْ بها الأسماعُ واستبشر القلب
بعطفٍ على ودّ العشيرةِ صادقٍ
ورفضِ عِداها لا مِحالٌ ولا كذب
وتجميرِها من كلّ أوبٍ حميّةً
عليها فزال الخوفُ والتامَ الشَّعْب[٢١]

وكان الأمير «محمد بن ماجد» حين سمع هذه القصيدة أظهر للشاعر بعض اللين ووعده بإرجاع بعض أملاكه إليه، بيد أنه أخذ في المماطلة والتسويف وطال انتظار الشاعر لإنجاز ذلك الوعد فمدحه بقصيدة أخرى مطلعها «أمن دمنة بين اللّوى فالدكادك»، وطمع أن يعطيه طرفاً من ماله المغتصب وناشده القرابة والنسب رجاء أن يرق لحاله ويخفف من معاناته ومعاناة أهل بيته، ولما أنشده القصيدة وعده وعداً جميلاً ولكنه لم يحظ منه بغير الوعد، وكان قد عقد العزم على منعه وحرمانه مما رجا وأمّل وقد قوّى عزيمة الأمير على التراجع عن وعده من يلوذ به من الأصحاب والأخدان، وقد قالوا له في ما قالوا إنك لو أعدت إليه بعض أمواله لن يقتنع بذلك وسوف يظل يطلب

المزيد والمزيد، ومع ذلك فلن يصفو لك مكنون سره ولن يزيل سخيمة صدره[٢٢] والأولى لك في التدبير ألاّ تلبي رغبته ولا تعلي مقامه، ونصحوه بأن يبعده عن البلد فاستصوب مقالهم واستحسن رأيهم فأعرض عن الشاعر وأظهر له الجفاء، ثم خاف على نفسه فخرج إلى القطيف وكانت حجة الأمير «محمد بن ماجد» في ما ألحق بالشاعر من أذى شدة ميله إلى «آل الفضل» واختياره لهم ومحبته إياهم، وهذا ما أوضحه شارح ديوان ابن المقرب بين يدي قصيدة نظمها الشاعر في مدح الأمير «الفضل بن محمد بن أبي الحسين أحمد».

نهايته:

يبدو أن مدة حكم «محمد» هذا لم تطل فنظراً لما وصلت إليه البلاد من سوء الحال وما عمها من خراب على يد هذا الأمير، قام عمه «أبو القاسم مسعود بن محمد» وأبناؤه إخوة الأمير «محمد بن ماجد» لأمه بالإطاحة به وقتله وتسلم مقاليد الحكم في الأحساء[٢٣] .

إمارة «أبي القاسم مسعود بن محمد بن علي بن عبدالله العيوني»:

حين نجح الأمير «أبو القاسم» وأولاده في القضاء على «محمد بن ماجد» في سنة ٦١٥هـ قبضوا على زمام السلطة في الأحساء، فعملوا في أول أمرهم على إصلاح أحوالها لإشاعة العدل والأمن والاستقرار والحد من تسلط البدو ومراكز القوى في البلاد، ويعود ذلك إلى ما كان يتصف به «أبوالقاسم» من صفات حميدة فقد كان شديد التدين، عابداً، زاهداً، كثير القربات والطاعات يقول عنه ابن المقرب :

والعـابدُ الزاهد الصوّام إن حميتْ
هواجرُ الصيفِ والقوّامُ بالسَّحَرِ[٢٤]

وفي عهده وقعت نكبة آل جروان فقد قام بالقبض على رئيسهم وقتله ومصادرة أمواله كما صادر أموال كبرائهم واعتقل بعضهم ونفى آخرين، وكان آل جروان هؤلاء من أهم أسر عبدالقيس في الأحساء، وليس ثمة أسباب واضحة لهذا الإجراء إذ من

المعلوم أن آل جروان قد ربطتهم بالأسرة العيونية علاقات طيبة أتاحت لهم تبوّء مكانة اجتماعية مرموقة ونفوذ واسع، ولعل هذا التصرف كان من الإجراءات التصحيحية للأوضاع في البلاد والحد من تسلط المتنفذين الذين كانوا وراء ما شاع من الفساد الإداري وعجز الأمن عن النهوض بمسئولياته، وربما تكون لنكبة آل جروان هؤلاء أسباب أخرى مثل الوشايات والمكائد التي ما فتئ المتنافسون على جني المصالح والأطماع يحيكها بعضهم لبعض، وهذا ما أشار إليه ابن المقرب في شعره عن هذه النكبة وكان آنذاك من المتعاطفين مع آل جروان والمعجبين بهم وذلك قبل أن يتضح دورهم في تقويض أركان الدولة العيونية وإزالتها، يقول ابن المقرب عن حاسدي آل جروان والمعادين لهم أثناء حديثه عن محنتهم :

وأَطمَعَهم قتلُ الرئيسِ وما جرى
مِنِ اخراج آلٍ واستباحة مالِ[٢٥]

ويبدو أن استشراء نفوذ هذه القوى من البادية والحاضرة وما يتمتعون به من قدرة على ضرب كل حركة إصلاحية، كان أقوى وأكبر من أن يستطيع هذا الأمير التصدي له أو الحد من تفاقمه، فسرعان ما أخذ في التراجع عن مواقفه من هؤلاء وأمثالهم بل سعى إلى التودد لهم وتطييب خواطرهم، فبعد سنة واحدة عفا عن آل جروان وأعاد لهم اعتبارهم ولم يحل الحول حتى استعادوا مكانتهم ونفوذهم في الدولة العيونية، يقول ابن المقرب :

فلم يمضِ إلاّ الحولُ ثم رأيتُهم
على رَغْم شانيهم بانعَم بالِ[٢٦]

ويبدو أن البدو قد استشعروا هذا الضعف في الأمير «مسعود» فأرادوا اختبار مدى قدرته على مجابهتهم والتصدي لرغباتهم، فأوكلوا هذه المهمة إلى أحد اللصوص وقطاع الطرق المحترفين من الغفيلات ويدعى «شكر بن مفلج بن الجحاف بن غفيلة»، فأكثر التلصص والفساد والتعرض للمساكين من الأكارين والضعفاء وصار لا يجد عند أحدهم دابة إلا عقرها ولا ثوباً إلا سلبه ولا شيئاً كثيراً أو قليلاً إلا استولى عليه،

وفي ذات يوم وبينما هو يمارس تلصصه وتعدياته طلعت عليه خيل أهل البلد فقتلوه فقامت أهله وقامت عامر معهم على الأمير «أبي القاسم» وطالبوه بديته فأظهر لهم اللين وعدم الممانعة، فأنكر أهل الأحساء عليه ذلك وقالوا هذا شيء لا نقره ولا نصبر عليه فجرّ ذلك حرباً شرسة بين أهل الأحساء والبدو.

يقول شارح الديوان: وتسهلت من الأسباب النحسة أن أقواماً من أهل البلد دبروا للبلد تدبيراً قوّى أعداءهم عليهم، ولم يوضح الراوي نوع ذلك التدبير، ولعل أقرب ما يمكن تصوره أن بعض الأهالي ربما كاتبوا رجالاً من قبائل أخرى للاستعانة بهم، وحين حضروا لنجدتهم بدا لهم أن الغدر بأهل الأحساء والانحياز إلى القبائل المغيرة يحقق لهم مكاسب أكثر، فتخلوا عن المهمة التي قدموا لأجلها وانضموا إلى أبناء جلدتهم وكانوا جميعاً يداً على البلد وأهلها، فانتهت المعركة بانتصارهم وهزيمة أهل الأحساء[٢٧]، وقد أسهمت هذه الحادثة وأمور أخرى في إلحاق الضعف والوهن بشخصية «أبي القاسم» وفي علاقاته بأهله وأقاربه وأهل الفضل من رعيته، فقد ابعدهم جميعاً عن مجلسه وجردهم من شغل المناصب والمهام في الدولة، وأحاط نفسه بنفر من غير أهل المروءة والفضل وألقى إليهم بالمقاليد في جميع أموره وأمور بلده ورعيته ظناً منه أنهم ناصحون له ولأهل بيته، وكان عظيم الركون إليهم، وكانوا يعملون في هلاك دولته وقلع آثار أهل بيته وصار لا يسمع لأحد قولاً غير قولهم ولا يفعل إلا بما يأمرون، ولعل أولئك النفر لم يكونوا مطمئنين لاستمرار هذه العلاقة بالأمير وغير واثقين من قدرتهم على الاحتفاظ بنفوذهم عليه، وكانوا شديدي الخشية من نجاح آل إبراهيم أقارب الأمير بالتأثير فيه وتحذيره منهم ودعوته إلى إبعادهم والرجوع إلى ما هو الأليق به في توثيق أواصر القرابة مع أهله ومع المخلصين الأكفاء من رجال دولته، فعملوا جاهدين على التخلص من آل إبراهيم وتجريدهم من أموالهم وأملاكهم لإضعافهم وبتر ما تبقى من وشائج بينهم وبين الأمير، فاتصلوا بمشايخ البادية وأغروهم بالتدبير لهم في الاستيلاء على أملاك وعقارات أقارب الأمير، فأجابهم البدو إلى ذلك فوضعوا لبلوغ هذه الغاية خطة محكمة قام بموجبها البدو بالإغارة على البلد في موسم صرام النخل وانتشروا في أريافها ومنعوا الفلاحين من الوصول إلى

بساتينهم ولم يمكنوهم من صرم الثمار وجني المحاصيل، فعم الذعر أرجاء البلاد خوفاً من تجاوزات المغيرين وتعدياتهم وفساد الزروع والثمار، حينذاك أشار المتآمرون من جلساء الأمير عليه بالاتصال بالبدو والتعرف إلى رغباتهم وإجراء صلح معهم لأن البلد لا يحتمل مثل هذه الغارات، فقال : الأمر لكم .

وكان هؤلاء قد اتفقوا مع البدو على أن يطلبوا من الأمير مقداراً كبيراً من الذهب يأخذه لهم من أهل الأحساء، وإذا استمهلهم بعض الوقت لجمع الذهب المطلوب يقبلون منه ذلك شريطة أن يعطي كل واحد من مشايخ البدو رهناً من بساتين الأحساء، وكانوا قد بيّتوا النية على أن تكون جميع البساتين المرتهنة من أملاك آل إبراهيم رهط الأمير، وأن يُخرج لهم في ذلك صكوكاً رسمية وأن تتم كتابة الصكوك بحضور الأمير وذلك النفر أو بعضهم، وحين تم الصلح وظهر العجز عن دفع الذهب المطلوب وطلب الأمير من البدو إمهاله بعض الوقت أظهروا الموافقة شريطة أن يعطى كل واحد منهم رهناً يضمن به الوفاء بما جرى عليه الصلح، وصار الأمير إذا أراد أن يكتب لأحد من البدو شيئاً يسأل جلساءه أي البساتين أكتب لفلان ؟ فيقول البدوي على الفور : اكتب البستان الذي خفارته لفلان دون أن يسمي المالك الأصلي لذلك العقار خشية أن يفطن الأمير لهذه المؤامرة .

وحين انتهت أخبار هذا التدبير إلى الشاعر ابن المقرب وكان مقيماً في القطيف أزعجته كثيراً، فقدم على «أبي القاسم» وعنّفه على هذا التصرف فأنكر الأمير علمه بذلك وأقسم أنه لم يكتب بيده شيئاً كثيراً أو قليلاً إلا ما اقترحه فلان وفلان وسمّى أسماءهم، وحضر البدو في الأجل المسمّى لتسلّم الذهب وحين تعذر الدفع وضعوا أيديهم على الأملاك المرتهنة وتم إخراج آل إبراهيم من كل أملاكهم فقال «أبوالقاسم» معقباً على ذلك: «لغصب أملاك عشرين خير من غصب أملاك أهل الأحساء كلهم»[28]، وانطلق لسان ابن المقرب منددا بضعف هذا الأمير وقبوله للهوان وما لحق بأهله ورعيته من أذى بسبب تدبير جلسائه وجرأة البدو على البلاد وأهلها، ولم يدخر جهداً[29] في نصح الأمير وتحذيره من مكائد هؤلاء وحثه على المبادرة بوضع حد لأطماعهم، كما حث أهل البلاد على التكاتف والتعاون لما فيه خيرهم وحماية أرواحهم ومصالحهم، من ذلك قوله :

إلى كم مـداراةُ العِـدى واحـتـرامُـهـا

وكم يعـترينا ضـيـمُـهـا واهتـضـامُـهـا

أمـا حـان يا فـرعَيْ ربيـعـةَ ان ارى

بناتِ الوغى يعلو الروابي قَـتـامـهـا

رِدوا الحـربَ وردَ الظامـئـاتِ حـيـاضَـهـا

خـوامسَ يغـتـال الفِصـالَ ازدحـامـهـا

وخـوضـوا لظاها باقـتـحـامٍ فـإنما

يُكشَفُ غـمّـاءَ الحـروبِ اقـتـحـامـهـا

ولُوذوا ببِـيض المشـرفـيّـةِ إنهـا

لهـا عـزّةٌ قـعـسـاءُ وافِرٌ ذِمـامـهـا

....

فـيـا با سنانٍ قُمْ فـانتَ زعـيـمُـهـا

وانتَ مُـرجّـاها وانتَ هُمـامـهـا(٣٠)

نهايته :

حين بلغ السيل الزبى من الجور والظلم على يد الأمير «أبي القاسم»، رأى أهل الأحساء إزاحته عن عرش البلاد وطرده واستقدام «علي بن ماجد» وتسليمه مقاليد الحكم في الأحساء .

إمارة الأمير «علي بن ماجد»(٣١) :

حين نجح أهل الأحساء في تنحية الأمير «أبي القاسم مسعود» عن سرير الحكم في الأحساء، وقع اختيارهم على الأمير «علي بن ماجد» فأسندوا إليه السلطة في البلاد. وقد اختاروه لهذا المنصب لما وجدوا فيه من الصفات التي تؤهله لذلك، فقد كان كهلاً راجح العقل عفيفاً حليماً من غير ضعف، حازماً في غير عنف، كريماً عادلاً لا تُخشى غوائله. يقول ابن المقرب منوهاً بمناقبه هذه :

همامٌ تعدّى الأربعين فحازها
بعشر سنينٍ أو قريباً من العشر

....

ولما تولّى الملكَ باء مُشمِّراً
باعبائه من غير لَهْثٍ ولا بُهرِ[٣٢]
وعفَّ فلم يمددْ إلى مسلمٍ يداً
بسوءٍ ولا باتت له عقربٌ تسري

عندما دانت البلاد بالولاء والطاعة للأمير «علي بن ماجد»[٣٣] واستكمل بسط نفوذه عليها، كانت أولى المهام التي قام بها إرساء قواعد الأمن وتوفير الهيبة والكرامة للدولة، فسار بالعدل بين الناس، وتعقب المجرمين وأخذ على أيديهم، فاستتب الأمن وعمّ الرخاء وساد الاستقرار في البلاد، يقول فيه ابن المقرب :

أحييتَها بعد المماتِ وبعدما
قامت بواكيها تنوح وتندبُ
ومنعتَها من بعد ما كانت سُدىً
في كل ناحيةٍ تُضار وتُنهب
وملأتَها عدلاً وكانت عُمّمتْ
جَوْراً تغور له الديارُ وتُخرَب
ورفعتَ عنها المؤذياتِ وطالما
راح البَلا في جوّها يتصبّب
حتى كأنكَ والمشبِّهُ صادقٌ
عُمَرٌ بها وكأنها هي يَثْرب
نام الغنيُّ وكان قبلكَ لا ينى
خوفَ المظالمِ ساهراً يتقلّب
ومشى الفقيرُ ضُحىً وهَوْن آمناً
بالالتفات واسفرَ المتنقّب[٣٤]

المؤامرة على «علي» وموقف الشاعر علي بن المقرب منها :

لا بد أن تكون حياة الاستقرار التي تمكن الأمير «علي بن ماجد» من بثها في البلاد قد قامت على أنقاض أطماع ومصالح كثير من زعماء الأحساء، فعكف هؤلاء وفي مقدمتهم «إبراهيم بن عبدالله بن أبي جروان» من رؤساء الأحساء على التخطيط للإطاحة بنظام الأمير «علي بن ماجد» وإلقاء القبض عليه، ولعل المؤامرة كانت من الخطورة بحيث لم يجد الأمير «علي» نفسه قادراً على إحباطها، فاضطر إلى مغادرة البلاد سراً، وعلى إثر ذلك قام «إبراهيم بن عبدالله بن أبي جروان» بتنصيب «مقدم بن غرير» أميراً على البلاد وذلك في سنة ٦١٨هـ الموافق سنة ١٢٢١م(٣٥) .

إمارة «مقدم بن غرير بن الحسن بن شكر بن علي بن عبدالله العيوني»:

جاء أهل الأحساء وفي مقدمتهم «إبراهيم بن عبدالله بن غرير بن إبراهيم بن أبي جروان» من البادية بـ «مقدم» فعاشت البلاد في ظل حكمه أوضاعاً مزرية، لما حل بها من خراب وتدمير على يديه .

يقول شارح ديوان ابن المقرب في وصف حالة الأحساء آنذاك : حين خرج الأمير «علي بن ماجد» من الأحساء بعث قوم من أهل البلد إلى «مقدم بن غرير بن الحسن بن شكر بن علي بن عبدالله بن علي» فأدخلوه البلد فملكها، وكانت السلطة في البحرين قد ضعفت وساء تدبير أهلها، وذلك أنهم صاروا يقدمون قوماً ليسوا من أهل الشرف ولا من أهل الدولة ولا القرابة لهم، ويؤخرون أهل قرابتهم ومن هم من أرباب الدولة، ويتحاملون عليهم حتى زهد فيهم الصديق وأبغضهم ذو قرابتهم، وطمع فيهم العدو، فصارت العامة تقدم من تريد وتؤخر من تريد من السلاطين، ومما بلغ به سوء تدبير ملوكها واستحواذ العامة عليهم أنه صار إذا ملك أحدهم أخرج جميع شؤون المملكة من أقاربه وبني عمه وبقي فرداً، وكانت أموال السلطنة قد خرجت من يد أهلها وصارت لعدوها وخصومها من البدو، ولم يبق للسلطان مال يقدر عليه ويُعدّ به جنداً تحمي بلاده وتمنعه وتدفع عنه بأس رعيته، وصار كل له هوى، وكل يريد أن يكون الملك على

يديه، فأرادوا القبض على قوم من بني مرة من آل إبراهيم العيونيين أقارب أهل بيت السلطان، وكان إذ ذاك «مقدم بن غرير» جاهلاً بالبلد وأهلها وغير مكترث بالنسب، لأنه نشأ في البادية ولم ينشأ في البلد ولم يكن يعرف أهلها، فأجابهم إلى ذلك فقبض على عدة رجال وألقاهم في المطمورة ونهب ما في خزائنهم، فجاءه الشاعر علي بن المقرب ولامه في ذلك وقبّح عليه ذلك الفعل بعد أن سأله وقال : «ما ذنب هؤلاء الرجال الذين قبضت عليهم» ؟ فقال : «ما قبضت عليهم وإنما قبض عليهم أصحابي فلان وفلان وما لي قدرة على خلافهم ولا طاقة لي بمعصيتهم»، فتجددت من ابن المقرب صرخات الاستنكار والأسى لما آل إليه أمر العيونيين[٣٦] .

وأرسل من القطيف إلى ابن جروان قصيدة يدعو فيها رجال عبدالقيس إلى الإقلاع عن المصالح الذاتية والخصومات الشخصية، ويستنهض هممهم للعمل على ما فيه عزتهم وكرامتهم، ويذكرهم بسيطرة رجال البادية وتسلطهم على الدولة واستبدادهم بخيراتها، ومما جاء في تلك القصيدة قوله :

أرجالَ عبدِ القيسِ كم أدعوكمُ
في كلِّ حينٍ للعلا وأوانِ
فتراكمُ موتى فأسكتُ أم ترى
خُلِقتْ رؤوسكُمُ بلا آذان ؟
هلا اقتديتم بالغطارف من بني
جُشَمٍ أو السادات من شيبان

....

اصبحتُمُ غرضاً تَناضلَه العِدى
بمذرّبات البغيِ والعدوان

....

القومُ تاكلكم وياكل بعضُكم
بعضاً كأنكُمُ من الحيتان[٣٧]

****

الهوامش

(١) مخطوطة ديوان ابن المقرب: ص ٥٩٨ .

(٢) مخطوطة ديوان ابن المقرب: ص ٦٢٣ .

(٣) مخطوطة ديوان ابن المقرب: ص ٦٢٣ .

(٤) عبدالفتاح الحلو : ديوان ابن المقرب، ص ١٠٩ .

(٥) مخطوطة ديوان ابن المقرب: ص ٢٠١ .

(٦) عبدالفتاح الحلو : ديوان ابن المقرب، ص ٤٩٩ .

(٧) عبدالفتاح الحلو : ديوان ابن المقرب، ص ٨٣ .

(٨) عبدالفتاح الحلو : ديوان ابن المقرب: ص ٨٣ .

(٩) مخطوطة ديوان ابن المقرب، ص ٦٢٣ .

(١٠) عبدالفتاح الحلو : ديوان ابن المقرب، ص ٥٠٠، ٥٠٣ .

(١١) مخطوطة ديوان ابن المقرب: ص ٦٢٣ .

(١٢) مخطوطة ديوان ابن المقرب: ص ٦٢٣ .

(١٣) مخطوطة ديوان ابن المقرب : ص ٥٨٩ .

(١٤) مخطوطة ديوان ابن المقرب : ص ٣٢٩ .

(١٥) مخطوطة ديوان ابن المقرب : ص ٥٨٩ .

(١٦) مخطوطة ديوان ابن المقرب : ص ٥٨٩ .

(١٧) مخطوطة ديوان ابن المقرب : ص ٣٢٩ .

(١٨) مخطوطة ديوان ابن المقرب : ص ٦ .

(١٩) مخطوطة ديوان ابن المقرب : ص ٥ .

(٢٠) مخطوطة ديوان ابن المقرب : ص ٣٢٩ .

(٢١) عبدالفتاح الحلو : ديوان ابن المقرب : ص ٣٢، ٣٣ .

(٢٢) مخطوطة ديوان ابن المقرب : ص ٥، ٣٢٩ .

(٢٣) ورد اسم «أبي القاسم» في مواضع بالديوان كالتالي «محمد بن مسعود بن محمد بن علي ابن عبدالله العيوني» وهذا خطأ واضح لأن الاسم بهذا الترتيب يجعل «أبا القاسم» ابن عم «محمد بن ماجد» وليس عمه، كما أن بعض روايات الديوان كانت صريحة في إيراد الاسم سليماً من هذا الخطأ فهي تنص على إيراد الاسم خالياً من إضافة محمد إلى مسعود .

(٢٤) عبدالفتاح الحلو : ديوان ابن المقرب : ص ٢٣٠ .

(٢٥) عبدالفتاح الحلو : ديوان ابن المقرب : ص ٣٧٦ .

(٢٦) عبدالفتاح الحلو : ديوان ابن المقرب : ص ٣٧٧ .

(٢٧) مخطوطة ديوان ابن المقرب : ص٤٠٢، ص ٤٠٣ .

(٢٨) مخطوطة ديوان ابن المقرب : ص ٥٥٦ ، ٥٥٧ .

(٢٩) مخطوطة ديوان ابن المقرب : ص٥٥٧ .

(٣٠) عبدالفتاح الحلو : ديوان ابن المقرب : ص ٤٥٦، ٤٥٧، ٤٦١ .

(٣١) تذكر بعض المصادر أن اسمه «علي بن الحسن» مخطوطة ديوان ابن المقرب: ص ٥٩٠ .

(٣٢) مخطوطة ديوان ابن المقرب : ص ١٨٧، ١٨٨ .

(٣٣) مخطوطة ديوان ابن المقرب : ص ٦ .

(٣٤) مخطوطة ديوان ابن المقرب : ص ٩١ ، عبدالفتاح الحلو: ديوان ابن المقرب، ص ٨٩.

(٣٥) الملا : تاريخ هجر، ط١، ج٢، ص ٦٠٠ .

(٣٦) عبدالفتاح الحلو : ديوان ابن المقرب : ص ٦٣١ .

(٣٧) عبدالفتاح الحلو : ديوان ابن المقرب : ص ٦٣٢، ٦٣٣.

****

الفصل التاسع

زوال الدولة العيونية وأفول نجمها

أ - إمارة الأمير «عماد الدين أبي علي محمد بن مسعود بن أبي الحسين»[1] سنة ٦٢٦هـ الموافق سنة ١٢٢٩م :

منذ غياب الأمير «محمد بن أبي الحسين أحمد» عن عرش الدولة العيونية، وهذا العرش فريسة للصراع بين المتنافسين عليه من الأمراء العيونيين الذين أعمتهم شهوة الحكم والانفراد بالسلطة عمّا يسببه ذلك الصراع للبلاد من الخراب، وللدولة من سوء المصير بسبب ما آل إليه حالها من التمزق وما أدركها من الوهن والضعف، فصارت غرضاً للطامعين فيها من الداخل والخارج، حينذاك سعى أهل الحل والعقد في الأحساء لمبايعة أمير من سلالة «الفضل بن عبدالله بن علي العيوني» توسّموا فيه القدرة على علاج هذا المرض الذي استشرى في كيان الدولة وتضميد ما أصابها من جراح، ذلك هو الأمير «محمد بن مسعود بن أبي الحسين أحمد بن محمد بن الفضل»[2]، ولعل الفضل في اختياره يرجع لمساندة أخواله من بني عقيل[3] وأخويه «الحسن والحسين»[4]، الذين لا بد أنهم أدركوا مدى تردي الأوضاع السياسية والاقتصادية في الأحساء والنكبات المتوالية التي حاقت بأهلها على أيدي الأمراء المتأخرين من بيت «آل أبي المنصور علي»، فعملوا على إقناعهم بضرورة التخلص من سلطة هذا البيت ومن القوى المهيمنة على إرادته وعلى مقدرات البلاد، ودعوهم إلى تحويل ولائهم لبيت «آل الفضل بن عبدالله» والقبول بترشيح الأمير «محمد بن مسعود» السالف الذكر لحكم البلاد، فاستجاب الأهالي لهذه المساعي ووافقوا على اختياره للحكم بدافع الرغبة في الخروج من حياة البؤس والمعاناة التي يرزحون تحت نيرها والتطلع إلى حياة السلامة والأمن في ظل هذا الأمير، وربما شجعهم على ذلك ما كان

يتحلى به رغم حداثة سنه من صفات قيادية متميزة كالحزم والشجاعة والعفة والاستقامة والرغبة في نشر العدل، يقول ابن المقرب :

اعطتـه مملكةَ الأحساءِ همَّتُهُ
وعزمُ مُستبصِرٍ بالراي غيرِ عَمِ
فإن يقولوا اختياراً كان ذاك، فهل
يُختار للضرب غيرُ الصارمِ الخَذِمِ[٥] ؟

....

اعطى اللُّهى وعلتْ في المجد همَّتُهُ
قبل اختطاطِ عِذارٍ واثّغار فَمِ[٦]

وبالفعل ما أن تسلّم مقاليد السلطة في الأحساء حتى تطلّعت نفسه إلى توحيد اجزاء البلاد وإعادة الهيبة للدولة العيونية، فسار على رأس جيش كثيف إلى القطيف واحتلها وزحف إلى جزيرة أوال وبسط نفوذه عليها وذلك سنة ٦٢٣هـ الموافق سنة ١٢٢٦م، يصف ابن المقرب هذه الحادثة فيقول :

فغيرُ لايٍ وزجّاها مُلملمَةً
تَدافُعَ السيلِ سيلِ اليَأمنِ العَرِمِ
فما أناخت إلى أن غال عِثْيَرُها
ما شِيد بالخطّ من حصنٍ ومنٍ أُطُمِ
وما نضا الدرعَ حتى حاز حوزتَها
قهراً وآخى بها الأحساءَ من أَمَمِ[٧]

وحين نجح الأمير «محمد بن مسعود» في وضع طموحاته موضع التنفيذ بتوحيد مناطق البلاد وإخماد النزعات الانفصالية فيها ولو إلى حين، أقبل على ترتيب بيت مملكته وإصلاح شؤونها واتخاذ الإجراءات اللازمة لحماية حدودها، فأسند مهام الإمارة في القطيف وأوال إلى أخويه «الحسن وأبي عبدالله الحسين»[٨] وجيّش الجيوش وزودها بكل ما يلزمها من السلاح والعتاد وجعلها على استعداد دائم لقمع المتمردين وصد هجمات الأعداء، وقد بلغت جيوشه من الكثرة حداً عبّر عنه ابن المقرب بقوله:

جـمـع الأمـيـرُ لهم جنوداً لو رمتْ
شُهبَ النجومِ لزال منها الأسعَدُ[٩]

وقد استطاع بتلك القوة واليقظة إيقاف الهجمات المتكررة لحكام جزر هرمز وقيس وغيرهما التي طالما كلّفت البلاد الكثير من الأنفس والجهد والمال، والتي كان من نتائجها السيئة المعاهدة[١٠] المبرمة بين حاكم القطيف الأمير «فضل بن محمد بن أبي الحسين أحمد» و«غيّاث الدين جمشيد» حاكم جزيرة قيس، وهي التي أعطت لحكام جزيرة قيس بعض النفوذ على الخط وجزره، وهو ضيم لا تقبله أو تصبر عليه أصحاب النفوس الأبية الحرة :

ابتْ عـزّةٌ أن تقـبلَ الضـيمَ نفسُـهُ
وذو العـزّةِ القعساءِ كيف يُضامُ[١١]

من هنا يمكن القول إن المعاهدة المذكورة لم تعد سارية المفعول في أيام شوكة هذا الأمير على الأقل، ولسنا على يقين عما إذا كانت قد أُلغيت أو تم تجميد بنودها قبل ذلك.

أما قولي في كتاب تاريخ هجر إن الشاعر علي بن المقرب ندد بهذه المعاهدة في قصيدته الدالية، وإن الأمير «علي بن ماجد» قام بإلغائها فخطأ نبهني عليه مشكوراً فضل العماري[١٢]، ومنشأ هذا الخطأ أنني سقت ما قلت عن كتاب «ساحل الذهب الأسود»[١٣] دون الإشارة إلى ذلك المصدر، وكان قد نص صراحة على شجب الشاعر لهذه المعاهدة، كما ألمح إلى أن العمل ظل جارياً بها حتى نهض الأمير علي ثائراً على الأوضاع السيئة.

والحق إن الشاعر لم يخص المعاهدة المذكورة بالتنديد كما لم يقم الأمير علي بإلغائها لأن سلطته قاصرة على الأحساء، ولم تكن الأحساء مشمولة بالمعاهدة.

أما تجميدها أو إلغاؤها في عهد الأمير «محمد بن مسعود» هذا فيكاد يكون مؤكداً، يدل على ذلك عجز حكام جزر الساحل عن مجرد التحرش بحدود البلاد فضلاً عن العدوان عليها، وهذا واضح في ما نوّه به ابن المقرب في قوله :

ولم يمدّ إلى هرموز منه يداً
وحارك لم يمدّوا كفّ مُعتصِمِ[١٤]

بل إن هذه القوة العسكرية التي خفقت أعلامها في البلاد طولاً وعرضاً قد غمرت البلاد وأهلها بسرور عظيم وفرحة كبرى، عبّر عنها ابن المقرب بصيغة التعجب والاعتداد حين قال :

يا فرحةَ البحرينِ مذ خفقتْ بها
اعلامُه وغدتْ تغور وتُنجِدُ[١٥]

سير الأحداث في عهده :

رغم هذه الإنجازات الكبرى التي تمكن من تحقيقها للبلاد الأمير «محمد بن مسعود» وما وفر لأهلها من أسباب القوة والعزة والأمن، فقد أخفق في إطفاء جذوة الحسد والطمع المتوقدة في نفوس أبناء عمومته الذين ما فتئوا ينتظرون الفرصة المواتية لإزاحته عن عرش البلاد وانتزاع مقاليد السلطة من يده، فعكفوا على إعداد الخطط وحبك المكائد لأجل بلوغ هذا الغرض، وربما فاحت رائحة هذه المؤامرة وبانت بوادرها ووصلت أخبارها إلى الأمير وشاعره الذي أقبل عليه يواسيه ويشد من أزره ويندد بخصومه ومنافسيه ويصب عليهم جام غضبه بتقبيح أعمالهم والدعاء عليهم، ويقارن بين جهود الأمير المضنية التي بذلها في سبيل ما نال من شرف وما حقق للبلاد من عزة ورفعة، وركونهم للدعة والراحة والنوم واللجوء إلى المكر والحيل لتحقيق مآربهم يقول:

سما للعلا رَثّاً سموُّ ابنِ حُرَّةٍ
نجيبٍ نمتْهُ مُنجبون كِرامُ

....

فيا مُفرِغاً في كيده جُهْدَ نفسِهِ
لخيرٍ من السعي الغويِّ نُوام

....

ويا طامــعــاً في نيل مــا نال من عُــلاً

مــــتـى صــــدق الظنّ الكذوبَ منام

....

ويا مُـضـمِـراً بغـضـاءه جُنٌ أو فَـمُتْ

فــداؤكَ لا عُــوفــيتَ منه عُــقــام

....

الا ايـهـــــا الملكُ الـذي لا جـنـابُهُ

بوعــرٍ ولا من في خِــبــاه يُضــامُ[16]

ولم تفلح مساعي الأمير «مسعود» ولا شتائم ابن المقرب في إحباط مؤامرات خصومهم، فقد هبّ الأمير «منصور بن علي بن ماجد» من سلالة الأمير «علي بن عبدالله العيوني» لمحاربة «مسعود» وإخوته، وانتزعوا القطيف وأوال من يدهم سنة ٦٢٦هـ الموافق سنة ١٢٢٨م، حينذاك اقتصرت سلطة الأمير« محمد بن مسعود» على الأحساء فقط.

هذا ما أراه وأطمئن إلى القول به إزاء حيرة الباحثين المعاصرين وتضارب آرائهم حول هذا الأمير، سواءً في ما يتصل بتعيين الفرع الذي ينتمي إليه من فروع البيت المالك أو تحديد المناطق التي خضعت لسيادته، فالمديرس يرى أنه من سلالة الفضل[17] ويحصر سلطته في القطيف فقط، والخضيري يعده من سلالة «آل أبي منصور علي» ويجعل ملكه في الأحساء دون غيرها[18]، أما العماري فيرى أنه من «آل الفضل» ويرى أن بلاد البحرين كلها خضعت لسيادته حيث حكم الأحساء أولاً ومنها انطلق للاستيلاء على القطيف وأوال، وتم له ما أراد بالقوة والقهر[19] مستأنساً بما ورد في أشعار ابن المقرب من أوصاف وإشارات في هذا الخصوص، أما في تحديد انتمائه إلى بيت «الفضل» فقد اعتمد في تدعيم رأيه على مناسبات قصائد ثلاث هي:

(١) بـعــثتَ تُـهــدّد بـالنوى وتُـوعّـدُ

مـهـلاً فـإن اليـومَ يتـبـعـه غدُ[20]

(٢) صـعــودُ العـلا إلا عليكَ حــرامُ

وعـيشٌ سـوى مـا انتَ فـيـه حِـمـامُ[21]

(٣) أنِخْ فـــهــذي قِــبــابُ العــزِّ والكرمِ
وقلْ فكلُّ العــــلا في هذه الخِــــيَــمِ[٢٢]

وقد جاء عن شارح ديوان ابن المقرب قوله في مناسبة القصيدتين الأولى والثانية إنهما قيلتا في مدح الأمير «محمد بن مسعود»، وأورد لقبه وكنيته واسمه كاملاً حتى الأمير المؤسس على أنه الأمير «عماد الدين أبوعلي محمد بن مسعود بن أبي الحسين احمد بن أبي سنان محمد بن الفضل بن عبدالله بن علي»، إلا أنه في حديثه عن الثانية قال : «محمد بن مسعود بن أبي الحسين محمد» بدلاً من أحمد.

أما القصيدة الثالثة فقد ذكر شارح الديوان أنها قيلت في مدح «أبي علي مسعود بن احمد بن محمد بن الفضل»، وقد رجح العماري أنها في «محمد بن مسعود» وليست في «مسعود» مستضيئاً بما ورد في سياق القصيدة من أوصاف وإشارات تدل على ذلك، وقد أصاب[٢٣] لأن شارح الديوان في المخطوطة التي بين أيدينا نص على أن جميع القصائد المذكورة سلفاً قيلت في مدح الأمير «عمادالدين أبي علي محمد بن مسعود بن أبي الحسين أحمد بن أبي سنان محمد بن الفضل بن عبدالله بن علي»، وقد جاءت الأسماء في مناسبات القصائد الثلاث المذكورة صحيحة سليمة من أي خطأ، وعليه يمكن حسم الخلاف حول هذه الشخصية بالقول إن الأمير «محمد بن مسعود» هذا من سلالة الفضل وإنه حكم بلاد البحرين كلها إلى أن يثبت بالبحث وجود شخص أو أشخاص غيره يحملون نفس الاسم، وكان لهم في الأحساء أو القطيف ملك أو ولاية، ومهما يكن من شيء فإن الأحداث التي جرت للأمير «محمد بن مسعود» أثَّرت في نفسيته تأثيراً بالغاً، فاضطربت شخصيته، وسرى الضعف في كيانه واستسلم لجماعة من حاشيته اطمأن إليهم وكانوا يعملون في الخفاء على تقويض دولته، وقد بذل الشاعر علي بن المقرب قصارى جهده في نصح الأمير وإرشاده إلى ما فيه خير الدولة العيونية ويساعد على إنقاذها إلا أنه لم يجد منه أذناً صاغية، فقد وقع الأمير تحت تأثير الذين نجح بعضهم بالدسائس والوشايات في إضعاف العلاقة بين الرجلين، وحين ظهر للشاعر ما منيت به علاقتهما من تصدع وفتور حاول رأب ذلك الصدع فنظم في مدحه القصيدة التي استهلها بقوله:

صعودُ العلا إلا عليكَ حرامُ
وعيشٌ سوى ما انتَ فيه حِمامُ[٢٤]

وقد بذل فيها كل ما في وسعه لاستدرار عطف الأمير ومناشدته بالقربى والرحم ألاَّ يسمح للدسائس والوشايات أن تبتر ما بينهما من وشائج القربى، وحاول تبرئة نفسه من تهم ألصقها به قوم من اليمن زوراً وبهتاناً[٢٥]، وذكّره بأن جميع ما ناله من أذى واضطهاد كان بسبب ميله لآل الفضل، ولم تأت تلك النصائح بطائل فقد تفاقمت الفوضى في عهد هذا الأمير وعمّ الاضطراب وعظم تسلط البادية على مقدرات البلاد، ولم تكن الحالة في عهد «الفضل» الذي جاء بعده بأفضل منها في عهده .

ب- إمارة الأمير «الفضل بن أبي القاسم مسعود بن محمد بن علي بن عبدالله بن علي»:

يقف الباحث من تحديد فترة حكم هذا الأمير وموقعها من عمر الدولة العيونية في حيرة شديدة، فتقلده حكم الأحساء من الأمور الثابتة، عبّر عنها ابن المقرب صراحة في مطلع قصيدة نظمها في مدحه في الأيام الأولى من ولايته جاء فيها قوله :

رويدكَ يا هذا المليكُ الحُلاحلُ
فما المجدُ إلا بعضُ ما انتَ فاعلُ[٢٦]

فالإشكال إذاً يكمن في مجيئه إلى الحكم خلفاً «لمحمد بن مسعود» وهو كما ترى من سلالة «آل أبي منصور علي» بينما «محمد بن مسعود» من سلالة الفضل، ولحل هذا الإشكال يمكن القول إن أهل الأحساء شدهم الحنين إلى حكامهم الأول فأزاحوا «محمد بن مسعود» عن عرش البلاد ونصبوا مكانه الفضل، أو أن ذلك قد تم على يد أعوان أبيه «أبي القاسم مسعود بن محمد بن علي» رغبة منهم في استعادة نفوذهم الذي لا بد أن يكونوا قد فقدوه تماماً في ظل ملك الأمير «محمد بن مسعود بن أبي الحسين أحمد»، هذه مجرد احتمالات يجوز الأخذ بها إذا سلمنا بما ذهب إليه محمد آل عبدالقادر من القول بمجيء «الفضل» إلى الحكم بعد «مسعود» وجعله آخر الحكام العيونيين في الأحساء، أما إذا أخذنا برأي الخضيري الذي يجعل مسعود آخر الحكام العيونيين في الأحساء، أو أسقطنا الفضل هذا من سلسلة حكام العيونيين أصلاً كما

فعل المديرس، فلا نملك إزاء ما لدينا من شواهد على ثبوت ولاية الفضل إلا أن نبحث لهذه الولاية عن زمن آخر، فنقول إنها ربما حصلت أثناء حكم أبيه أبي القاسم مسعود إما بتخلي أبيه له عن الحكم مؤقتاً في خضم المحن التي مني بها أو إنه كان يمارس السلطة مع إخوته إلى جانب أبيهم بعد أن قاموا بقتل أخيهم لأمهم[٢٧] «محمد بن ماجد» والاستيلاء على مقاليد الحكم في الأحساء بعده، كما مر بنا في ما تقدم.

ومهما يكن النمط الذي سارت الأحداث عليه فلا بد من القول إن «الفضل» هذا كان أحد ولاة الأمر في الأحساء وإنه مارس الحكم فيها ولو لفترة محدودة، فقد خاطبه ابن المقرب باعتباره ملكاً كما جاء في مطلع القصيدة السالفة الذكر التي نظمها في مدحه.

أهم الأحداث في إمارة الفضل :

تولى هذا الأمير مقاليد السلطة بعد سابقه وكان على شيء من الصلاح، وقد استبشر الشاعر ابن المقرب بمجيئه وعقد عليه الأمل في إنقاذ ما يمكن إنقاذه من هذه الدولة التي أخذت تتهاوى أركانها وقد حان نجمها على الأفول، فطفق ينفخ فيه روح العزم والهمة ويشجعه بإسباغ أجمل النعوت عليه رجاء أن يكون في ذلك ما يحيي الأمل ويحقق الرجاء، وقد سرّه من هذا الأمير حرصه على تطبيق أحكام الشريعة، وما تأمر به من عدل وإصلاح، يقول بهذا الصدد :

وقمتَ بأحكام الشريعةِ فاستوتْ
لديكَ ذوو الأجبال طيٌّ ووائلُ[٢٨]

أخذتَ بأعضاد العشيرةِ بعدما
هوتْ وعلتْ منها الرؤوسُ الأسافل[٢٩]

فأنتَ لناشيها أخٌ ولطفلها
أبٌ راحمٌ وابنٌ لذي الشيب واصل[٣٠]

ولم تذكر المصادر من الأحداث المهمة في عهده سوى الحادثة المعروفة «بدرب الحنائد»[٣١] التي استطاع فيها الأمير «الفضل» صد إحدى الغارات على الأحساء، وطرد المعتدين الذين ارتدوا على أعقابهم خاسرين، وقد أظهر فيها الأمير من الشجاعة

والجرأة ما جعله موضع إعجاب وتقدير الشاعر علي بن المقرب، فقال منوهاً بشجاعته وجرأته:

سلِ القومَ عنه يوم جاءت واقبلتْ
تخبّ المذاكي تحتها وتُناقلُ

اغارت على درب الحنائد غارةً
يطير الحصا من وقعها والجراول

لها فيلقٌ بالجوّ ذي النخلِ كامنٌ
وريعانُها للمسجد الفردِ[٣٢] شامل

وطاردتِ الفتيانَ فيها واظهرتْ
كُناها وكلٌ عارفٌ من يُجاول

فولّتْ حماةُ القومِ حَيْلاً ولم تزلْ
بنو الحرب في يوم التلاقي تُحايل

فراحت عليها الخيلُ فانبعثتْ لها
جحافلُ جمعٍ تقتفيها جحافل

فحاصت حذار القتلِ والاسر خيلُهُ
وسُمْرُ القنا فيهنَّ صادرٌ وناهل

فاوردهم صدرَ الحصانِ كانما
له الموتُ جندٌ بالمُعادين كافل

وعاجلَ طعناً سيّدَ القومِ فاغتدَوْا
وقد عاف كلٌّ منهُمُ ما يحاول

بها ردّ ارواحَ التوالي وقد غدتْ
إذا ثار منهم راجلٌ طاح راجل[٣٣]

وليس في ديوان ابن المقرب ما يشير إلى ان هذا الأمير كان جديراً بما علّق عليه الشاعر من آمال كبار، بل سرعان ما عاد إلى سيرة أمثاله من الأمراء الذين لم يستطيعوا الصمود طويلاً أمام رغبات الطامعين فيهم من جلسائهم، فافسدوا طويّته،

وانحرفوا به عن صراط العدل والاستقامة، فأحس الشاعر علي بن المقرب إزاء ذلك بالغضب والإحباط، فأسهب في التنديد به في أشعار لم يصل إلينا شيء منها.

ج- خروج الأحساء من السلطة العيونية:

قام بنو عامر بموجب خطة مرسومة مع آل جروان بمهاجمة الأحساء وتطويقها بالحصار الشديد، وتحت وطأة ذلك الحصار استشار «محمد بن مسعود» - على رأي من يعتبر أنه آخر الحكام العيونيين في الأحساء أو «الفضل» على رأي من يجعله خاتمتهم - بعض جلسائه من بني جروان في الأمر، فأشاروا عليه بالاستسلام لبني عامر والتنازل لهم عن السلطة باعتبار ذلك السبيل الوحيد لإنقاذ البلاد وحمايتها من تسلط البدو وتعدياتهم، فلم يجد بداً من الانصياع لذلك، فتم طرده وإخراجه من الحكم ونودي بـ «عصفور بن راشد بن عميرة» ملكاً على البلاد، وبذلك تكون الأحساء أول ركن ينهار من كيان الدولة العيونية بعدما كانت حجر الزاوية في بناء ذلك الكيان، وذلك في حدود سنة ٦٣٠هـ الموافق سنة ١٢٣٣م.

د- الأحوال في القطيف:

كان الأمير «منصور بن علي بن ماجد» قد انتزع السلطة في القطيف وجزيرة أوال من قبضة الأمير «محمد بن مسعود» بعد أن تمكن من قتل أخويه «الحسن والحسين» وذلك في أوائل سنة ٦٢٧ هـ الموافق سنة ١٢٣٠م، ولم يتمتع بحكم القطيف سوى بضعة أشهر، حيث نجح الأمير «محمد بن محمد بن ماجد» في إخراجه منها والاستيلاء عليها، فظل يحكم جزيرة أوال حتى سنة ٦٣٠هـ الموافق سنة ١٢٣٢م، وفي عهد «محمد بن محمد بن ماجد» هذا انتهت الدولة العيونية.

هـ- إمارة الأمير «عماد الدين أبي علي محمد بن محمد بن أبي الحسين أحمد بن محمد بن الفضل»:

اختلف الباحثون حول نسب الأمير «محمد» هذا تبعاً لاختلاف الروايات في شروح ديوان ابن المقرب، فذهب بعضهم إلى الجزم بأنه أحد أمراء «آل فضل»[٣٤] معتمداً على ما جاء في مقدمة القصيدة التي مطلعها:

لذا اليـــومِ أعــملتَ القـــلاصَ العـــبـــاهلا
وأبقـــيـــتَـــهـــا تحت الحنايا نواحــــلا[٣٥]

وفيها ذكر ابن المقرب كنيته «أبا علي، وعماد الدين» يقول :
ولـم يبغِ فــيـــه مُــســعِــداً غـيــرَ نَفْــسِهِ
ومـــثـلُ عـــمـــادِ الدين يكفي قـــبـــائلا[٣٦]
بقـــــيتَ لنـا يا با عليٍّ لتـقـــتــــضي
بكَ الـثـــــــارَ من أيامنـا والـطـوائلا[٣٧]

كما ذهب آخرون إلى جعله من بيت «آل أبي منصور»[٣٨] فهو عندهم «محمد بن محمد بن ماجد بن محمد بن منصور»، ويستشف من الروايات أن هذا الأمير حين رأى في الأفق ما يشير إلى زوال الدولة العيونية نتيجة الاقتتال والصراع على السلطة بين الأفراد العيونيين وتحرك الأطماع الداخلية والخارجية للإطاحة بها، أخذ على عاتقه إنقاذ ما يمكن إنقاذه فأعد جيشاً كثيفاً من رجال البادية بمساعدة أخواله من «آل المُفدّى» وعلى رأسهم «غزوان وحسين»، فتحرك من الموضع المعروف «بالشواجن» شمالي الأحساء آخذاً الطريق إلى القطيف، فدخلها ضُحىً من أحد أيام سنة ٦٢٦هـ الموافق سنة ١٢٢٨م، وفي بضع ساعات تمكن من السيطرة على المدينة، حيث نودي به عصراً ملكاً عليها، يقول ابن المقرب بهذا الصدد :
ألـم يأتِ مـن أرض الشـــــواجـنِ يخــــتطي
حَـــرابيٌّ أجـــوازِ الفــــلا والخـــمـــائلا
فــمـــا حلّ عَـــقْـــدَ السـيفِ حـــتى أناخــهـــا
ضُـــحىً بعِــذارِ الخطِّ حـــدباءَ ناحـــلا[٣٩]

ولما خرج الأمر من يد «محمد بن مسعود» وما أعقب ذلك من زوال حكم العيونيين في الأحساء، أصبحت إمارة العيونيين قاصرة على القطيف وجزيرة أوال وقد آلت الإمارة فيهما بعد «محمد بن مسعود» وأخويه «حسن وحسين» إلى الأمير «منصور بن علي» الذي أمضى في الحكم ثلاث سنوات وبضعة أشهر .

و- الأطماع الخارجية في إمارة العيونيين وأفول نجمها:

لم تعد دولة العيونيين في فترة حكم الأمير «منصور بن علي» والذي جاء بعده قادرة على الصمود طويلاً أمام أطماع الحكومات المجاورة في جزيرة قيس وجزيرة هرمز، رغم ضراوة المقاومة التي أظهرها آخر الأمراء العيونيين «محمد بن محمد بن أبي ماجد» في إيقاف هجمات «السلغريين» والانتصارات التي أحرزها عليهم في بعض المواقع، يقول الدكتور عبداللطيف الحميدان(٤٠) : «إنه في عهد الأمير العيوني «منصور بن علي» استطاع أمير هرمز «سيف الدين أبو النظر» في جمادى الآخرة سنة ٦٢٦هـ الموافق سنة ١٢٢٩م الاستيلاء على جزيرة قيس بعد أن تمكن من قتل الملك «سلطان قوام الدين» آخر ملوك بني قيصر وبذلك أنهى حكم هذه الأسرة في جزيرة قيس»، وبعد أن تم لأمير هرمز ذلك أرسل نوابه إلى جزيرة البحرين، حيث طالبوا حاكمها العيوني الأمير «منصور بن علي» بأن يدفع لهم من واردات البحرين مثلما كان يدفعه لبني قيصر، على اعتبار أن أمير هرمز أصبح الوارث لكافة ممتلكات وحقوق ملوك قيس بعد أن أدخل قاعدتهم الرئيسية تحت سلطته، وقد اضطر الأمير العيوني إلى الإقرار لأمير هرمز بهذه الحقيقة، إلاّ أنه بعد وفاة أتابك فارس الأمير «سعد بن زنكي بن سنقر بن مودود السلغري» سنة ٦٢٨هـ الموافق سنة ١٢٣٠م خلفه في الملك ابنه «أبو بكر» (سنة ٦٢٨- ٦٥٨هـ الموافق سنة ١٢٣٠- ١٢٦٠م)، فصار النزاع بينه وبين أمير هرمز «سيف الدين أبو النظر» واستطاع «أبوبكر» في محرم سنة ٦٢٨هـ تشرين الثاني سنة ١٢٣٠م انتزاع جزيرة قيس من أمير هرمز، وبعد ذلك سعى «أبو بكر» ليبسط نفوذه على كافة المناطق التي كان لبني قيس نفوذ عليها، فقام بإرسال عماله إلى جزيرة أوال يطالبون حاكمها العيوني بأن يدفع إليه مثل ما كان يدفعه إلى بني قيصر سابقاً وإلى أمير هرمز لاحقاً، ولكن الأموال التي تجبى في هذه المرة كانت تتم باسم حقوق الخلافة العباسية في بغداد، وأن «أبا بكر» نائب عنه، فخضع الأمير العيوني لهذه المطامع، على أن الأتابك «أبا بكر السلغري» لم يكتف بما حصل عليه من العيونيين بل تطلعت نفسه إلى السيطرة المباشرة على جزيرة أوال، وربما كان قد حصل على تأييد وتشجيع في خطته هذه من الأمير «عصفور بن راشد»(٤١) ، فأرسل ضدها حملتين بحريتين،

إحداهما سنة ٦٣٠هـ الموافق سنة ١٢٣٢م، والثانية سنة ٦٣٣هـ الموافق سنة ١٢٣٥م، إلاّ أن الأمير العيوني «محمد بن محمد بن أبي ماجد» الذي خلف «منصور بن علي» في الحكم استطاع ببسالة صد هاتين الحملتين[٤٢]، وتذكر مصادر التاريخ أن «أبا بكر بن سعد» لم يقتصر على الهجمات البحرية فأرسل حملة عسكرية إلى القطيف عن طريق البر تمكن الأمير «محمد بن محمد بن أبي ماجد» من دحرها حيث تمت له السيطرة على القطيف، كما نجح في استعادة جزيرة أوال وطرد عامل «أبي بكر بن سعد شهاب الدين أبي النظر» ومساعده «نجيب الدين عثمان» وظل مقيماً فيها حتى سنة ٦٣٦هـ الموافق سنة ١٢٣٨م، وفي هذه السنة سيّر «أبو بكر سعد» الحملة العسكرية البحرية إلى جزيرة، أوال بقصد الاستيلاء عليها، فالتحمت بقوات الأمير «محمد بن محمد بن أبي ماجد» ودارت بين الفريقين معركة حامية الوطيس في الجانب الغربي من الجزيرة استطاع فيها عسكر «أبي بكر بن سعد» انتزاع الجزيرة من آخر الأمراء العيونيين «محمد بن محمد بن أبي ماجد» وقتله ومصادرة أملاك أسرته[٤٣]، وبسقوط جزيرة أوال في قبضة «السلغريين» أفل نجم الدولة التي خفقت راياتها على البحرين مدة مائة وثمانية وستين عاماً من سنة ٤٦٨هـ إلى سنة ٦٣٦هـ الموافق سنة ١٠٧٧م إلى سنة ١٢٣٩م حكم خلالها بضعة وعشرون ملكاً وأميراً .

انتهى بعون الله وحمده،،،

****

الهـوامش

(١) مخطوطة ديوان ابن المقرب : ص ١٤٨ .

(٢) مخطوطة ديوان ابن المقرب : ص ١٤٨ .

(٣) عبدالفتاح الحلو : ديوان ابن المقرب، ص ١٠٣ .

(٤) مخطوطة ديوان ابن المقرب : ص ٦٢٤ .

(٥) مخطوطة ديوان ابن المقرب : ص ٥١٢ .

(٦) مخطوطة ديوان ابن المقرب : ص ٥١٢ ، انظر نسخة الحلو، ص ٥٥٨-٥٥٩.

(٧) مخطوطة ديوان ابن المقرب : ص ٥١٢ .

(٨) مخطوطة ديوان ابن المقرب : ص ٣٩٣ .

(٩) عبدالفتاح الحلو : ديوان ابن المقرب، ص ١٦٦ .

(١٠) مخطوطة ديوان ابن المقرب : ص ٦٢٣ .

(١١) مخطوطة ديوان ابن المقرب : ص ٤٣٣ .

(١٢) فضل العماري: ص ٣٦

(١٣) محمد سعيد المسلم: «ساحل الذهب الأسود» الطبعة الثانية، ص ١٦٤ .

(١٤) عبدالفتاح الحلو : ديوان ابن المقرب، ص ٥٥٩ .

(١٥) مخطوطة ديوان ابن المقرب : ص ١٥٦ .

(١٦) عبدالفتاح الحلو : ديوان ابن المقرب، ص ٤٧٨، ٤٧٩ .

(١٧) المديرس : إقليم البحرين في العصر العباسي، ص ١٣١ .

(١٨) الخضيري : علي بن المقرب، ص ١٣٣ .

(١٩) العماري : ص ٩٦ .

(٢٠) مخطوطة الديوان: ص ١٤٨، الديوان : ص ١٦٠ .

(٢١) مخطوطة الديوان : ص ٤٢٩، الديوان : ص ٤٧٣ .

(٢٢) مخطوطة ديوان ابن المقرب، ص٥١٠، الديوان : ص ٥٥٤ .

(٢٣) العماري : ص ٩٢ .

(٢٤) مخطوطة ديوان ابن المقرب، ص ٤٢٩ .

(٢٥) مخطوطة ديوان ابن المقرب: ص ٤٢٨ .

(٢٦) مخطوطة ديوان ابن المقرب: ص ٣٠٧ .

(٢٧) مخطوطة ديوان ابن المقرب : ص ٦ .

(٢٨) عبدالفتاح الحلو : ديوان ابن المقرب: ص٣٤٣ .

(٢٩) مخطوطة ديوان ابن المقرب، ص ٣٠٨ .

(٣٠) مخطوطة ديوان ابن المقرب: ص ٣٠٨ .

(٣١) عبدالفتاح الحلو : ديوان ابن المقرب: ص ٣٤٥ .

(٣٢) درب الحنابد : مكان شرقي الأحساء من البحرين، المسجد الفرد : مسجد بالجعلانية ويعرف بمسجد الأميرة «وهبة بنت الأمير أبي علي»، الجو ذي النخل : مكان يعرف بالمحرمة شمالي الجرعاء التي تعرف بالجعلانية في الأحساء . عبدالفتاح الحلو : ديوان ابن المقرب : ص ٣٤٥ .

(٣٣) مخطوطة ديوان ابن المقرب: ص ٣٠٩، ٣١٠.

(٣٤) العماري : ص ١٠٠ .

(٣٥) عبدالفتاح الحلو : ديوان ابن المقرب، ص ٣٩٥ .

(٣٦) عبدالفتاح الحلو : ديوان ابن المقرب، ص ٤٠٠ .

(٣٧) عبدالفتاح الحلو : ديوان ابن المقرب، ص ٤٠٥ .

(٣٨) المديرس : ص ١٣٦ .

(٣٩) عبدالفتاح الحلو : ديوان ابن المقرب، ص ٣٩٩ – ٤٠٠ .

(٤٠) مجلة العرب : عدد رجب وشعبان، سنة ١٤٠٠هـ، ص ٨٧ .

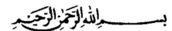
(٤١) عبداللطيف الحميدان : مجلة العرب، عدد رجب وشعبان، سنة ١٤٠٠هـ، ص ٨٧ .

(٤٢) مخطوطة ديوان ابن المقرب: ص٦٢٤ .

(٤٣) مخطوطة ديوان ابن المقرب: ص ٦٢٤، ٦٢٥ .

****

نسخة كتاب
أبي البهلول إلى ديوان الخلافة



أطال الله بقاء الشيخ الأجل الأوحد، وأدام تمكينه ورفعته، وعُلوه وقدرته وبسطته، وحرس أيامه ونعمته، وكبت عدوه وخذل حسدته.

من المستقر بجزيرة أوال لسبع بقين من ذي القعدة.

والسلامة مستدرة الأخلاف والنعمة مستقرة الائتلاف ببركته وبيمن طائره، والحمد لله حمداً يرضيه، ويستمد المزيد من مواهبه ويقتضيه، والصلاة الدائمة على نبيه محمد المصطفى وعترته الطاهرين.

ولا يخلو ناقل علم وخبر وحامل فهم وأثر من المعرفة بمن أجاب داعي الله وأطاع رسول الله صلى الله عليه وسلم، واتخذ طاعته شعاره وتلا فيها لذات الله أخباره، وكانت ممن صفت سريرته، وخلصت لله ولرسوله ﷺ طويته، وهاجر من وطنه إليه وقدم من مستقره ومسكنه عليه، مع الفئة الهجرية والفتية القطرية من آل عبدالقيس، ذوي الحفيظة والحمية، والنفوس العزيزة الأبية، قطعوا إليه المفاوز والقفار، وواصلوا نحوه سير الليل بالنهار، وله طائعين، ولأمره تابعين، ولدينه راضين، وللإسلام قابلين، وباعوا أنفسهم لله تعالى بين يديه مجاهدين، ولثوابه محتسبين، ولجزائه يوم الدين راجين، ثم نصروا من بعده الخلفاء الراشدين، والأئمة المهديين، ولم يزالوا بالدعوة العباسية قائلين ثبت الله أركانها، وقرن بالخلود سلطانها، ولدعاتها مجيبين، ولكلمتها

معلين، طوى على ذلك الأعمار السلف بعد السلف، وأخذ بحميد أثرها منهم الخلف بعد الخلف، حتى ظهر ذلك الملعون الصابي، أبو سعيد الجنابي، فشهر الدعوة القرمطية، وبدل الشريعة الحنفية، واستغوى من شايعه، واستهوى الذي أطاعه وبايعه، ومال بهم عن الطريقة الإسلامية بالزخارف الكاذبة المتمرتحية، واشتدت بالفئة الباغية شوكته، وكثرت في الفرقة المسلمة فتنته، وفشت فيهم نقمته، فقتل الأبطال، واستباح الأموال، وخرب المساجد، وعطل المنابر والمشاهد، وبدل القرآن، ومال به عن طريقه في البيان والبرهان، وحمله داعيه من الكفر والطغيان على أن جمع العدد الجم من الحجاج والمصاحف التي كانوا يتلون فيها بموضع من جانب بالأحساء يعرف بالرمادة إلى الآن، فأضرم فيها وفيهم النار، ولم يكن لهم منه ومن تعذيبه أنصار.

ثم أخذ ما أخذه ولده المعروف بأبي طاهر وقصد مقصده، وبلغ من الكفر غايته وأمده، فسار إلى البلاد وأوسع فيها غاية العبث والعناد حتى هجم على بيت الله الحرام، وقتل به سائر المجاورين ومن يتسمى بالإسلام، وسلب الكعبة نفيس ما عليها واستخرج منها ذخائرها التي كانت تجمعها وتحويها، واقتلع الحجر الأسود مجاهراً بالكفر والعناد وأراد أن ينصبه في كعبة بناها لنفسه في جانب القطيف المعروف بأرض الخط.

فكان كلما أثبته في كتر منها في نهاره وظن أنه قد أخذ مستقره وقراره أصبح في اليوم الثاني مباعداً عنها.

ثم إنه حجب الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى في هذه الأقطار للشهادة بربوبيته ووحدانيته والإقرار له بذلك، وأوهم من والاه من حفدته حزب الشيطان، وتابعه من أولي الغي والطغيان أنه هو الله المدبر، والخالق المصور المقدر، لا إله إلا هو سبحانه وتعالى عما يشركون. وسيرتهم أعني القرامطة في الفجور وتعاطي المنكر أكثر من أن أحدُ أقلها قدراً، وأن أبلغ منها عشراً، وهم على هذه السنة المشؤومة جادون، وبها آخذون،

والمسلم بين أيديهم يقاسي الامتحان، والذل والاستهان، ولم يبق بالبحرين من ينطق بالدين، ويتمسك بعرى الحق المبين، صابراً على كثرة الأذى يسأل الله تعالى إماطة البلا، غير هذه الجزيرة المعروفة بأوال، يدفعون طامي شرهم، وداعي أذاهم وضرهم، بالتي هي أحسن، وإن لم يكن في ذلك نيلاً يستهون، وكانت الأيام تنطوي وتمضي، والسنون تندرج وتنقضي، والقرمطي في قوة من مملكته، وشدة من سلطته، متمكناً من أغراضه وطلبته، نحو مئة وأربعين سنة منذ ملك هذه الجزيرة بفرعنته آمناً في ذلك كله من مقاوم يزاحمه، ومضاد يضادده، وكلما رأى رأساً ذا حال، وجاه ومال، يتوسم فيه إمارات الشهامة، ويدل على سمته الصرامة والزعامة قتله، وبالهلاك بدره وعاجله، حتى لان حبل دولتهم واضطرب، ووهى ركن مملكتهم، وكثرت منهم الأطماع في الأرواح والأموال، واستصفاء الأملاك والأحوال.

وكنت أرصد الوقت الذي جاء حينه أغمز قناتهم، وأقرع عند أوانه صفاتهم، فنهضت متعصباً للدولة العباسية، والدعوة الهاشمية – أدامها الله ما دام الديموم، وأزهرت النجوم – منتصراً لدين الله تعالى، ومعيداً ما طمس من شرعة رسول الله ﷺ.

وبعث إلي من بهذه الجزيرة المعمورة من ولد عبدالقيس أعزهم الله تعالى على التوازر، والتظاهر والتناصر في ذات الله، وطلباً لما عند الله (وما عند الله خيرٌ للأبرار) فاقبلوا نحوي داعين، ولقولي مطيعين، وإلى ندائي مبادرين، فطردنا من كان عندنا من ولاة القرامطة بعد خذلهم، ومن يقول بقولهم، ويتمذهب بمذهبهم، ولم يبق بهذه الجزيرة – حماها الله تعالى – ناظر يلي أمرها، ولا آمرٌ ولا ناهٍ يدبرها.

وتصور من بها أن لابد لهم من زعيم يلي أمرهم، ويسدد لما فيه استقامتهم وصلاح أمورهم، وقد تحققوا أنني أنهضهم بالأكفاء وبالأعباء، وأقومهم طريقة إلى تهذيب الآراء، وأكثرهم طلاقة، وأوفر ديانة وعفافة، وأعرفهم بمصادر الترتيب، وأبصرهم بموارد التصعيد والتصويب.

فاجتمع رأيهم على ترقيتي درجة الإمارة ورتبتها، وتقليدي أمور المحكمة وكلفتها، فامتنعت من قبولها، ونأيت عنها، فأكثروا ترددهم إليَّ، وعقدوا خناصرهم عليَّ، فالتزمتها، بعد عهود إليهم عهدتها، وعقود وثيقة عليهم عقدتها، أنهم يبذلون الأرواح في سبيل الله، ومجاهدة القرامطة أعداء الله، مستشعرين طاعة (الدولة العباسية)، والكلمة المباركة الهاشمية، مدة أعمارهم، ومنتهى آجالهم، وتكون طريقتهم الطاعة، ومذهبهم السنة والجماعة، مذهب الإمام أبي حنيفة، به يعرفون، وعليه يحيون ويموتون، مستصبراً في ما اعتمدته وتوخيته، وعليه صحة نيتي ومحض عقيدتي طويته، مستعيناً بالله تعالى، وواثقاً منه بحسن المعونة على ما أولانيه، وجميل المقابلة في ما أنالنيه.

فتحولت إلى (دار الإمارة)، ومكان الإيالة والأصالة.

وأقيم لمولانا الإمام (القائم بأمر الله) أمير المؤمنين - أطال الله بقاه وأعلى كلمته، وثبت دولته - في المسجد الجامع رسم الخطبة على العادة المعروفة ثم لي بعده، إذ لا جامع في هذه الأقطار كلها مع عرضها وطولها، يذكر فيه اسم الله إلا هو، وتقام الصلوات في سواه، وقد تجردت لمناصبة القرامطة خذلهم الله، ومحاربتهم في ذات الله، فعمدت إلى طرف من أطراف مملكتهم، يعرف بالعقير وهو دهليز الأحساء ومصب الخيرات منه إليها، وكثرة الانتفاعات التي جل الاعتماد عليها، فخربته، وبالحضيض الأسفل ألحقته.

وقطعت المادة منه عنهم، وضيقت فجاج ما كان يتسع لهم وما عليهم، وحميت موارد ارتفاعات دورها، وعدوت بالمدد الأوفى، والعدد الأكفى، والكماة الأنجاد، والحماة الأمجاد، إلى ناحية الخط بالقطيف وقد حصل فيها صنم من أصنامهم، وهو من بعض وزرائهم، يعرف بابن سنبر - خذله الله وخذل أشياعه، وأباد أنصاره وأتباعه، فقتلت عدة وافية من رجاله، وقد استعد بخيل كن للأعراب، يجعلها بيني وبينه كالحجاب، وهي حواليه تحميه من أن تخضد شوكته، وتجتث أصيلته، وقد اجتهدت في اجتذاب

مراكب كان قد أعدها للعبور فيها إلينا، والانصباب بها علينا، ولم يبلغ ما تمناه فينا أبداً إن شاء الله فمانع عنها بهذه الخيل ودافع بها دونها.

ولو كان لأهل هذه الجزيرة حماها الله مكنة، أو في أيديهم من المال فسحة، لأكففت من جهتهم ما أرضي من الأعراب، وسددت بذلك بيننا وبينهم الأبواب، ونزلت القرامطة بالهوادي والأعالي، والقوادم والخوافي، لأنهم بهم يطيرون ، وبمكانهم يغترون، وعن بابهم لا يفترون، بل جهلوا ما فيها من الارتفاعات وبغتة ساكنيها وقاطنيها وقت الإدراك.

ولو قيض الله برحمته لنا مرتباً يرتبنا، ومساعداً يساعدنا، بمال ينفقه لوجه الله سبحانه وتعالى، أو زكاة يصرفها إلينا رغبة في ما عند الله، لحططت بها أقدار هذه الكفرة، وأمتّ بقوته آثار القرامطة الفجرة، ولأرضيت الأعراب المطيفين بهم، المتفرقين حول بابهم. ولسرت إلى الأحساء بالأحشاد والرجال والصناديد والأبطال، ولملكتها واحتويتها بلا منازلة ولا قتال، وكان ذلك أقرب زلفة إلى الله تعالى، وأفضل عنده في ما توصل به أجنحة مجاهدي الروم.

فبالله الذي لا إله إلا هو يميناً برة وقسماً حقاً لجهاد القرامطة أفضل من قتال من سواهم، وإن رشقًا واحداً يرمى به في وجوههم، وسهماً مرسلاً يصل إلى رجل من عديدهم، ليوزن بسبعين سهماً يرمى في الهند والروم، لأنهم من ذوي الدين المذموم، وفيهم تقدم القول شعراً:

وحرّموا الصلواتِ الخمسَ في هجرٍ
والكفرُ ينزل والإيمانُ يرتحلُ

وآخر غيره:

وغيرُ حرامٍ أن يُباح لمعشرٍ
أغاروا على البيت الحرام حريمُ

فهل طائفة أحق بالمساعدة، وأولى بالمرافدة والمعاونة والمماكنة بالزكوات، والأموال المعدة للمثويات، من هذه الطائفة المرابطة لهؤلاء القرامطة ؟.

وقد تحمل الأموال الجمة إلى الرباطات وسائر الثغور، يطلب بها وجه الله تعالى والنصر على عدوه، وهذا والله هو الثغر الأعظم، ومساعفته بما فوق المكنة أو قدرها آثر وأحسم، وما أنفق فيه الفرد من الدراهم، أصاب به عند الله الفائدة وأجل المغنم.

وقد اكدت عند الله النذور، إن ساعدني على ما أنويه المقدور، وكفيت هؤلاء الأعراب، واقتدرت لهم على الإرضاء والاستجلاب، وملكت بتوفيق الله وعزته الأحساء ووطئت ارضها، واحتويت طولها وعرضها، وخربت قصور القرامطة التي أُسِّست على الصراح، وعمروها بطاعة الشيطان في الإمساء والإصباح، واستبدلت بها جوامع ومنابر، وابتنيت بها مشاهد ومنابر، وشيدتها بذكر الله تعالى وأوضحت للحاج إلى بيت الله الحرام السبيل، وأقمت لهم على ذلك أكرم شاهد ودليل، وأظهرت الشريعة الإسلامية وأعليت منارها، وأوضحت في الأيام والأنام انوارها، وصرفت الاهتمام إلى افتتاح البلاد التي يظهرني الله عليها، ويوصلني بركة طاعة سيدنا ومولانا الإمام (القائم بأمر الله) أمير المؤمنين - ثبت الله دعوته، وأعلى كلمته - إليها، وكنت للدولة العباسية ثبتها الله، والدعوة النبوية أدامها الله، عبداً مطيعاً، وخادماً مذعناً سميعاً، وقصدت بسعودها، كثيف جنودها، وخافق بنودها، (الشراة) الخوارج بأرض عمان، ومردة حزب الشيطان، الداعين إلى إمام منهم نصبوه، وأخذوا مأخذه وأطاعوه واتبعوه، ولم يغادروا بعده إماماً إلا كفروه واطرحوه ونبذوه، فأقتل بمشيئة الله وعونه محاربيهم، وأزيلهم عن مراتبهم، وأزعجهم عن جوانبهم، حتى يفيئوا إلى طاعة سيدنا ومولانا الإمام (القائم بأمر الله) أمير المؤمنين - ادام الله أيامه - وأنفذ في الورى احكامه، ويأخذوا سنتها، ويسلكوا سبيلها.

ولا زال العبد يتسلى الجهاد في طاعته، وباذل الجهد لإشادة دعوة دولته، حتى ينفذ أجلي المكتوب، وينقطع نياط نَفْسي ونَفَسي المعدود المحسوب، وقد انهيت هذه

الأحوال المتجددة والأسباب الحادثة إلى حضرة سيدنا الأجل السيد الأوحد – أدام الله بسطته – وهي من البشارة السارة للقلوب، القاضية لإرادة المحبوب، ليأخذ حظه من الابتهاج بها، والاجتذال بمكانها لاسيما في ما سهله الله تعالى بلطفه في أيام سيدنا ومولانا الإمام (القائم بأمر الله) أمير المؤمنين، أطال الله في العز الدائم بقاه، ونصر جنده ولواه، وكبت حسدته وعداه.

وقد مضت لهذه الدولة القرمطية المشؤومة مئة وإحدى وسبعون سنة على عهد من سلف من الأئمة، وولاة العهد من الخلفاء المتقدمة، ولم يبق أحد من الملوك الماضية إلا رام مملكة من ممالك هؤلاء القرامطة، فعز عليه مطلبه، وقد مكنني الله تعالى من بعض مملكتهم، ولو يتطول علي بالمساعدة والمؤازرة والمرافدة لرأيت من ذلك المقام الأشرف والدين النبوي المعظم، نور الله بإنفاذه إلى سائر القرى من مواضع الإسلام بالمبادرة إلينا، والاجتماع لنصرتنا، وصلة جناحنا من جهة ترجع إلى حال، وسلاح أو عدد بالمساعدة لنا وما يتفق من الرجال، ويتسهّل من المال، لوقع الاستظهار به والقوة بمكانه، لبلغت المأمول، وأدركت السؤل، بعد أن لا يكون علينا طاعة ملتزمة إلا لسيدنا ومولانا الإمام القائم بأمر الله أمير المؤمنين، أطال الله بقاه، ونصر لواه، دون من سواه، من ولاة عهده، وقائدي جنده.

وقد أنهيت هذه الجملة التي أنا لابسها ومباشرها وممارسها، إلى حضرته – أدام الله علوها – لينعم أعلى الله شأنه بالوقوف عليها والإنعام بإنهائها إلى هذا المقام الأشرف النبوي – نوره الله وعظمه – وتشريفي بالجواب، الذي أدفع به عني صدمة النوائب، وأكتشف بمكانه فورة الحوادث، وأتقدم بشرفه في الأنام، وأتيمن بيمينه بين الخاص والعام.

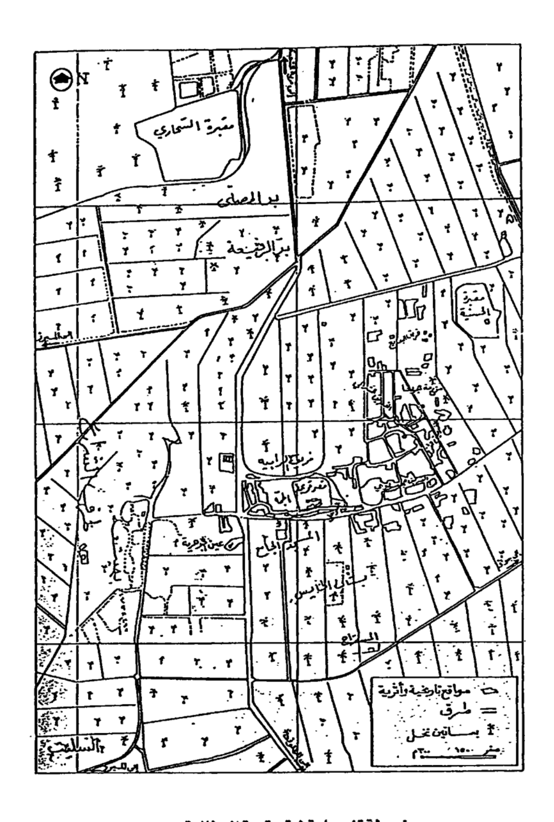
وقد شافهت الشيخ الجليل أبا يعلى ظافر بن علي الرحبي – أدام الله تأييده، وسلمه لما يريده بعالي حضرته، وعند المنزلة بسامي مدته – لمشاهدته بهذا المكان ما

شاهده من مخالصتي، وحسن طاعتي، ولرأيه – دام عالياً – في استماعه واستيفاء تشريفي بالجواب عنه، بما يهز عطفي، ويرفع طرفي، واستنجادي بالأوامر النامية، والمراسم العالية، التي انتهى إليها، وابتهج بالسعي فيها، من يد القدرة والجلال إن شاء الله تعالى.

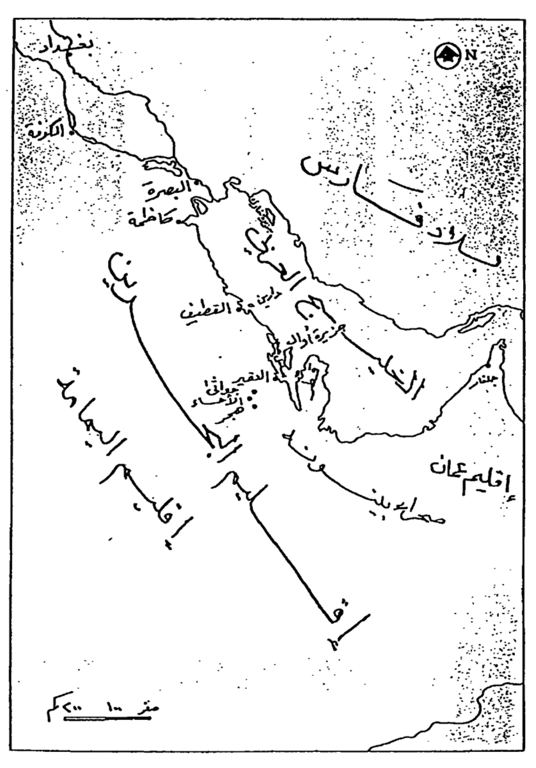
وقد تجدّد بعد الفراغ من الخدمة ما أنهيه على وجه الاختصار، وذلك أن الملعون ابن سنبر – خذله الله – جمع رجاله وحفدته، وأشياعه وفرقته، في العدد الكثير، والجم الغفير، وشحن بهم الدوانيق والمراكب، وسار بهم يريد قتالي، وهلاك رجالي، فاستقبلتهم بجيوش الله ذوي الدين، وصحة اليقين، وهجمت عليهم في البحر فقتلت منهم أكثرهم، وغرقت أوفرهم ، وغنم الأصحاب – نصرهم الله – ما كان عندهم من عدة وسلاح وخيل، وأفلت هو من تحت القبضة هارباً بنفسه، وأتى القتل والأسر على وجوه جنده ورؤساء رجاله، لعنهم الله.

وطالعت بذلك لينعم بالوقوف عليه، ويرى بصائب الرأي العالي إمدادي بما أسير به وبقوته إلى الأحساء بمشيئة الله. وهو حسبي ونعم الوكيل، وصلواته على خير خلقه محمد ﷺ .

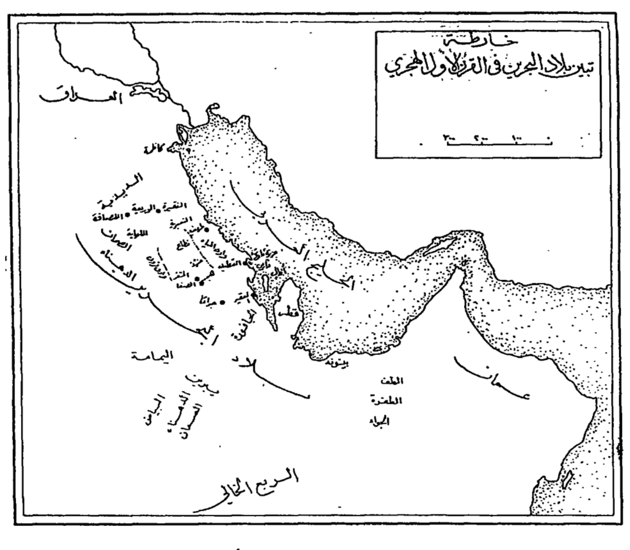
****



خريطة تفصيلية لموقع قرية البطالية
نقلاً عن كتاب الآثار الإسلامية في قرية البطالية



إقليم البحرين في العصر العباسي المبكر
نقلاً عن كتاب الآثار الإسلامية في قرية البطالية



خريطة تبين بلاد البحرين في القرن الأول الهجري

نقلاً عن كتاب البحرين في صدر الإسلام وأثرها في حركة الخوارج لعبدالرحمن النجم

المصــادر

١ – أبومنصور الأزهري: التهذيب، ج ٥ .

٢ – أحمد بن حنبل: مسند أحمد بن حنبل،ج ٣ .

٣ – أرثر كريستين: إيران في عهد الساسانيين، ترجمة يحيى الخشاب، دار النهضة العربية، بيروت .

٤ – أرنولد ويلسون: تاريخ الخليج .

٥ – ابن حزم: أبومحمد علي بن أحمد الأندلسي، جمهرة أنساب العرب، تحقيق محمد عوانة، مطبعة محمد هاشم الكتبي، بيروت،ج ١ .

٦ – ابن رستة: أبوعلي أحمد بن عمر، الأعلاق النفيسة .

٧ – ابن سعد: الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت، ج ٥ .

٨ – ابن لعبون: تاريخ ابن لعبون، مخطوط .

٩ – ابن منظور: أبوالفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، ج ٥ .

١٠ – البلاذري: فتوح البلدان .

١١ – الحلبي بن برهان: في السيرة الحلبية، ج ٣ .

١٢ – الربيع بن حوثرة: ج ٩ .

١٣ – السمعاني: أبوسعيد عبدالكريم بن محمد، الأنساب، تحقيق محمد عوانة، مطبعة محمد هاشم الكتبي، بيروت، ج ١ .

١٤ – العسقلاني: أحمد بن علي بن حجر، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، باب أداء الخمس من الإيمان، دار الفكر العربي، بيروت، ج ١ .

١٥ – المسعودي: أبوالحسن بن علي بن الحسين بن علي، مروج الذهب، ج ٢ – التنبيه والإشراف .

١٦ – المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم .

١٧ – النووي: أبوزكريا يحيى بن شرف، رياض الصالحين، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر.

١٨ – النويري: نهاية الأرب المنشور في كتاب الجامع في أخبار القرامطة.

١٩ – الهمداني: الحسن بن أحمد، صفة جزيرة العرب، منشورات دار اليمامة .

٢٠ - توفيق فهد: لجنة تدوين تاريخ قطر، البحوث المقدمة إلى مؤتمر دراسات تاريخ شبه الجزيرة العربية .

٢١ - المقريزي: تقي الدين أحمد بن علي، اتعاظ الحنفاء .

٢٢ - ج - ج - لوريمر: دليل الخليج، القسم الجغرافي، ج٢، أعدها قسم الترجمة بمكتب صاحب السمو أمير دولة قطر .

٢٣ - جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ١ .

٢٤ - الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير. تاريخ الأمم والملوك، ج ٢ .

٢٥ - حمد الجاسر: المعجم الجغرافي للبلاد العربية، المنطقة الشرقية «البحرين قديماً»، منشورات دار اليمامة، ج ١ .

٢٦ - خليفة بن خياط: التاريخ، ج ١ .

٢٧ - خير الدين الزركلي: الأعلام، ج ٩، ج ١٠ .

٢٨ - سليمان إبراهيم العسكري : التجارة والملاحة في الخليج العربي في العصر العباسي .

٢٩ - سليمان سعدون البدر: منطقة الخليج العربي خلال الألفين الثاني والأول قبل الميلاد .

٣٠ - سهيل زكار: أخبار القرامطة، كتاب ٢ - الجامع في أخبار القرامطة .

٣١ - العوتبي: سلمة بن مسلم الصحاري، عُمان، وزارة التراث القومي والثقافة، ج ١ .

٣٢ - الحموي: شهاب الدين أبوعبدالله ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢، ج٣، ج٤، ج٥.

٣٣ - الدمشقي: شمس الدين الدمشقي محمد بن أبي طالب الأنصاري، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر .

٣٤ - أبوالفداء: عماد الدين إسماعيل محمد بن عمر ، تقويم البلدان، دار الطباعة السلطانية .

٣٥ - ابن الأثير: عزالدين بن الحسن علي بن محمد، الكامل في التاريخ، ج ١

٣٦ - ابن خلدون: عبدالرحمن بن خلدون المغربي، العبر وديوان المبتدأ والخبر، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ج٣ - مقدمة ابن خلدون، دار الكتاب اللبناني، بيروت .

٣٧ - البغدادي: عبدالقادر بن طاهر ، الفرق بين الفرق .

٣٨ - البكري: عبدالله بن عبدالعزيز ، معجم ما استعجم، عالم الكتب، بيروت، ج ١ .

٣٩ - ابن قتيبة: عبدالله بن مسلم. المعارف، تحقيق ثروت عكاشة، دار المعارف، مصر، ط ٢.

٤٠ - عبدالرحمن بن عثمان الملا: تاريخ هجر، مكتبة التعاون الثقافي، ج ١، ط ١ .

٤١ - عبدالرحمن عبدالكريم النجم: البحرين في صدر الإسلام، دار الحرية للطباعة، مطبعة الجمهورية، بغداد .

٤٢ - عبدالرحمن مديرس المديرس: إقليم البحرين في العصر العباسي، مخطوطة رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي، كلية الآداب، جامعة الملك سعود سنة ١٤٠٤هـ .

٤٣ - عبدالفتاح الحلو: ديوان ابن المقرب، تحقيق وشرح، مكتبة التعاون الثقافي، ط٢ .

٤٤ - عبداللطيف الحميدان: مجلة العرب، عدد رجب وشعبان سنة ١٤٠٠هـ .

٤٥ - عبدالله ناصر السبيعي: اكتشاف النفط وأثره على الحياة الاقتصادية في المنطقة الشرقية .

٤٦ - عبدالوهاب العيسى القطامي: الصيد والتنقل والتجارة في البحار، الملحق في نهاية كتاب والده: دليل المحتار .

٤٧ - علي عبدالعزيز الخضيري: علي بن المقرب حياته وشعره، مؤسسة الرسالة، بيروت .

٤٨ - عمر رضا كحالة: جغرافية شبه الجزيرة العربية .

٤٩ - د.فضل بن عمار العماري: ابن مقرب وتاريخ الدولة العيونية في بلاد البحرين، مكتبة التوبة .

٥٠ - الفيروز آبادي: القاموس المحيط، مجلد ١ .

٥١ - الآلوسي: محمود شكري، تاريخ نجد .

٥٢ - مجلة أطلال: العدد السادس .

٥٣ - مجلة المنهل: ج ٣، ربيع الأول سنة ١٣٩٣هـ .

٥٤ - مجلة الوثيقة: العدد السابع، شوال سنة ١٤٠٥هـ .

٥٥ - محمد بن عبدالله بن عبدالمحسن آل عبدالقادر: تحفة المستفيد، مكتبة المعارف، الرياض.

٥٦ - محمد بن علي النجار الحساوي: مخطوطة ديوان ابن المقرب لخزانة الفقيه «إبراهيم بن حسن بن زهير» خاص بمؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري.

٥٧ - محمد سعيد المسلم: ساحل الذهب الأسود، مكتبة الحياة، بيروت، ط٢ .

٥٨ - محمد شفيق غربال: الموسوعة الميسرة .

٥٩ - محمود شاكر: البحرين .

٦٠ - محيي الدين اللاذقي: ثلاثية الحلم القرمطي .

٦١ - مختارات قافلة الزيت: العدد الثامن، سنة ١٣٧٦هـ .

٦٢ - ميكال يان دي خويه: القرامطة .

٦٣ - النبهاني: محمد بن خليفة، التحفة النبهانية في إمارات الجزيرة العربية .

٦٤ - الواقدي: محمد بن عمر، كتاب الردة، رواية أحمد بن محمد بن أعثم، ط ١، تحقيق يحيى الجبوري، دار الغرب الإسلامي، بيروت .

٦٥ - نجيل جروم: أطلال، العدد السادس .

٦٦ - نزهة المشتاق في اجتياز الآفاق .

٦٧ - ناصر خسرو: سفر نامه، رحلة ناصر خسرو إلى لبنان وفلسطين ومصر والجزيرة العربية في القرن الخامس الهجري، د.يحيى الخشاب، دار الكتاب الجديد .

٦٨ - ياقوت بن عبدالله الحموي: معجم البلدان، دار بيروت للطباعة والنشر، ج ١ .

****

الفهرس

القسم الأول : ملامح الحياة الحضارية ومقوماتها

الفصل الأول: الأحوال الطبيعية والتشكيل السكاني

الفصل الثاني : مراكز الاستيطان الحضاري

المراكز الحضرية

الفصل الثالث : الأحوال الاقتصادية

القسم الثاني : التاريخ السياسي

الفصل الأول : التاريخ السياسي قبل نشأة الإمارة العيونية

الفصل الثاني : الحركة القرمطية

الفصل الثالث : الدولة الجنابية في الأحساء من الأوج إلى الزوال

الفصل الرابع : الحركات الانفصالية

الفصل الخامس : انتفاضة عبدالله بن علي العيوني ضد القرامطة في الأحساء وإطاحته بهم وتأسيس الدولة العيونية والاستيلاء على كامل إقليم البحرين.

الفصل السادس : الإمارة العيونية من الازدهار إلى التمزق والانقسام

الفصل السابع : العيونيون في دور النهوض

الفصل الثامن : الدولة العيونية في دور الانحلال

الفصل التاسع: زوال الإمارة العيونية وأفول نجمها

ملاحـق:

****





2002